
ساحر الكتب

حروب القطط

في البراري

WARRIORS: Into The Wild

حروب القطط

في البراري

WARRIORS: Into The Wild

إيرين هانتر

ERIN HUNTER

ترجمة

زينة إدريس

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والترجمة

مقدّمة النسخة العربية

ابتكرت المؤلّفة عالماً جذّاباً قائماً على ميثولوجيا وبنية معقّدة، وضمّنته عدداً كبيراً ومربكاً قليلاً من الشخصيات.

يضم عالم حروب القطط أربعاً من العشائر التي تعيش في الغابة: عشيرة الرعد، عشيرة الظلال، عشيرة النهر، وعشيرة الرياح.

تراتبية العشيرة:

تملك العشائر نظاماً هرمياً، بحيث تحتلّ القطط مناصب مختلفة ضمن العشيرة الواحدة. يُمنح زعيم العشيرة تسع أرواح واسم زعيم يبدأ بكلمة "نجم". وهو الذي يتّخذ كلّ القرارات الهامّة، كشنّ المعارك أو ترقية المحاربين. وكلمته هي القانون، بحسب قانون المحاربين. يأتي من بعده النائب، الذي يخلف الزعيم عندما يخسر هذا الأخير روحه الأخيرة. تقوم وظيفته الأساسية على تنظيم الدوريات وغيرها من المهام اليومية. ولكي يعيَّن الهرّ نائباً، يجب أن يكون محارباً قام بتدريب مبتدئ واحد على الأقلّ. تضمّ العشيرة أيضاً هرّاً مداوياً تأتيه رسائل من عشيرة النجوم (أرواح القطط الميتة) ويتمّ تدريبه جيّداً على استخدام الأعشاب لمعالجة القطط المريضة أو الجريحة. غير أنّه لا يُسمح للقطط المداوية بالتزاوج أو الإنجاب لأنّ هذا الأمر يلهيها عن واجباتها.

يأتي بعد ذلك المبتدئون الذين يتدرّبون على واجبات المحارب، أي الصيد والدفاع عن العشيرة. تبدأ كلّ أسماء المبتدئين بكلمة "بسّ". وهم يتدرّبون على أيدي المحاربين الذين ينقلون إليهم المعرفة والمهارات التي تعلّموها من مدرّبيهم. تمتدّ فترة التدريب عادة على ستّة أشهر، يخوضون من بعدها اختباراً، ويصبحون محاربين عندما يرى مدرّبوهم أنّهم أصبحوا جاهزين لذلك ويوافق زعيم العشيرة. تبدأ أسماء المحاربين بكلمات مختلفة مثل "قلب"، "فراء"، "ذيل"، "نمر"... ويختار زعيم العشيرة الاسم خلال حفل رسمي.

عندما يشيخ الهرّ، أو يصاب بمرض أو عجز دائم، يتقاعد ويصبح مسنّاً. يشارك المسنّون معرفتهم وخبرتهم مع العشيرة ويهتمّ بهم المبتدئون. أمّا وظيفتهم الوحيدة فتقوم على دفن أموات العشيرة. في العشيرة أيضاً قطط حضانة تنتظر أو ترعى صغاراً. عادة تستأنف هرّة الحضانة واجباتها كمحاربة عندما يكبر صغارها، وهي غير مجبرة على كشف هوية والدهم. يبدأ اسم القطط الصغيرة بكلمة "بسبوس"، ويصبحون مبتدئين بعد بلوغهم الشهر السادس من عمرهم.

مصطلحات العشائر:

تستخدم العشائر مفردات مختلفة لبعض المفاهيم والأشياء في العالم الطبيعي. منها ما

يشير إلى المخلوقات الأخرى، مثل "ذوي الساقين" (البشر)، أو "البسبوس الأليف" (هرّ المنزل)، ومنها ما يشير إلى أشياء يستخدمها البشر، مثل "وحش" (سيارة)، مأوى الخيل (الإسطبل)، أعشاش أو أوكار ذوي الساقين (المنازل)، السكاكيني (البيطري). ثمة أيضاً "الفراء الفضي" (الطريق اللبنية) وطعام الغربان (الجيف).

كما تستعمل القطط عبارات خاصة للإشارة إلى الزمن والمقاسات. فتحدد الزمن بحسب موقع الشمس والقمر في السماء: "علوّ الشمس" (الظهيرة)، "علوّ القمر" (منتصف الليل). أما المسافات، فتحدّد قياساً إلى طول الحيوانات الأخرى: طول ثعلب (حوالى 80 سم)، وثبة أرنب (حوالى 50 سم)، طول ذيل (حوالى 30 سم).

وسمّيت الفصول بحسب تبدّل مشهد الغابة وأثر ذلك على الحيوانات: فصل الزهر (الربيع)، فصل الحرّ (الصيف)، فصل الرياح (الخريف)، وفصل الثلوج (الشتاء).

ومن العبارات المستخدمة: هرّ بدماغ فأر (أحمق)، هرّ بقلب فأر (جبان)، هرّ بقلب ثعلب (ماكر)...

اعترض بسّ رمادي بصوت خافت: "لكنّ البسابيس الأليفة لا تستطيع أن تصبح محاربة، فهي لا تملك دم المحاربين!".

شابت عينا نجمة الصباح نظرة حزينة، وردّدت متنهّدة: "دم المحاربين، كم أريق منه في الآونة الأخيرة".

صمتت نجمة الصباح بينما ماء قلب الأسد قائلاً: "نجمة الصباح تعرض عليك التدرّب وحسب أيّها الشابّ، لكننّا لا نضمن لك أن تصبح محارباً. عليك أن تفهم أنّ نجمة الصباح لا تقدّم لك هذا العرض بخفّة. إن أردت أن تتدرّب معنا، سيتعيّن علينا إدخالك إلى عشيرتنا. وإمّا أن تعيش معنا وتحترم تقاليدنا، أو تعود إلى ذوي الساقين ولا ترجع إلينا أبداً. لا يمكنك أن تعيش بين عالمين".

عشائر الغابة

عشيرة الرعد

الزعيمة

نجمة الصباح– هرّة ذات فراء رمادي مائل إلى الزرقة مشوب بلون فضّي حول خطمها.

النائب

ذيل الأرجوان – هرّ صغير يجمع بين اللونين الأشقر والبنّي، مع ذيل أشقر مميّز مائل إلى الاحمرار.

يمرّن المبتدئ بسّ أغبر.

الهرّة المداوية

الورقة الرقطاء – هرّة جميلة داكنة تجمع بين اللونين الأشقر والبنّي، ذات فراء مرقّط جميل.

المحاربون

(هررة ذكور وهرر إناث لا يملكن صغاراً)

قلب الأسد – هرّ ذهبي مخطّط رائع ذو فراء كثيف مثل عرف الأسد.

يمرّن المبتدئ بسّ رمادي.

الرعب الأبيض – هرّ أبيض كبير.

يمرّن المبتدئة بسّة الرمال.

النمر الأسود – هرّ ذو فراء أملس مخطّط باللونين الأسود والرمادي.

النمر الذيّال– هرّ فاتح اللون مخطّط بالأسود.

البرق الخاطف – هرّ مخطّط يمتاز بسرعته.

غصن الصفصاف – هرّة ذات لون رمادي مائل إلى البياض وعيون شديدة الزرقة.

الفأرة السمراء – هرّة سمراء صغيرة الحجم.

المبتدئون (هررة تجاوزوا الشهر السادس من العمر، يتدرّبون ليصبحوا محاربين)

بسّ أغبر – هرّ بنّي داكن.

بسّ رمادي – هرّ رمادي قوي البنية وطويل الفراء.

بسّ النار – هرّ أشقر وسيم.

إناث الحضانة (هرر تنتظر أو تربّي صغاراً)

بياض الثلج – هرّة جميلة ذات فراء أبيض وعينين زرقاوين.

عين الزمرّد – هرّة مخطّطة ذات عينين خضراوين جميلتين.

زهرة الذهب – هرّة شقراء فاتحة اللون.

النمرة الشقراء – هرّة شقراء مخطّطة، وأكبر إناث الحضانة سنّاً.

القطط المسنّة (إناث ومحاربون سابقون متقاعدون حالياً)

الذيل الأبتر – هرّ مخطّط كبير الحجم ذو فراء بنّي داكن خسر جزءاً من ذيله.

شمشوم – هرّ رمادي يملك أذنين صغيرتين جدّاً وهو أكبر هرّ في عشيرة الرعد.

كشكول – هرّ صغير أبيض وأسود اللون.

فراء الكستناء – هرّة بنّية كانت جميلة في شبابها ذات فراء مرقّط ناعم.

الزعيم — **النجم نمرود** – هرّ بنّي داكن ذو فراء مخطّط وطويل.

النائب — **الكفّ الأسود** – هرّ أبيض كبير أكفّه سوداء كالفحم.

الهرّ المداوي — **شرشور** – هرّ صغير رمادي وأبيض.

المحاربون — **الذيل القصير** – هرّ بنّي مخطّط.

يمرّن المبتدئ بسّ بنّي.

جلمود – هرّ فضّي مخطّط.

يمرّن المبتدئ بسّ تشتوش.

نمس – هرّ بنّي تكثر فيه الندوب.

يمرّن المبتدئ بسّ هرهور.

فراء الليل – هرّ أسود.

إناث الحضانة — **سحابة الفجر** – هرّة مخطّطة صغيرة.

الزهرة السوداء – هرّة سوداء وبيضاء.

سحاب الرماد – هرّ رمادي هزيل.

عشيرة الرياح

الزعيم **النجم المذنّب** – هرّ أسود وأبيض ذو ذيل طويل جدّاً.

عشيرة النهر

الزعيم **النجم الأعوج** – هرّ مخطّط ضخم وفاتح اللون يمتاز بفكّه الأعوج.

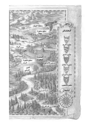
النائب **قلب السنديان** – هرّ ذو لون بنّي مائل إلى الاحمرار.

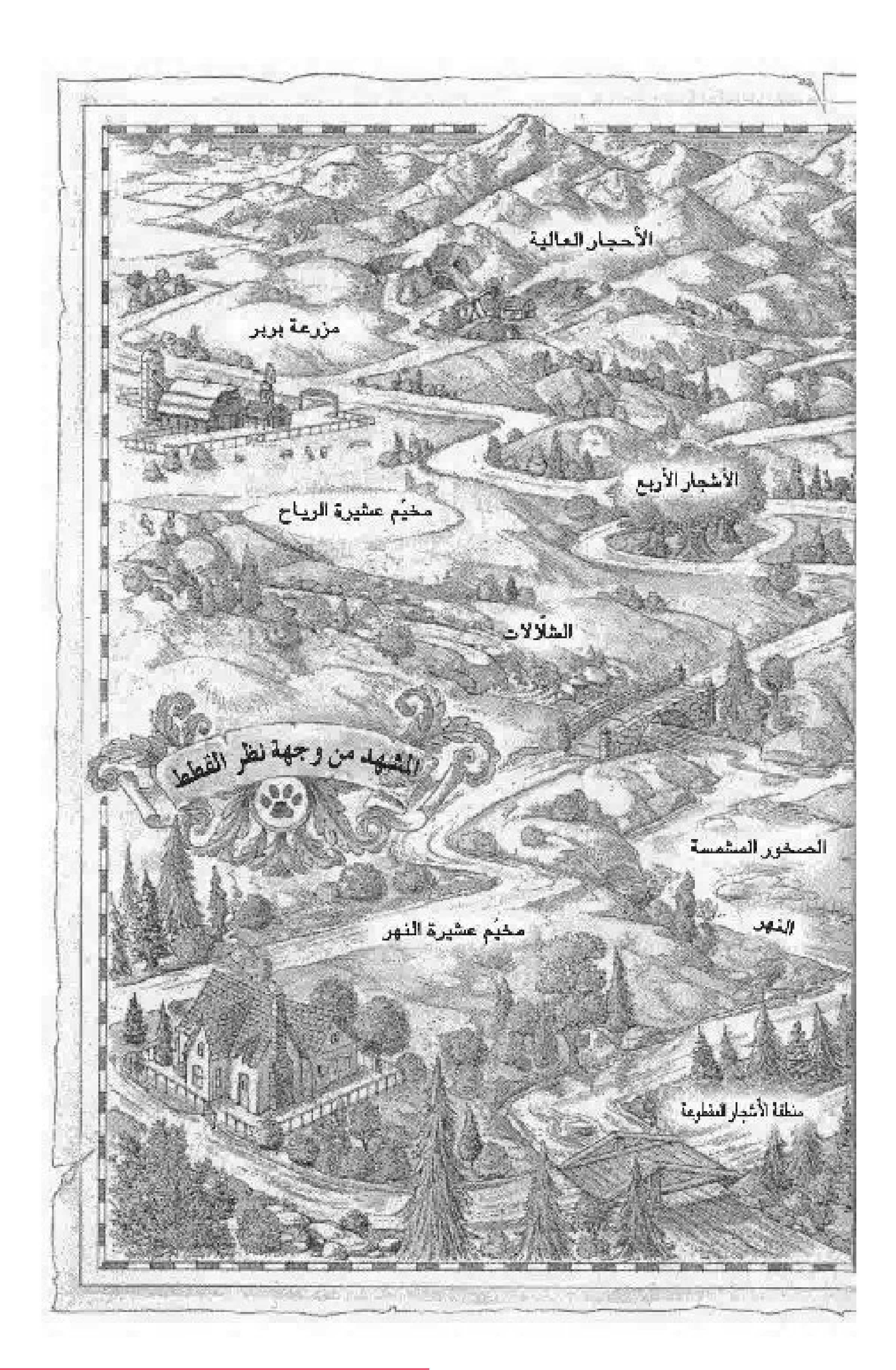
قطط من خارج العشائر

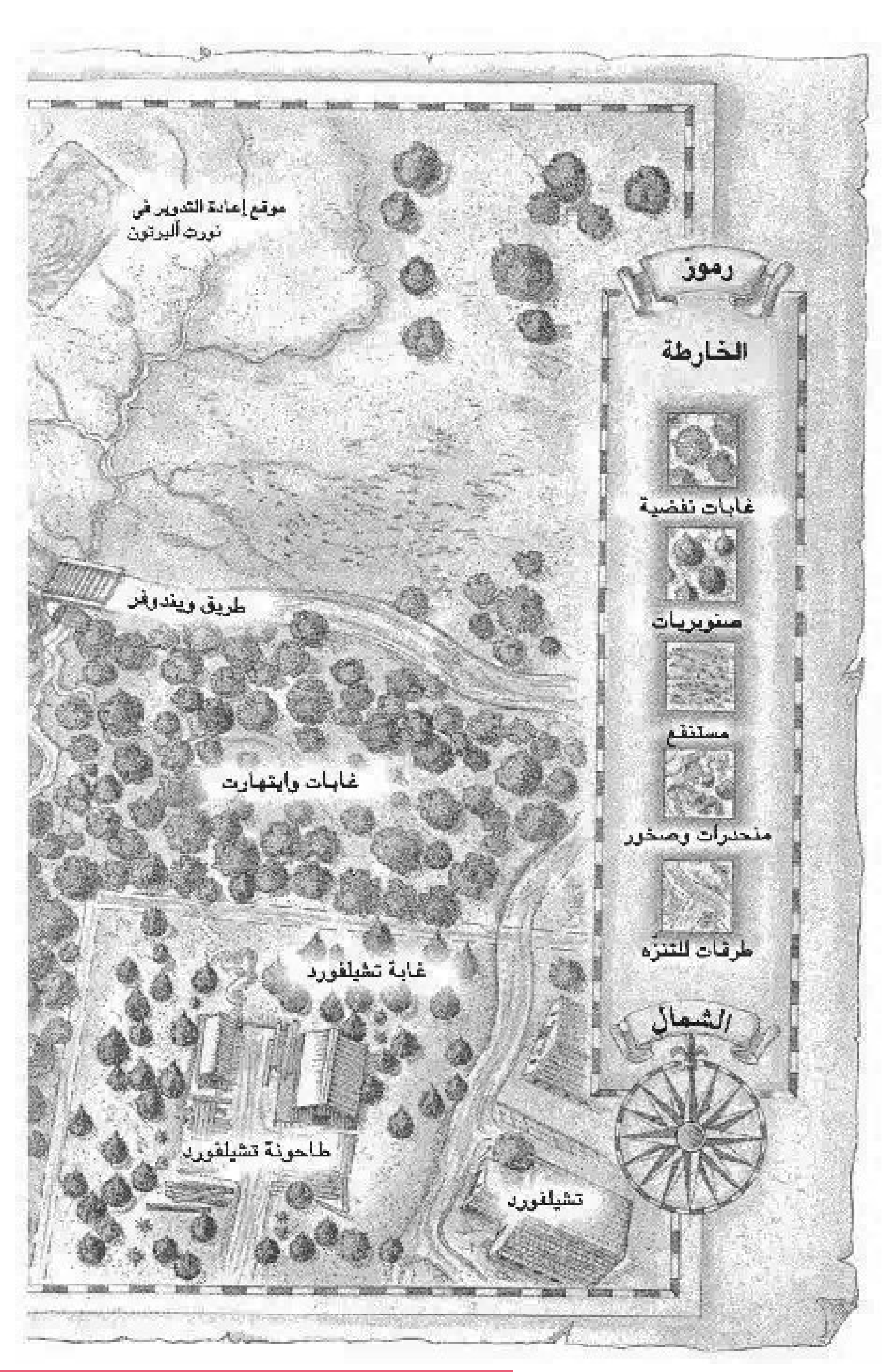
جمرة – هرّة عجوز ذات لون رمادي داكن ووجه عريض ومسطّح.

زعتر – هرّ صغير أبيض وأسود، ممتلئ الجسم وودود، يعيش في منزل عند أطراف الغابة.

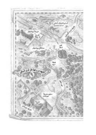
بربر – هرّ أبيض وأسود يعيش في مزرعة قريبة من الغابة.

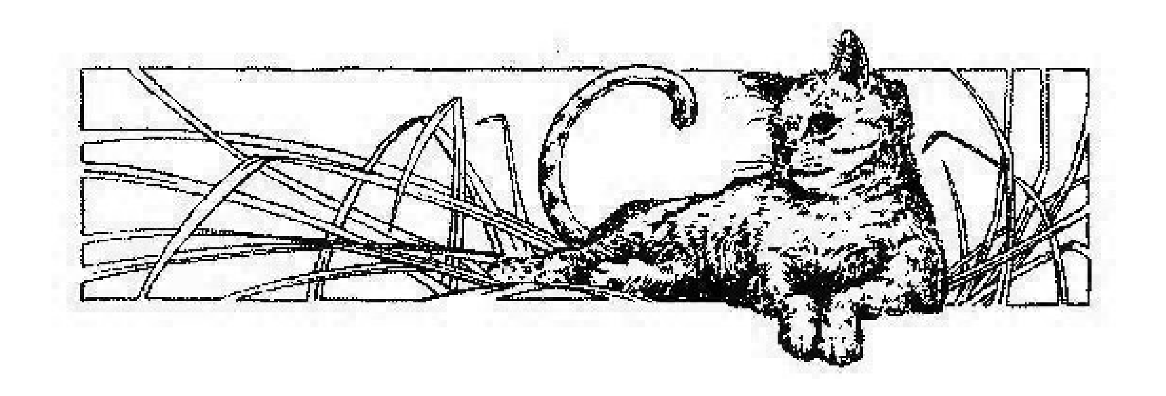



الأحجار العالية
مزرعة بربر
الأشجار الأربع
مخيَّم عشيرة الرياح
الشلّالات
المشهد من وجهة نظر القطط
الصخور المشمسة
مخيَّم عشيرة النهر
منطقة الأشجار المقطوعة

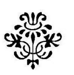


موقع إعادة التدوير في
نورث أليرتون
رموز
الخارطة
غابات نفضية
صنوبريات
مستنقع
منحدرات وصخور
طرقات للتنزه
الشمال
طريق ويندوفر
غابات وايتهارت
غابة تشيلفورد
طاحونة تشيلفورد
تشيلفورد





مقدمة



ألقى الهلال ضوءه على صخور الغرانيت الملساء، فتوهّجت بلون فضّي. لم يتخلّل الصمت سوى خرير المياه المتدفّقة في النهر الأسود وهمسات أشجار الغابة.

تحرّكت الظلال، وتسلّلت من كلّ اتّجاه أشكال داكنة زحفت خلسة فوق الصخور. انعكس ضوء القمر على مخالبها المستلّة تأهّباً، وومضت عيونها الحذرة بلون كالعنبر. فجأة، انقضّت تلك المخلوقات على بعضها، كما لو أنّها تلقّت إشارة صامتة، واشتعلت الصخور بالقتال وبصراخ القطط.

في وسط ذلك الشجار العنيف الذي اختلطت فيه الأجسام المكسوّة بالفراء واشتبكت المخالب، ثبّت هرّ أسود ضخم هرّاً بنّياً على الأرض ثمّ رفع رأسه منتصراً، وزمجر يقول: "كيف تجرؤ على الصيد في أرضنا يا قلب السنديان؟ الصخور المشمسة تنتمي إلى عشيرة الرعد!".

ردّ عليه الهرّ البنّي بشراسة: "من هذه الليلة فصاعداً، ستكون هذه المنطقة جزءاً من أراضي عشيرة النهر أيّها النمر الشرس!"

تناهى إلى مسامعهم عواء تحذيري من الضفّة، وكان صاخباً وعدوانياً. "احذروا! إنّ مزيداً من محاربي عشيرة النهر قادمون!"

التفت النمر الشرس ليرى أجساداً ملساء مبتلّة تخرج من الماء تحت الصخور. صعد محاربو عشيرة النهر إلى الضفّة بصمت، بفرائهم المثقل بالماء، وألقوا بأنفسهم في المعركة من دون حتّى أن ينفضوا الماء عن أجسادهم.

نظر الهرّ المخطّط الأسمر إلى قلب السنديان وقال له: "ربّما كنتم تسبحون مثل ثعالب

الماء، لكن أنت ومحاربيك لا تنتمون إلى هذه الغابة!" ثمّ كشّر عن أنيابه، بينما راح الهرّ يكافح للإفلات منه.

ارتفعت صرخة يائسة لهرّة من عشيرة الرعد وطغت على صخب المعركة. كان هرّ نحيل من عشيرة النهر قد ثبّت المحاربة البنّية على بطنها، وهمّ بالانقضاض على عنقها بفكّه الذي ما زالت مياه النهر تقطر منه.

سمع النمر الشرس الصرخة، فأفلت قلب السنديان. وبقفزة واحدة، دفع المحاربَ العدوّ عن الهرّة، وهتف قائلاً: "أسرعي أيّتها الفأرة السمراء، اهربي!"، ثمّ انقضّ على الهرّ الذي كان يهدّدها. وقفت الفأرة السمراء على قوائمها، وقاومت الألم الذي سبّبه لها جرح عميق في كتفها، ثمّ فرّت هاربة.

خلفها، بصق النمر الشرس غاضباً بعدما شقّ هرّ عشيرة النهر أنفه. سال الدم من وجهه، لكنّه اندفع بلا اكتراث وغرز أسنانه في القائمة الخلفية لعدوّه. فأطلق الهرّ صرخة ألم وكافح للتحرّر.

"أيّها النمر الشرس!" أتت الصيحة من محارب ذي ذيل أحمر مثل فراء الثعلب. "هذه المعركة لا طائل منها، فمحاربو عشيرة النهر كثر!"

ردّ عليه النمر الشرس وهو يقفز للوقوف إلى جانبه: "كلّا يا ذيل الأرجوان، عشيرة الرعد لاتُهزم أبداً! فهذه أرضنا!" كان الدم يسيل بغزارة حول خطمه الكبير الأسود. فهزّ رأسه بنفاد صبر، وتناثرت القطرات القرمزية على الصخور.

" ستقدّر عشيرة الرعد شجاعتك أيّها النمر الشرس، لكنّنا لا نستطيع أن نحتمل خسارة المزيد من محاربينا". ثمّ تابع بإصرار: "لن تقبل نجمة الصباح أن يقاتل محاربوها في ظلّ ظروف مستحيلة كهذه. سنقتنص فرصة أخرى للانتقام لهذه الهزيمة". نظر بثبات إلى عيني النمر الشرس العنبريتين، ثمّ تراجع وتسلّق صخرة عند طرف الأشجار.

صاح: "عشيرة الرعد، انسحبوا! هيّا انسحبوا!" على الفور، راوغ محاربوه خصومهم وكافحوا للتملّص منهم، ثمّ تراجعوا باتّجاه ذيل الأرجوان وهم يبصقون ويزمجرون. للحظة، ساد الإرباك على قطط عشيرة النهر. هل يعقل أن يكسبوا المعركة بهذه السهولة؟ فجأة، أطلق قلب السنديان صرخة مدوّية. وسرعان ما ارتفعت أصوات محاربي عشيرة النهر وشاركت نائبها فرحة النصر.

نظر ذيل الأرجوان إلى محاربيه. وبحركة من ذيله، أعطى الإشارة لقطط عشيرة الرعد التي اندفعت نحو الطرف الأقصى للصخور المشمسة، قبل أن تختفي بين الأشجار.

كان النمر الشرس آخر من رحل. تردّد عند أطراف الغابة، ونظر إلى ساحة المعركة الملطّخة بالدماء. كان وجهه مكفهرّاً، فيما طغى الغضب على نظراته. أخيراً، لحق بعشيرته عبر الغابة الصامتة.

في بقعة خالية، جلست هرّة رمادية عجوز تحدّق إلى سماء الليل الصافية. كانت تسمع من حولها في الظلال أنفاس وحركات القطط النائمة.

خرجت هرّة صغيرة ذات فراء بنّي وأسود اللون من زاوية مظلمة، من دون أن يصدر عن خطواتها السريعة صوت يُذكر.

خفضت الهرّة الرمادية رأسها تحيّة لها، وماءت قائلة: "كيف حال الفأرة السمراء؟"

أجابتها الهرّة الصغيرة وهي تجلس على عشب الليل البارد: "جراحها عميقة يا نجمة الصباح، لكنّها شابّة وقوية وستُشفى بسرعة".

"وماذا عن الآخرين؟"

"ستندمل جراحهم هم أيضاً".

تنهّدت نجمة الصباح. "نحن محظوظون لأنّنا لم نخسر أيّاً من محاربينا هذه المرّة. أنت مداوية ماهرة أيّتها الورقة الرقطاء". رفعت رأسها مجدّداً وتأمّلت النجوم. "لقد انزعجتُ كثيراً من الهزيمة التي مُنينا بها الليلة". تمتمت مضيفة: "فعشيرة الرعد لم تُهزم على أرضها منذ أن أصبحتُ زعيمتها. نحن نمرّ بأوقات صعبة، فقد تأخّر فصل الزهر وولد عدد أقلّ من الصغار. لكنّ عشيرة الرعد تحتاج إلى مزيد من المحاربين إن أرادت البقاء".

أشارت الورقة الرقطاء بهدوء: "لكنّ العام ما زال في أوّله وسيولد مزيد من الصغار مع حلول فصل الحرّ".

هزّت الهرّة الرمادية كتفيها العريضتين. "ربّما، لكنّ تدريب صغارنا ليصبحوا محاربين يستغرق وقتاً. وإن أرادت عشيرة الرعد الدفاع عن أرضها، لا بدّ لها من تأمين محاربين جدد بأسرع ما يمكن".

سألتها الورقة الرقطاء بلطف وهي تتبع نظر نجمة الصباح وتحدّق إلى النجوم المتلألئة في السماء المظلمة: "وهل تطلبين الأجوبة من عشيرة النجوم؟"

"في أوقات كهذه نحتاج إلى حكمة المحاربين القدامى لمساعدتنا. هل تحدّثت معك عشيرة النجوم؟"

"ليس منذ بضعة أشهر يا نجمة الصباح".

فجأة، لمع نيزك فوق رؤوس الأشجار. فاهتزّ ذيل الورقة الرقطاء وانتصب فراؤها.

رفعت نجمة الصباح أذنيها لكنّها بقيت صامتة، في حين واصلت الورقة الرقطاء تحديقها إلى السماء.

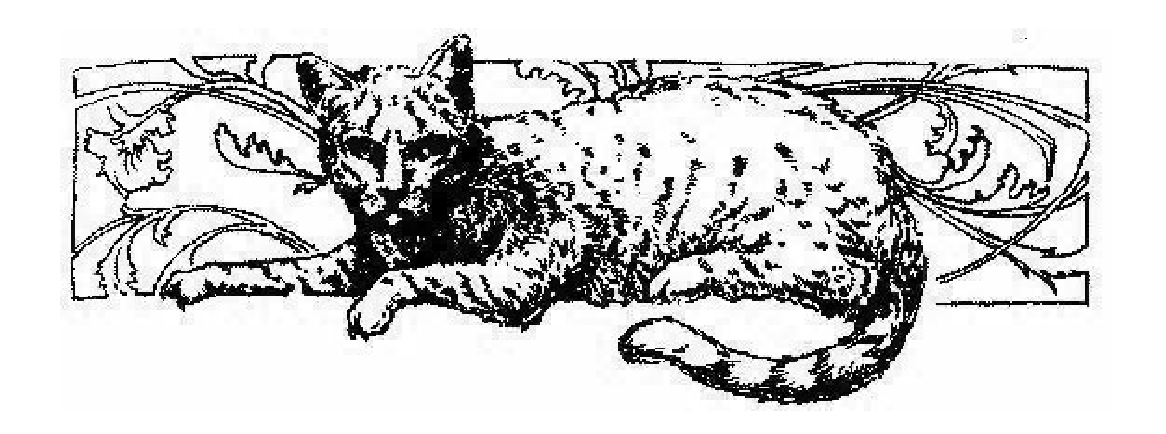
بعد بضع دقائق، خفضت الورقة الرقطاء رأسها والتفتت إلى نجمة الصباح. تمتمت قائلة:

"إنّها رسالة من عشيرة النجوم". بدت في عينيها نظرة بعيدة وهي تضيف: "النار وحدها ستنقذ عشيرتنا".

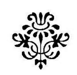
ردّدت نجمة الصباح: "النار؟ لكنّ النار هي أكثر ما تخشاه كلّ العشائر! كيف لها أن تنقذنا؟"

هزّت الورقة الرقطاء رأسها قائلة: "لا أدري، لكن هذه هي الرسالة التي أبلغتني بها عشيرة النجوم".

ركّزت زعيمة العشيرة نظرات عينيها الزرقاوين الصافيتين على الهرّة المداوية وقالت: "لم يسبق لك أن أخطأتِ أيّتها الورقة الرقطاء. إن كانت عشيرة النجوم قد تكلّمت، فلا بدّ أن يكون ذلك صحيحاً. النار ستنقذ عشيرتنا".



الفصل 1



كان الظلام دامساً. شعر سمسم بوجود شيء في الجوار. فتح الهرّ الشابّ عينيه وحملق في الشجيرات الكثيفة. لم يكن هذا المكان مألوفاً لديه، غير أنّ الروائح الغريبة جذبته ليتقدّم أكثر داخل الظلال. تذمّرت معدته جوعاً، ففتح فمه قليلاً ليسمح لروائح الغابة الدافئة بالوصول إلى غدد الشمّ في سقف حلقه. اختلطت روائح الأوراق المتعفّنة مع الرائحة المغرية لمخلوق صغير مكسوّ بالفرو.

فجأة، لمح أمامه وميضاً رمادياً خاطفاً، فتوقّف في مكانه يصغي. كان يختبئ بين الأوراق على مسافة لا تتجاوز ذيلين. عرف سمسم أنّه فأر، فقد استطاع أن يشعر في أعماق أذنه بالنبض السريع لقلب صغير. ازدرد ريقه محاولاً أن يُسكت معدته التي لا تكفّ عن القرقرة. قريباً سيملؤها بما يسدّ رمقها.

خفض جسده ببطء وربض استعداداً للهجوم. كان في الاتّجاه المعاكس لاتّجاه الفأر، وعرف أنّه لا يدرك وجوده. بعدما تحقّق لمرّة أخيرة من وضعية فريسته، دفع وركيه إلى الخلف ثمّ انقضّ عليها وتطايرت أوراق الشجر عن أرض الغابة وهو يقفز.

انطلق الفأر يبحث عن مخبأ، فتوجّه إلى جحر في الأرض، لكنّ سمسم سبقه إليه. حمل الفأر المسكين في الهواء، وعلّقه بمخالبه الحادّة كالأشواك، ثمّ رماه عالياً على الأرض المكسوّة بأوراق الشجر. هبط الفأر في حالة ذهول، لكنّه بقي على قيد الحياة. حاول الهرب، غير أنّ سمسم التقطه مجدّداً. رماه مرّة أخرى إلى مسافة أبعد قليلاً. فاستطاع أن يقوم ببضع خطوات متعثّرة قبل أن يلحق به سمسم.

فجأة، سمع ضوضاء على مقربة منه. فنظر حوله، وفي تلك اللحظة، استطاع الفأر أن

يُفلت من بين مخالبه. التفت إليه سمسم، فرآه يختفي في الظلام بين الجذور المتشابكة لإحدى الأشجار.

استسلم سمسم غاضباً ثمّ استدار وعيناه الخضراوان تلمعان، وكان مصمّماً على البحث عن مصدر الصوت الذي كلّفه طريدته. ارتفعت الضوضاء، وأصبحت مألوفة أكثر، إلى أن فتح عينيه.

اختفت الغابة، ووجد نفسه في مطبخ حارّ، مكوّراً في سريره. تسلّل ضوء القمر من النافذة، وألقى ظلاله على الأرض الصلبة الملساء. كان الصوت صادراً عن قعقعة أواني الطعام الذي يصبّ في طبقه. كان سمسم يحلم.

رفع رأسه وأسند ذقنه على طرف سريره. احتكّ طوقه بعنقه مسبّباً له الإزعاج. في الحلم، شعر بالهواء وهو يتخلّل الفراء الناعم حيث يضغط الطوق عادة. تمدّد سمسم على ظهره، يتلذّذ بالحلم لبضع دقائق أخرى. كانت رائحة الفأر ما زالت عالقة في أنفه. إنّها المرّة الثالثة منذ اكتمال القمر التي يرى فيها الحلم نفسه، وفي كلّ مرّة يُفلت منه الفأر.

لعق شفتيه، وتناهت إليه رائحة طعامه الخفيفة. كان أصحاب المنزل يملؤون طبقه بالطعام كلّ ليلة قبل أن يخلدوا إلى النوم. فطردت رائحة طعامه الروائحَ الدافئة التي داعبت أنفه في المنام. ظلّت معدته تزمجر جوعاً، فتمطّى ليُبعد عنه النعاس، ومشى على أرض المطبخ إلى أن وصل إلى طعامه. وجده جافّاً وبلا طعم على لسانه، فابتلع لقمة منه على مضض ثمّ استدار وشقّ طريقه نحو الفتحة المخصّصة له، على أمل أن تعيد إليه رائحة الحديقة الأحاسيس العابرة في حلمه.

في الخارج، كان القمر ساطعاً وتساقط مطر خفيف. نزل سمسم إلى الحديقة المشذّبة، وسلك الطريق المكسوّ بالحصى الذي أناره ضوء النجوم، فأحسّ بالأحجار الباردة والحادّة تحت أكفّه. قضى حاجته تحت أجمة كبيرة ذات أوراق خضراء لامعة وأزهار أرجوانية ثقيلة. كان الهواء الرطب من حوله عابقاً برائحتها الحلوة القوية، فلوى شفته لإبعاد الرائحة عن أنفه.

جلس سمسم على قمّة أحد أعمدة السور الذي يرسم حدود حديقته. كانت هذه البقعة هي المفضّلة لديه لأنّها تمنحه إطلالة على الحدائق المجاورة وعلى الغابة الخضراء الكثيفة الواقعة من الجهة المقابلة لسور الحديقة.

توقّف المطر. خلفه، كان العشب المجزوز غارقاً بضوء القمر، لكن وراء السور، كان الظلام يلفّ الغابة. مدّ سمسم رأسه إلى الأمام لاشتمام الهواء الرطب. كانت بشرته دافئة وجافّة تحت فراءه الكثيف، لكنّه استطاع أن يشعر بقطرات المطر التي تناثرت على فرائه العنبري.

سمع أصحاب المنزل ينادونه مرّة أخيرة من الباب الخلفي. إن عاد إليهم الآن، سيستقبلونه بكلمات لطيفة ومداعبات حنونة ويرحّبون به على سريرهم، فيتكوّر وهو يخرخر وينام بينهم ناعماً بالدفء.

لكن هذه المرّة، تجاهل سمسم أصواتهم وحوّل نظره مجدّداً إلى الغابة. كانت رائحة الشجر

قد أصبحت أكثر عذوبة بعد المطر.

فجأة، انتصبت الشعيرات التي تكسو عموده الفقري. هل ثمّة ما يتحرّك هناك؟ هل ثمّة من يراقبه؟ حدّق سمسم أمامه لكنّه لم يستطع أن يرى أو يشتمّ شيئاً في هذا المكان المظلم العابق برائحة الشجر. رفع رأسه بجرأة ووقف، ثمّ مدّد جسده وثبّت كلًّا من أكفّه على زوايا العمود الأربع وهو يمدّد قوائمه ويقوّس ظهره. أغمض عينيه وتنشّق رائحة الغابة مرّة أخرى. شعر أنّها تعده بشيء ما، وتغريه بالتغلغل بين الظلال الهامسة. شدّ عضلاته وربض للحظة، ثمّ قفز بخفّة على العشب الخشن من الجهة الأخرى من سور الحديقة. عندما هبط على الأرض، رنّ الجرس المعلّق بطوقه وحطّم سكون الليل.

سأله صوت مألوف من خلفه: "إلى أين يا سمسم؟"

نظر سمسم إلى الأعلى، ليرى هرّاً صغيراً أبيض وأسود يتشقلب على السور.

أجابه: "أهلاً زعتر".

سأله زعتر وهو ينظر إليه بعينين عنبريتين كبيرتين: "أنت لست ذاهباً إلى الغابة، أليس كذلك؟".

أجابه سمسم وهو يتململ: "سألقي نظرة وأعود".

"لن تقنعني بالذهاب معك، فذلك المكان خطر!" كشّر زعتر أنفه الأسود باشمئزاز مضيفاً: "قال أنيس إنّه ذهب إلى الغابة مرّة". رفع الهرّ رأسه وأشار بأنفه من فوق صفّ الأسوار باتّجاه الحديقة التي يعيش فيها أنيس.

قال سمسم: "ذاك الهرّ العجوز السمين لم يطأ الغابة يوماً! فهو بالكاد يخرج من حديقته منذ أن زار البيطري. كلّ ما يريده هو الأكل والنوم".

غير أنّ زعتر أكّد له قائلاً: "كلّا حقّاً. حتّى إنّه اصطاد عصفور أبي الحنّ هناك!".

"حسناً، إن كان هذا صحيحاً، فلا بدّ أن يكون قد حدث قبل زيارة البيطري. أمّا الآن، فهو يشتكي من الطيور لأنّها تقلق نومه".

تابع زعتر حديثه متجاهلاً الازدراء في صوت سمسم: "حسناً، على أيّ حال، أخبرني أنيس أنّ ذلك المكان حافل بالمخاطر. فيه قطط برّية ضخمة تفطر على الأرانب الحيّة وتسنّ مخالبها على العظام القديمة!".

قال سمسم: "أنا ذاهب لإلقاء نظرة وحسب، لن أتأخّر".

"حسناً، لا تقل إنّني لم أنذرك!". أخيراً استدار الهرّ الأبيض والأسود وقفز عن السور عائداً إلى حديقته.

جلس سمسم على العشب الخشن خلف سور الحديقة. لعق كتفه بعصبية وتساءل عن مدى صحّة كلام الثرثار زعتر.

فجأة، لفتت نظره حركة مخلوق صغير، فراقبه وهو يختبئ تحت أغصان العلّيق.

دفعته غريزته إلى الانخفاض والتأهّب على الفور. ثمّ بدأ بالاقتراب ببطء بين الشجيرات. تقدّم من الحيوان الصغير بأذنين منتصبتين، وأنف متأهّب، من دون أن يرفّ له جفن. استطاع أن يراه بوضوح الآن وهو جالس بين الأغصان الشائكة، يقضم حبّة كبيرة يحملها بين كفّيه. كان فأراً.

هزّ سمسم وركيه من جانب إلى آخر، استعداداً للهجوم. حبس أنفاسه لئلّا يرنّ جرسه مجدّداً. اجتاحته موجة من الحماسة، وبدأ قلبه ينبض بسرعة. ما يحدث هو أجمل من أحلامه حتّى! فجأة، قفز من مكانه عندما سمع صوت أغصان تتكسّر وأوراق تتحطّم. فخانه صوت الجرس، منذراً الفأر الذي فرّ هارباً واختفى بين الأغصان الكثيفة المتشابكة.

وقف سمسم جامداً ونظر حوله. استطاع أن يرى الطرف الأبيض لذيل أحمر كثيف ينسحب عبر أجمة من الأعشاب الطويلة. تصاعدت منه رائحة غريبة وقوية، الأمر الذي يؤكّد أنّه آكل لحوم، لكنّه لم يكن لا هرّاً ولا كلباً. للحظة، نسي سمسم أمر الفأر وراح يراقب الذيل الأحمر بفضول، ورغب في إلقاء نظرة عن كثب.

توتّرت كلّ حواسه وهو يتقدّم. فجأة أتاه صوت آخر من الخلف، لكنّه بدا مكتوماً وبعيداً. حرّك أذنيه إلى الخلف ليسمع بشكل أفضل. أهي خطوات حيوان؟ أبقى نظره مثبّتاً على الفراء الأحمر الغريب أمامه، وواصل الزحف إلى الأمام. لكن عندما تحوّلت الخشخشة الخفيفة من خلفه إلى جلبة قوية وسريعة، أدرك أنّه في خطر.

انقضّ عليه المخلوق كالإعصار ملقياً إيّاه جانباً في أجمة من نبات القرّاص. راح يتلوّى ويموء، وحاول دفع المهاجم الذي ثبّت قوائمه بإحكام على ظهره. كان يمسك به بمخالب حادّة على نحو لا يصدّق، واستطاع سمسم أن يشعر بأسنانه الحادّة على عنقه. راح يتلوّى ويكافح من شاربيه حتّى ذيله، لكنّه لم يستطع تحرير نفسه. شعر بالعجز التامّ، ثمّ توقّف للحظة عن الحركة. فكّر بسرعة، ثمّ انقلب على ظهره. أدرك غريزياً أنّه من الخطر أن يكشف بطنه الطريّ، لكنّها فرصته الوحيدة.

كان محظوظاً، فقد نجحت الحيلة على ما يبدو. سمع تحته صوت "هوف" مع النفس الذي أطلقه مهاجمه. ضربه سمسم بشراسة، وتمكّن من التملّص منه. ومن دون أن ينظر إلى الوراء، انطلق عائداً إلى بيته.

أدرك من وقع الخطى التي تسارعت خلفه أنّ المعتدي يطارده. لكن على الرغم من الألم الذي سبّبته الخدوش تحت فرائه، فضّل أن يستدير ويقاتل عوضاً عن السماح لعدوّه بالانقضاض عليه مجدّداً.

توقّف فجأة، ثمّ استدار وواجه مطارده.

كان عدوّه هرّاً صغيراً آخر، ذا فراء رمادي كثيف وأشعث، يمتاز بقوائم طويلة ووجه عريض. أدرك سمسم فوراً من رائحته أنّه هرّ ذكر، وأحسّ بقوّة الكتفين العريضتين تحت الفراء الناعم. بسرعة فائقة، انقضّ الهرّ على سمسم الذي أُخذ على حين غرّة وسقط على ظهره في حالة من الذهول.

قطعت الضربة المفاجئة أنفاسه وترنّح، لكنّه سرعان ما استعاد توازنه وقوّس ظهره، ثمّ نفش فراءه البرتقالي استعداداً للقفز على الهرّ الآخر. غير أنّ عدوّه اكتفى بالجلوس وبدأ يلعق كفّه الأمامي وقد زالت عنه كلّ إشارات العداء.

أحسّ سمسم بخيبة أمل غريبة. فقد كان كلّ جزء من جسده في حالة من التوتّر وعلى استعداد للمعركة.

ماء الهرّ الرمادي بفرح قائلاً: "مرحباً أيّها البسبوس الأليف! قاتلتَ بضراوة بالنسبة إلى هرّ صغير مروّض!".

ظلّ سمسم واقفاً على رؤوس أصابعه لبرهة، يتساءل ما إذا كان يجدر به مواصلة الهجوم. غير أنّه تذكّر قوّة أكفّ هذا الهرّ الصغير عندما سمّره على الأرض، فاستراح على أكفّه، واسترخت عضلاته، واستقام عموده الفقري. زمجر قائلاً: "وسأقاتل مجدّداً إن اضطررت لذلك".

تابع الهرّ الرمادي متجاهلاً تهديد سمسم: "اسمي بسّ رمادي، بالمناسبة. أنا أتدرّب لأصبح محارباً في عشيرة الرعد".

بقي سمسم صامتاً. لم يفقه شيئاً ممّا يموء به هذا المخلوق الرمادي، لكنّه شعر أنّ التهديد زال. لإخفاء إرباكه، انحنى وراح يلعق فراء صدره.

سأله بسّ رمادي: "ماذا يفعل بسبوس أليف مثلك في الغابة؟ ألا تدري أنّ هذا المكان حافل بالمخاطر؟".

أجابه سمسم ساخراً: "إن كنتَ أخطر ما تحتويه الغابة، أعتقد أنّني قادر على تدبّر أموري".

نظر إليه بسّ رمادي للحظة، وضاقت عيناه الصفراوان الكبيرتان. "آه، أنا لست الأخطر على الإطلاق. فلو كنتُ نصف محارب، لسبّبتُ لدخيل مثلك جروحاً حقيقية".

ارتعش سمسم خوفاً على وقع هذه الكلمات. ماذا يقصد هذا الهرّ من كلمة "دخيل"؟

أضاف بسّ رمادي وهو يستخدم أسنانه الحادّة لسحب العشب من بين مخالبه: "على أيّ حال، لم أعتقد أنّ الأمر يستحقّ إيذاءك، فمن الواضح أنّك لا تنتمي إلى العشائر الأخرى".

ردّ سمسم مربكاً: "العشائر الأخرى؟".

أطلق بسّ رمادي هسيساً في إشارة إلى نفاد صبره. "لا بدّ أنّك سمعت عن العشائر

المحاربة الأربع التي تصطاد هنا! أنا أنتمي إلى عشيرة الرعد. غير أنّ العشائر الأخرى تحاول دائماً سرقة الفرائس من أراضينا، لا سيّما عشيرة الظلال. فهم عنيفون جدّاً وقد يمزّقونك إرباً إن وقعتَ بين أيديهم، ومن دون تردّد".

صمت بسّ رمادي وبصق غاضباً قبل أن يتابع: "يأتون لاصطياد فرائس من أرضنا، وتقوم مهمّة محاربي عشيرة الرعد على منعهم من دخول أراضينا. عندما أنهي تدريبي، سأصبح في غاية الخطورة وسأُرهب قطط العشائر الأخرى وأجعل القشعريرة تسري تحت جلودهم التي تأكلها البراغيث. ولن يجرؤوا على الاقتراب منّا بعد ذلك!".

ضاقت عينا سمسم. لا بدّ أنّ هذا هو أحد القطط البرّية التي حذّره منها زعتر! تعاني من شظف العيش في الغابات، وتطارد وتقاتل بعضها من أجل لقمة الطعام. غير أنّ سمسم لم يشعر بالخوف. ففي الواقع، كان من الصعب ألّا يُعجب بهذا الهرّ الواثق من نفسه. سأله: "إذاً، أنت لم تصبح محارباً بعد؟".

خرخر بسّ رمادي بفخر متسائلاً: "لماذا؟ هل ظننتني محارباً؟". ثمّ هزّ رأسه الكبير المكسوّ بالفراء متابعاً: "لن أصبح محارباً حقيقياً إلّا بعد وقت طويل. عليّ أوّلاً أن أخوض تدريباً طويلاً. فالهررة الصغيرة لا تبدأ بالتدريب إلّا بعد أن تبلغ ستّة أشهر. وهذه الليلة هي ليلتي الأولى في الخارج كمبتدئ".

سأله سمسم: "لماذا لا تجد لنفسك مالكاً مع منزل جميل دافئ عوضاً عن ذلك؟ ستكون حياتك أسهل بكثير. فثمّة كثير من البيوت التي تتمنّى العناية بهرّ صغير مثلك. ما عليك سوى الجلوس بحيث يمكنهم رؤيتك والتظاهر بالجوع لبضعة أيّام...".

قاطعه بسّ رمادي قائلاً: "لماذا؟ ليطعموني كريات تشبه قذارة الأرانب؟ مستحيل! لا أتمنّى أبداً أن أصبح بسبوساً أليفاً، فهذا أسوأ ما يمكن أن يحدث لي! أنتم لستم أكثر من ألعاب بالنسبة إلى ذوي الساقين! تأكلون أشياء لا تشبه الطعام، وتُسقطون قذارتكم في علبة من الحصى، وتخرجون فقط عندما يسمح لكم ذوو الساقين بذلك؟ أيّ حياة هذه؟ هنا في البراري، نحن ننعم بالحرّية، ونروح ونجيء على هوانا". ختم خطابه ببصقة فخورة، ثمّ ماء بخبث قائلاً: "ما دمتَ لم تتذوّق فأراً طازجاً، فأنت لم تعرف طعم الحياة. هل سبق لك أن تذوّقت فأراً؟".

أقرّ سمسم بنبرة دفاعية بعض الشيء: "كلّا، ليس بعد".

تنهّد بسّ رمادي متابعاً: "أعتقد أنّك لن تفهم أبداً، فأنت لم تولد في البراري، وهذا يشكّل فارقاً كبيراً. لا يجري في عروقك دم محارب، ولم تشعر بالرياح تهبّ على شاربك. فالقطط الصغيرة التي ولدت في أعشاش ذوي الساقين لم تعرف هذا الإحساس قطّ".

تذكّر سمسم ما شعر به في حلمه، فماء بشيء من السخط: "هذا غير صحيح!".

لم يجبه بسّ رمادي. غير أنّه توقّف فجأة عن لعق كفّه الذي بقي مرفوعاً، واشتمّ الهواء، ثمّ هسّ قائلاً: "أشتمّ رائحة قطط من عشيرتي. يجدر بك الذهاب، فهم لن يرحّبوا برؤيتك تصطاد في أرضنا!".

نظر سمسم حوله متسائلاً كيف عرف بسّ رمادي باقتراب أيّ هررة. فهو لم يشتمّ أيّ رائحة باستثناء النسيم المعطّر برائحة الأوراق. غير أنّ فراءه انتصب أمام نبرة بسّ رمادي الملحّة.

هسّ بسّ رمادي مجدّداً: "أسرِع! اهرب!".

استعدّ سمسم للفرار في الأدغال، من دون أن يعرف أيّ طريق آمن يسلك.

غير أنّ الأوان كان قد فات، إذ تناهى إلى مسمعيه مواء حازم ومتوعّدك "ماذا يجري هنا؟".

استدار سمسم ليرى أمامه هرّة رمادية كبيرة تخرج بشموخ من بين النباتات. كان حضورها مهيباً. أحاط بخطمها فراء أبيض وخطّت فراء كتفيها ندبة قبيحة، لكنّ فراءها الرمادي الناعم راح يلمع كالفضّة تحت ضوء القمر.

"نجمة الصباح!". جثم بسّ رمادي بجانب سمسم وضاقت عيناه، ثمّ انخفض أكثر عندما تبع الهرّة الرمادية هرّ آخر ذهبي وسيم.

زمجر الهرّ الذهبي غاضباً وقد ضاقت عيناه الخضراوان: "لا يجدر بك الاقتراب إلى هذا الحدّ من مناطق ذوي الساقين، يا بسّ رمادي!".

نظر بسّ رمادي إلى أكفّه مجيباً: "أعرف يا قلب الأسد، أنا آسف".

حذا سمسم حذو بسّ رمادي وجثم على أرض الغابة بينما انتفضت أذناه بعصبية. أحسّ أنّ هالة من القوّة تحيط بهذين الهرّين لم يسبق أن رآها لدى أيّ من أصدقائه في الحديقة. ربّما كان ما حذّره منه زعتر صحيحاً.

سألت الهرّة: "من يكون؟".

أُجفل سمسم عندما حوّلت نظرها إليه. فقد جعلته عيناها الزرقاوان الثاقبتان يشعر أنّه أكثر ضعفاً.

أجاب بسّ رمادي بسرعة: "لا يشكّل أيّ تهديد، فهو ليس محارباً من العشائر الأخرى بل مجرّد بسبوس أليف من خارج أراضينا".

مجرّد بسبوس أليف! ألهبت هذه الكلمات سمسم، لكنّه أمسك لسانه. إذ رمقته نجمة الصباح بنظرة تحذيرية أنبأته أنّها رأت الغضب في عينيه، فأشاح بنظره.

همس بسّ رمادي لسمسم: " نجمة الصباح، زعيمة عشيرتي! وقلب الأسد مدرّبي، يقوم بتدريبي لأصبح محارباً".

قال قلب الأسد ببرود: "تشرّفنا بمعرفتك".

واصلت نجمة الصباح تحديقها إلى سمسم، ثمّ قالت أخيراً: "قاتلتَ جيّداً بالنسبة إلى بسبوس أليف".

تبادل سمسم وبسّ رمادي نظرات حائرة. كيف عرفَت؟

تابعت نجمة الصباح كما لو أنّها قرأت أفكارهما: "كنّا نراقبكما. فقد تساءلنا كيف ستتعامل مع المتسلّلين يا بسّ رمادي، لكنّك هاجمته بشجاعة".

بدا بسّ رمادي مسروراً بالثناء الذي تلقّاه من نجمة الصباح.

"اجلسا الآن كلاكما". نظرت نجمة الصباح إلى سمسم وأضافت: "أنت أيضاً أيّها البسبوس الأليف". جلس فوراً، ونظر إلى نجمة الصباح وهي تكلّمه.

"كان ردّ فعلك جيّداً على الهجوم أيّها البسبوس الأليف. بسّ رمادي أقوى منك، لكنّك استخدمتَ ذكاءك لتدافع عن نفسك واستدرت لمواجهته عندما طاردك. في الواقع، لم يسبق لي أن رأيت بسبوساً أليفاً يفعل ذلك من قبل".

تمكّن سمسم من هزّ رأسه تعبيراً عن شكره، بعد أن أدهشه هذا المديح غير المتوقّع. إلّا أنّ ما قالته لاحقاً زاد من دهشته.

"كنت أتساءل كيف سيكون أداؤك هنا، بعيداً عن منطقة ذوي الساقين. فنحن نراقب هذه الحدود دائماً، وغالباً ما رأيتك جالساً تحدّق إلى الغابة. والآن أخيراً تجرّأتَ على دخولها". حدّقت نجمة الصباح إلى سمسم مفكّرة. "يبدو أنّك تتمتّع بقدرة فطرية على الصيد، فضلاً عن بصر حادّ. كان باستطاعتك اصطياد ذاك الفأر لو لم تتردّد طويلاً".

سألها سمسم متلعثماً: "ح...حقّاً؟".

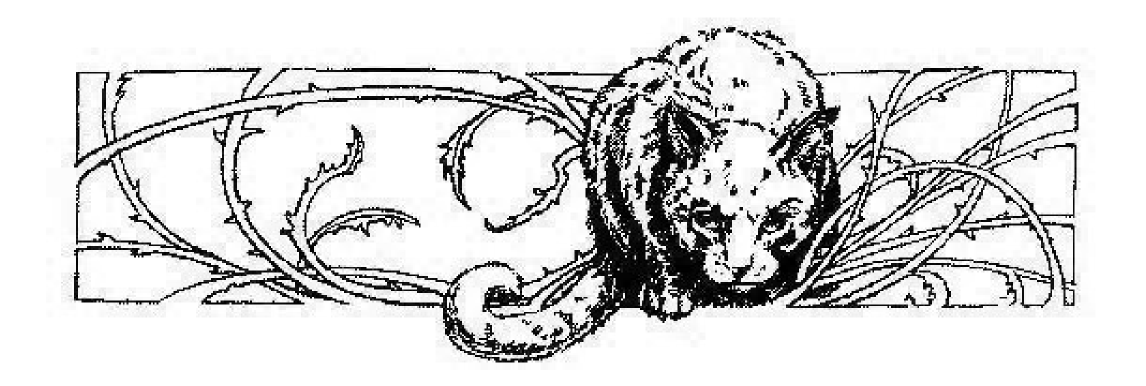
تكلّم قلب الأسد، وبدا مواؤه العميق مليئاً بالاحترام لكنّه مُلحّ. "يا نجمة الصباح، هذا بسبوس أليف ولا ينبغي أن يأتي للصيد في أراضي عشيرة الرعد. أرسليه إلى بيته وأصحابه!".

استاء سمسم من كلام قلب الأسد غير المرحِّب. قال بنفاد صبر: "أرسليه إلى بيته؟". ملأه كلام نجمة الصباح بالفخر والاعتزاز. لقد لاحظته، وأُعجبت به. "لكنّني لم آتِ إلى هنا سوى لاصطياد فأر أو اثنين، وأنا واثق أنّ في الغابة ما يكفي الجميع".

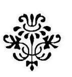
بينما كان يتكلّم، التفتت نجمة الصباح إلى قلب الأسد. والآن، عاد نظرها بسرعة إلى سمسم. كانت عيناها الزرقاوان تشتعلان غضباً. قالت بنبرة لاذعة: "الغابة لا تكفي الجميع إطلاقاً، ولو أنّك لم تعش حياة من الرخاء والوفرة، لعرفتَ ذلك".

ارتبك سمسم بسبب غضب نجمة الصباح المفاجئ. لكنّ نظرة واحدة إلى عينَي بسّ رمادي المذعورتين كانت كافية ليدرك أنّه تكلّم بحرّية زائدة. وقف قلب الأسد إلى جانب زعيمة العشيرة وأصبح المحاربان يحدّقان إليه الآن. نظر سمسم إلى عيني نجمة الصباح المليئتين بالتهديد، وتبدّد كلّ فخره. فهو لم يكن يتعامل مع قطط كسولة لا تفارق الموقد، بل مع قطط هزيلة

وجائعة ستنهي على الأرجح ما بدأه بسّ رمادي.



الفصل 2



قالت نجمة الصباح بصوت يشبه الهسيس: "حسناً". كان وجهها الآن على مسافة فأر منه. بقي قلب الأسد صامتاً ووقف بتعالٍ أمام سمسم.

خفض هذا الأخير أذنيه وجثم تحت النظرات الباردة للمحارب الذهبي. بدأ فراؤه يخزه على نحو مزعج، فماءَ قائلاً وهو ينظر إلى أكفّه المرتجفة: "أنا لا أشكّل تهديداً لعشيرتكم".

نهرته نجمة الصباح قائلة: "أنت تهدّد عشيرتنا عندما تأخذ طعامنا. فأنت تملك طعاماً وافراً عند ذوي الساقين، ولا تمارس الصيد هنا إلّا للرياضة. أمّا نحن فنصطاد لنعيش".

الحقيقة التي سمعها سمسم على لسان الهرّة المحاربة اخترقته مثل البرقوق الشائك، وفهم فجأة سبب غضبها. فتوقّف عن الارتجاف، ثمّ جلس، ورفع أذنيه. نظر إليها وقال بوقار: "لم أفكّر في الأمر على هذا النحو من قبل، أنا آسف. لن أصطاد هنا مجدّداً".

عندئذٍ زال الغضب عن نجمة الصباح التي أشارت لقلب الأسد لكي يتراجع قبل أن تقول: "أنت بسبوس أليف غير عادي يا سمسم".

تنهّد بسّ رمادي مرتاحاً فانتفضت أذنا سمسم. سمع نبرة الاستحسان في صوت نجمة الصباح ولاحظ كيف تبادلت نظرة ذات مغزى مع قلب الأسد. أثارت فضوله تلك النظرة. ما هي الفكرة التي تبادلها المحاربان؟ سأل بهدوء: "هل البقاء على قيد الحياة صعب حقّاً هنا؟".

أجابت نجمة الصباح: "لا تغطّي أراضينا سوى جزء من الغابة، ونحن نتنافس مع بقيّة العشائر على ما لدينا. هذا العام، سيؤدّي تأخّر الربيع إلى شحٍّ في الفرائس".

سأل سمسم بعينين واسعتين: "هل عشيرتكم كبيرة جدّاً؟".

أجابت نجمة الصباح: "لا بأس بها. أراضينا تكفينا، لكنّ الفرائس أصبحت قليلة".

"وهل جميعكم محاربون؟". كانت إجابات نجمة الصباح الحريصة تزيد من فضوله.

أجابه قلب الأسد: "بعضنا محاربون وبعضنا الآخر صغير جدّاً أو مسنّ جدّاً أو منشغل عن الصيد في رعاية الصغار".

تمتم سمسم برهبة، وقد سيطر عليه إحساس بالذنب إزاء حياته الأنانية السهلة: "وهل تعيشون جميعكم معاً وتتقاسمون الفرائس؟".

نظرت نجمة الصباح مجدّداً إلى قلب الأسد. حدّق إليها الهرّ الذهبي بنظرات ثابتة. أخيراً، حوّلت نظرها إلى سمسم وماءت قائلة: "ربّما يجدر بك اكتشاف هذه الأمور بنفسك. هل تودّ الانضمام إلى عشيرة الرعد؟".

فوجئ سمسم، وعجز عن الكلام.

تابعت نجمة الصباح: "إن أردت، يمكنك التدرّب مع بسّ رمادي لتصبح محارباً في العشيرة".

اعترض بسّ رمادي بصوت خافت: "لكنّ البسابيس الأليفة لا تستطيع أن تصبح محاربة، فهي لا تملك دم المحاربين!".

شابت عينا نجمة الصباح نظرة حزينة، وردّدت متنهّدة: "دم المحاربين، كم أريق منه في الآونة الأخيرة".

صمتت نجمة الصباح بينما ماء قلب الأسد قائلاً: "نجمة الصباح تعرض عليك التدرّب وحسب أيّها الشابّ، لكننّا لا نضمن لك أن تصبح محارباً. فقد تجد صعوبة في ذلك، لا سيّما وأنّك معتاد على حياة الرخاء".

استاء سمسم من كلام قلب الأسد، فالتفت لمواجهة الهرّ الذهبي وقال: "لماذا تعرضون عليّ الفرصة إذاً؟".

غير أنّ نجمة الصباح هي التي أجابت: "أنت محقّ في التشكيك في دوافعنا، أيّها الشابّ. في الحقيقة، تحتاج عشيرة الرعد إلى مزيد من المحاربين".

حذّره قلب الأسد: "عليك أن تفهم أنّ نجمة الصباح لا تقدّم لك هذا العرض بخفّة. إن أردت أن تتدرّب معنا، سيتعيّن علينا إدخالك إلى عشيرتنا. وإمّا أن تعيش معنا وتحترم تقاليدنا، أو تعود إلى ذوي الساقين ولا ترجع إلينا أبداً. لا يمكنك أن تعيش بين عالمين".

هبّ نسيم بارد على العشب، وشعّث فراء سمسم. ارتجف، لا برداً، بل حماسة إزاء الاحتمالات المثيرة التي تنفتح أمامه.

سألته نجمة الصباح بلطف: "هل تتساءل ما إذا كان الأمر يستحقّ التخلّي عن حياة البسبوس الأليف المريحة؟ لكن هل تدرك الثمن الذي ستدفعه للحصول على الدفء والطعام؟".

نظر إليها سمسم بحيرة. بالتأكيد أثبت له لقاؤه بهذه القطط حجم الرخاء والترف اللذين يسودان حياته.

أضافت نجمة الصباح: "يبدو لي أنّك ما زلتَ على طبيعتك، على الرغم من رائحة ذوي الساقين العالقة بفرائك".

"ماذا تعنين بذلك؟"

أجابته بجدّية: "أعني أنّه لم يتمّ اصطحابك لزيارة السكاكيني. عندها كنت ستختلف كثيراً، ولن تكون متحمّساً هكذا لقتال هرّ برّي على ما أظنّ!".

أربك سمسم، وفكّر فجأة بأنيس الذي أصبح سميناً وكسولاً منذ زيارته للبيطري. هل هذا ما قصدته نجمة الصباح بالسكاكيني؟

تابعت الهرّة: "قد لا تكون العشيرة قادرة على تزويدك بالطعام والدفء بهذه السهولة. ففي فصل الثلوج، تصبح الليالي في الغابة قارسة البرودة. وبما أنّ العشيرة تتطلّب قدراً عظيماً من الولاء والعمل الشاقّ، سيكون متوقّعاً منك حمايتها بحياتك إن لزم الأمر. ناهيك عن أنّنا مضطرّون لإطعام عديد من الأفواه. إلّا أنّ المكافآت عظيمة. معنا ستبقى على طبيعتك، وسيتمّ تدريبك على طرق العيش في البراري. ستتعلّم معنى أن تكون هرّاً حقيقياً. وسترافقك قوّة ومودّة العشيرة دوماً، حتّى عندما تصطاد وحيداً".

دار رأس سمسم. يبدو أنّ نجمة الصباح تعرض عليه الحياة التي عاشها مرّات عديدة وعلى نحو مؤلم في أحلامه، لكن هل يمكن أن يعيش هكذا فعلاً؟

قطع عليه قلب الأسد أفكاره: "تعالي، يا نجمة الصباح، كفانا مضيعة للوقت هنا. علينا الاستعداد للانضمام إلى الدورية الأخرى عند علوّ القمر. سيتساءل النمر الشرس عمّا حلّ بنا". نهض وحرّك ذيله بترقّب.

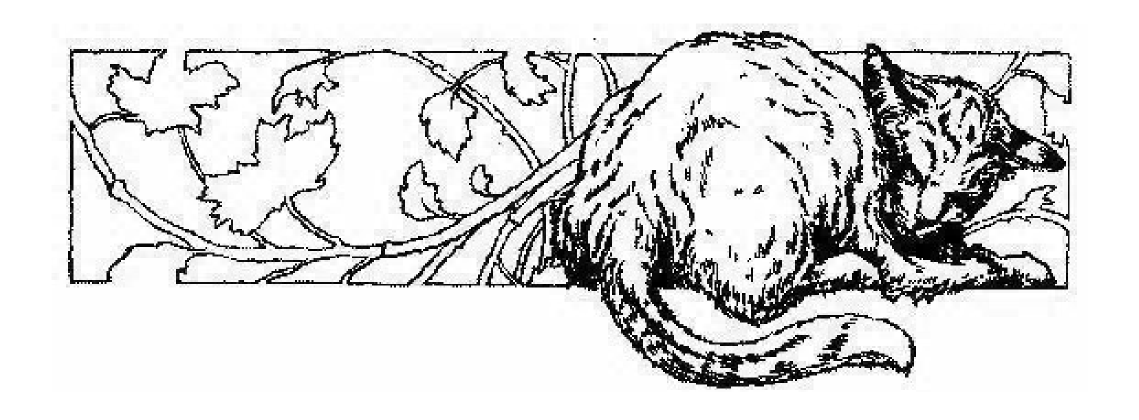
ماء سمسم قائلاً: "انتظر، هل يمكنني التفكير في عرضكم؟".

نظرت إليه نجمة الصباح مطوّلاً ثمّ هزّت رأسها موافقة. قالت له: "سيكون قلب الأسد بانتظارك هنا غداً عند علوّ الشمس. أعطه جوابك في ذلك الحين".

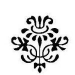
تمتمت نجمة الصباح بإشارة خافتة، وفي حركة واحدة استدارت القطط الثلاثة واختفت في الأدغال.

رفّ سمسم عينيه وراح يحدّق بحماسة وتشكّك عبر النباتات المحيطة به وعبر أوراق الشجر التي تظلّله إلى النجوم التي ترصّع السماء الصافية. كان هواء الليل لا يزال عابقاً برائحة قطط العشيرة. وعندما استدار عائداً إلى البيت، راوده إحساس غريب أخذ يشدّه للعودة إلى أعماق

الغابة. عبث النسيم الخفيف بفرائه على نحو ممتع، وشعر أنّ أوراق الشجر تهمس باسمه في الظلال.



الفصل 3



ذلك الصباح، عندما خلد سمسم إلى النوم بعد نزهته الليلية، راوده حلم الفأر مجدّداً وكان أكثر وضوحاً من ذي قبل. طارد المخلوق الخجول تحت ضوء القمر وقد تحرّر من طوقه. لكن هذه المرّة كان مدركاً أنّه مراقب، إذ رأى عشرات الأعين الصفراء التي تلمع في ظلال الغابة. هكذا دخلت قطط العشيرة عالم أحلامه.

استيقظ سمسم على ضوء الشمس الساطع الذي انعكس على أرض المطبخ. شعر أنّ فراءه ثقيل وكثيف بسبب الدفء. كان طبقه مليئاً، ووعاء الماء غُسل ومُلئ بمياه ذوي الساقين المرّة. كان سمسم يفضّل أن يشرب من برك الماء التي تتجمّع في الخارج، لكن عندما يكون الطقس حارّاً جدّاً أو يشعر بالعطش الشديد، من الأسهل عليه أن يلعق الماء المخصّص له داخل البيت. هل يستطيع حقّاً أن يتخلّى عن هذه الحياة المريحة؟

أكل طعامه ثمّ خرج إلى الحديقة من النافذة المخصّصة له. بدا اليوم دافئاً والحديقة عابقة برائحة الأزهار المبكرة.

ماء صوت من خلف السياج. "مرحباً سمسم". إنّه زعتر. "كان ينبغي أن تستيقظ منذ ساعة، فقد خرجت صغار العصافير لتمرّن أجنحتها".

سأله سمسم: "هل اصطدت واحداً؟".

تثاءب زعتر ولعق أنفه. "لم أتكبّد العناء، فقد سبق وأكلت ما فيه الكفاية في المنزل. على أيّ حال، لماذا لم تخرج في وقت أبكر؟ بالأمس كنت تشتكي من أنيس الذي يمضي وقته في النوم، وها أنت اليوم تحذو حذوه".

جلس سمسم على الأرض الباردة بجانب السور ولفّ ذيله فوق كفّيه الأماميّتين. ذكّر صديقه قائلاً: "كنتُ في الغابة ليلة أمس". على الفور، تسارع نبضه واقشعرّ جسمه.

نظر إليه زعتر بدهشة: "آه صحيح، لقد نسيت! وكيف كانت جولتك؟ هل اصطدت شيئاً أم اصطادك شيء ما؟".

صمت سمسم ولم يعرف كيف يخبر صديقه بما جرى.

بدأ يقول: "التقيت ببعض القطط البرّية".

بدت الصدمة على زعتر الذي سأله: "ماذا؟ هل اشتبكت معها؟".

"نوعاً ما". شعر سمسم بالطاقة تضجّ بجسده مجدّداً وهو يتذكّر قوّة قطط العشيرة.

راح زعتر يحثّه قائلاً: "وهل تأذّيت؟ ماذا جرى؟".

"كانوا ثلاثة، أكبر وأقوى من أيّ منّا".

قاطعه زعتر، وراح ذيله يهتزّ حماسة: "وقاتلتهم هم الثلاثة!".

أجابه سمسم بسرعة: "كلّا! فقط أصغرَهم. فالاثنان الآخران أتيا لاحقاً".

"وكيف نجوت من دون أن يقطّعوك إرباً؟".

"اكتفوا بتحذيري بمغادرة أراضيهم. لكن بعد ذلك..." تردّد سمسم.

ماءَ زعتر بنفاد صبر: "ماذا!".

"طلبوا منّي الانضمام إلى عشيرتهم".

هزّ زعتر شاربه ولم يصدّق أذنيه.

أصرّ سمسم قائلاً: "هذا ما جرى!".

"لكن لماذا يطلبون منك ذلك؟".

أقرّ سمسم مجيباً: "لا أدري، أعتقد أنّهم يحتاجون إلى مزيد من القطط في عشيرتهم".

ماء زعتر بتشكّك: "يبدو لي هذا مريباً بعض الشيء. لو كنت مكانك، لما وثقت بهم".

نظر سمسم إلى زعتر. لم يسبق لصديقه الأسود والأبيض أن اهتمّ يوماً بالمغامرة في الغابة. فهو راضٍ تماماً بالحياة في منزل قومه، ولن يفهم أبداً الشوق الذي يقضّ مضجع سمسم ليلة بعد ليلة.

خرخر سمسم بهدوء: "لكنّني أثق بهم، وقد حسمت أمري. سأنضمّ إليهم".

نزل زعتر مسرعاً عن السور ووقف أمام سمسم. ماء محذّراً: "أرجوك لا تذهب يا سمسم، فقد لا أراك مجدّداً".

دفعه سمسم برأسه بحنان. "لا تقلق، سيُحضر أصحابي هرّاً آخر وستتّفق معه. فأنت تتّفق مع الجميع!".

صاح زعتر: "لكن لن يكون مثلك!".

هزّ سمسم ذيله بنفاد صبر. "تلك هي الفكرة. إن بقيت هنا إلى أن يأخذوني إلى السكاكيني، سأصبح مختلفاً أنا أيضاً".

بدت الحيرة على زعتر وردّد: "السكاكيني؟".

شرح له سمسم: "أعني البيطري. سيغيّرني وأصبح مثل أنيس".

هزّ زعتر كتفيه وحدّق إلى أكفّه. تمتم قائلاً: "لكنّ أنيس على خير ما يرام. أنا أعرف أنّه أصبح كسولاً بعض الشيء، لكنّه ليس تعيساً. سيظلّ بإمكاننا أن نمرح".

ملأ الحزن قلب سمسم لاضطراره إلى ترك صديقه. "أنا آسف يا زعتر، سأشتاق إليك لكنّني مضطرّ للذهاب".

لم يجبه زعتر بل تقدّم خطوة ولامس أنفه بأنف سمسم بلطف. "لا بأس، من الواضح أنّني لن أتمكّن من منعك، لكن على الأقلّ دعنا نمضي هذا الصباح الأخير معاً".

استمتع سمسم في ذلك الصباح أكثر من عادته، فزار أماكن الصيد القديمة مع زعتر، وتبادل الحديث مع القطط التي كبر معها. شعر أنّ كلّ حواسه مشحونة، كما لو كان يستعدّ لقفزة هائلة. وعندما شارفت الشمس على بلوغ وسط السماء، لم يعد سمسم يطيق الانتظار ليرى ما إذا كان قلب الأسد سيأتي للقائه حقّاً. وبدا له أنّ مواء أصدقائه يتلاشى مع توتّر كلّ حواسه توقاً إلى الغابة.

قفز سمسم للمرّة الأخيرة عن سور حديقته، وتقدّم إلى الغابة. كان قد ودّع زعتر، وأصبح تفكيره مركّزاً على الغابة والقطط التي تسكنها.

مع اقترابه من المكان الذي التقى فيه بقطط العشيرة في الليلة الفائتة، جلس وتنسّم الهواء. ظلّلت الأشجار الباسقة الأرض من حرّ شمس الظهيرة، وجعلت جوّها منعشاً. هنا وهناك، تسلّلت أشعّة الشمس من خلال فجوة في الأوراق وأضاءت أرض الغابة. اشتمّ سمسم رائحة القطط نفسها كما في الليلة الماضية، لكنّه لم يعرف ما إذا كانت قديمة أم جديدة. فرفع رأسه، وراح يشتمّ عن عدم يقين.

ماء صوت عميق: "أمامك الكثير لتتعلّمه، فحتّى أصغر قطط العشيرة يعرف بوجود هرّ

آخر في الجوار".

رأى سمسم عينين خضراوين تومضان تحت شجرة علّيق. الآن عرف الرائحة؛ إنّه قلب الأسد.

سأله الهرّ الذهبي وهو يتقدّم ليقف في الضوء: "هل تعرف ما إذا كنت بمفردي؟".

اشتمّ سمسم الهواء بسرعة. كانت رائحتا نجمة الصباح وبسّ رمادي ما زالتا عالقتين في الجوّ، لكنّهما ليستا قويتين كما في الليلة السابقة. فماء بتردّد: "نجمة الصباح وبسّ رمادي ليسا معك هذه المرّة".

أجابه قلب الأسد: "أنت محقّ، لكن معي هرّ آخر".

تصلّب سمسم في مكانه مع خروج هرّ آخر من الظلال.

قال قلب الأسد: "إنّه الرعب الأبيض، أحد كبار محاربي عشيرة الرعد".

نظر سمسم إلى الهرّ، وشعر برعشة خوف باردة في عموده الفقري. أهذا فخّ؟ وقف الرعب الأبيض بجسده الطويل وعضلاته المفتولة أمام سمسم وحدّق إليه بتعالٍ. كان فراؤه الأبيض كثيفاً وسليماً، وعيناه صفراوين مثل الرمال التي كوتها الشمس. خفض سمسم أذنيه بحذر، وتوتّرت عضلاته استعداداً للهجوم.

زمجر قلب الأسد قائلاً: "استرخ قبل أن تجلب رائحة خوفك انتباهاً غير مرغوب فيه. نحن لم نأت إلى هنا سوى لاصطحابك إلى مخيّمنا".

جلس سمسم ساكناً، بالكاد يجرؤ على التنفّس، بينما اقترب منه الرعب الأبيض واشتمّه بفضول.

تمتم الهرّ الأبيض: "مرحباً أيّها الشابّ، لقد سمعت عنك الكثير".

خفض سمسم رأسه تحيّة.

أمره قلب الأسد قائلاً: "هيّا بنا، سنتحدّث أكثر في المخيّم". ومن دون توقّف، قفز هو والرعب الأبيض يجريان بين نباتات الغابة. فلحق بهما سمسم بأقصى سرعته.

لم يأخذ المحاربان بعين الاعتبار قدرات سمسم وهما يسرعان في الغابة، لذلك سرعان ما بدأ يكافح لمواكبتهما. غير أنّهما لم يبطئا من سرعتهما كثيراً وهما يقودانه من فوق الأشجار المقطوعة التي كانا يتجاوزانها بقفزة واحدة، في حين اضطرّ سمسم للمرور من فوقها خطوة خطوة. مرّوا بين أشجار الصنوبر الفوّاحة، واضطرّوا إلى القفز فوق أخاديد عميقة حفرها ذوو الساقين بآكلة الشجر. غالباً ما سمعها سمسم من خلف سور حديقته الآمنة وهي تهدر وتزأر في البعيد. كان أحد الأخاديد عريضاً جدّاً وممتلئاً حتّى النصف بماء موحل كريه الرائحة. غير أنّ الهرّين قفزا فوقه من دون تردّد.

لم يكن قد سبق لسمسم أن وضع كفّه في الماء قطّ، إلّا أنّه كان مصمّماً على عدم إظهار أيّ علامات ضعف. هكذا أغمض عينيه قليلاً وحاول تجاهل إحساس البلل غير المريح على فراء بطنه.

أخيراً، توقّف قلب الأسد والرعب الأبيض. فتوقّف سمسم خلفهما وراح يلهث بينما صعد المحاربان على صخرة تقع على حافة وادٍ صغير.

ماء قلب الأسد: "أصبحنا قريبين جدّاً من مخيّمنا الآن".

بحث سمسم عن إشارات حياة؛ أوراق تتحرّك، فراء يمرّ بين الأدغال في الأسفل، لكنّه لم يرَ سوى الأعشاب نفسها التي تغطّي بقيّة أرض الغابة.

قال له الرعب الأبيض بنفاد صبر: "استخدم أنفك، يجب أن تكون قادراً على اشتمامهم".

أغمض سمسم عينيه وراح يشتمّ الهواء. كان الرعب الأبيض على حقّ، فالروائح هنا مختلفة جدّاً عن روائح القطط المألوفة لديه. كانت أقوى، وأنبأته بوجود الكثير من القطط المختلفة.

هزّ رأسه موافقاً وأعلن قائلاً: "أنا أشتمّ رائحة قطط".

تبادل قلب الأسد والرعب الأبيض نظرات التسلية.

قال قلب الأسد: "إن تمّ قبولك في عشيرتنا، ستصبح قادراً يوماً ما على معرفة رائحة كلّ هرّ باسمه. اتبعني!". شقّ طريقه برشاقة فوق الصخور إلى قعر الوادي، ثمّ عبَرَ بقعة كثيفة من نبات القندول. تبعه سمسم، بينما مشى الرعب الأبيض خلفهما. بينما احتكّ جسد سمسم بالقندول الشائك، نظر إلى الأسفل ولاحظ أنّ العشب تحت أكفّه كان ممهّداً على شكل طريق عريض قوي الرائحة. ففكّر أنّه لا بدّ أن يكون هذا مدخل المخيّم.

خلف الشجيرات الكثيفة، ظهرت فسحة خالية من الشجر. كانت الأرض في الوسط عارية وصلبة بفعل خطى أجيال عديدة من الهررة. من الواضح أنّ هذا المخيّم موجود هنا منذ زمن طويل. تخلّلت أشعّة الشمس أغصان الأشجار وسقطت على أرض الفسحة في بقع من الضوء، أمّا الهواء فكان دافئاً وساكناً.

نظر سمسم حوله بذهول. كانت القطط في كلّ مكان، جالسة إمّا بمفردها أو في مجموعات، تتقاسم الطعام أو تخرخر بهدوء، وينظّف بعضها بعضاً.

شرح له قلب الأسد قائلاً: "عند علوّ الشمس، يكون الحرّ شديداً، فنستغلّ هذا الوقت في تجاذب الألسنة".

ردّد سمسم: "تجاذب الألسنة؟".

قال الرعب الأبيض: "تمضي قطط العشيرة دائماً بعض الوقت في تنظيف بعضها وتبادل أخبار النهار، وهذا ما نسمّيه تجاذب الألسنة. إنّها عادة تربط أفراد العشيرة ببعضهم البعض".

من الواضح أنّ القطط اشتمّت رائحة سمسم الغريبة، لأنّ الرؤوس بدأت تلتفت وتحدّق إليه بفضول.

شعر سمسم فجأة بالخجل من النظر مباشرة إلى القطط، فراح بصره يجول في أرجاء الفسحة. كانت محاطة بالأعشاب الكثيفة، تتخلّلها قرم الأشجار وشجرة مقطوعة، بينما حجبت ستارة كثيفة من نبات الخنشار والقندول المخيّم عن بقيّة الغابة.

قال قلب الأسد وهو يحرّك ذيله باتّجاه الأغصان الكثيفة المتشابكة لنبات العلّيق: "هناك تقع الحضانة، وفيها تتمّ رعاية الصغار".

تحرّكت أذنا سمسم باتّجاه الشجيرات. لم يستطع تمييز شيء من خلال الأغصان الشائكة، لكنّه سمع مواء عدّة قطط صغيرة من خلفها. بينما كان ينظر إليها، خرجت هرّة شقراء من فتحة صغيرة في الأغصان. فكّر سمسم، لا بدّ أنّها إحدى هرر الحضانة.

ظهرت هرّة أخرى ذات بقع سوداء مميّزة من خلف أجمة العلّيق. تبادلت القطّتان لعقة ودّية بين آذانهما ثمّ عادتا إلى الحضانة وهما تتمتمان لتهدئة الصغار.

قال قلب الأسد: "تتعاون كلّ إناث الحضانة على رعاية الصغار، فكلّ القطط تخدم العشيرة. الولاء للعشيرة هو أوّل قانون يتعلّمه المحارب، وهو درس عليك أن تتعلّمه سريعاً إن كنت ترغب في البقاء معنا".

قال الرعب الأبيض وهو يشتمّ الهواء: "ها قد أتت نجمة الصباح".

اشتمّ سمسم الهواء هو الآخر، وسُرّ عندما تمكّن من تمييز رائحة الهرّة الرمادية قبل لحظة من خروجها من ظلّ صخرة كبيرة تقع إلى جانبهم عند أعلى الفسحة.

قالت نجمة الصباح للمحاربين: "لقد وصل".

أجابها الرعب الأبيض: "كان قلب الأسد مقتنعاً أنّه لن يأتي".

لاحظ سمسم أنّ ذيل نجمة الصباح كان يهتزّ بنفاد صبر. سألته: "إذاً، ما رأيك به؟".

أقرّ الهرّ الأبيض قائلاً: "أبلى حسناً خلال رحلة العودة، على الرغم من حجمه الصغير. لا شكّ أنّه يبدو قوياً بالنسبة إلى بسبوس أليف".

انتقل نظر نجمة الصباح بين قلب الأسد والرعب الأبيض وسألتهما: "إذاً، هل اتّفقنا؟".

هزّ الهرّان رأسيهما موافقَين.

"إذاً سأعلن وصوله لأفراد العشيرة". قفزت نجمة الصباح إلى أعلى الصخرة وهتفت: "جميع القطط القادرة على اصطياد فريستها بنفسها مدعوّة إلى اجتماع للعشيرة هنا تحت الصخرة العالية".

جذب صوتها الواضح كلّ القطط، فخرجت كالظلال من أطراف الفسحة. بقي سمسم في مكانه، محاطاً بقلب الأسد والرعب الأبيض. أمّا القطط الأخرى فجلست تحت الصخرة العالية ونظرت بترقّب إلى زعيمتها.

شعر سمسم بارتياح عندما رأى فراء بسّ رمادي الكثيف بين القطط. بجانبه، جلست هرّة شابّة ذات لون بنّي مموّج، واستقرّ ذيلها بطرفه الأسود على أكفّها البيضاء الصغيرة. خلفهما، جثم هرّ رمادي داكن وضخم، وبدت الخطوط السوداء على فرائه أشبه بالظلال التي تتراقص على أرض الغابة تحت ضوء القمر.

عندما سكنت القطط، تكلّمت نجمة الصباح. قالت: "تحتاج عشيرة الرعد إلى مزيد من المحاربين. فنحن لم يسبق لنا أن واجهنا هذه القلّة في عدد المبتدئين. لذلك، اتُّخذ القرار بإدخال هرّ غريب إلى عشيرة الرعد ليتدرّب على القتال..."

سمع سمسم تمتمات ساخطة بين قطط العشيرة، لكنّ نجمة الصباح أسكتتهم بصيحة حازمة. "وقد وجدت هرّاً مستعدّاً ليصبح مبتدئاً في عشيرة الرعد".

سُمع مواء عالٍ طغى على الصدمة التي سيطرت على القطط: "محظوظاً ليصبح مبتدئاً".

رفع سمسم رأسه ورأى هرّاً شاحب اللون يقف ويحدّق بتحدٍّ إلى الزعيمة.

تجاهلته نجمة الصباح وتوجّهت إلى كلّ أفراد العشيرة قائلة: "التقى قلب الأسد والرعب الأبيض بهذا الهرّ الشابّ، ووافقاني على فكرة تدريبه مع بقيّة المبتدئين".

نظر سمسم إلى قلب الأسد ومن ثمّ إلى العشيرة، ليكتشف أنّ كلّ الأنظار أصبحت مركّزة عليه الآن. انتصب فراؤه وازدرد ريقه بعصبية. خيّم الصمت لبرهة، وشعر سمسم أنّهم سمعوا جميعاً نبض قلبه المتسارع كما اشتمّوا رائحة خوفه.

فجأة، ارتفع من الحشد مواء متصاعد يصمّ الآذان.

"من أين أتى؟".

"إلى أيّ عشيرة ينتمي؟".

"رائحته غريبة! لا تشبه رائحة أيّ من العشائر التي نعرفها!".

طغت صيحة على تلك الجلبة "انظروا إلى طوقه! إنّه بسبوس أليف!". كان الهرّ الشاحب هو من قال ذلك. "البسبوس الأليف يبقى أليفاً. هذه العشيرة تحتاج إلى محاربين ولدوا في البراري، وليس إلى فم ناعم آخر تُطعمه".

خفض قلب الأسد رأسه وهمس في أذن سمسم. "ذاك الهرّ يدعى النمر الذيّال، وقد اشتمّ رائحة خوفك شأنه شأن الجميع. عليك أن تثبت له ولغيره أنّ خوفك لن يردعك".

غير أنّ سمسم عجز عن الحراك. كيف يثبت لتلك القطط الشرسة أنّه ليس مجرّد بسبوس أليف؟

تابع الهرّ إثارته. "إنّ طوقك هو علامة ذوي الساقين، وذاك الجرس الصاخب لن يجعل منك صيّاداً محظوظاً في أحسن الأحوال. أمّا في أسوأ الأحوال، فإنّه سيجذب ذوي الساقين إلى أراضينا بحثاً عن الهرّ الصغير الضائع الذي ملأ الغابة برنينه المثير للشفقة".

صدر مواء عن كلّ القطط تعبيراً عن إجماعها. أضاف النمر الذيّال، مدركاً أنّه يحظى بدعم جمهوره: "إنّ صوت جرسك الصاخب سينبّه أعداءنا، هذا إن لم تجلبهم رائحة ذوي الساقين العالقة فيك!".

همس قلب الأسد في أذن سمسم مجدّداً: "هل ستتراجع أمام هذا التحدّي؟".

لم يتحرّك سمسم، لكنّه كان يحاول هذه المرّة تحديد موقع النمر الذيّال. كان واقفاً خلف هرّة بنّية داكنة. خفض سمسم أذنيه، وضاقت عيناه، ثمّ صدر عنه هسيس قبل أن يقفز بين القطط المذهولة لوضع حدّ لتلك المضايقات.

لم يكن النمر الذيّال مستعدّاً إطلاقاً لهجوم سمسم. فمال جانباً، وفقد توازنه على الأرض الصلبة. أمّا سمسم، الذي استبدّ به الغضب واليأس لإثبات نفسه، فغرز مخالبه عميقاً في فراء الهرّ وانقضّ عليه بأسنانه. لم تسبق ذاك العراك أيّ طقوس من الضرب والملاكمة، بل اشتبك الهرّان وأخذا يصرخان ويتقلّبان على الأرض في قلب المخيّم، فاضطرّت بقيّة القطط إلى الابتعاد بسرعة من طريق زوبعة الفراء.

بينما كان سمسم يقاتل ويكافح، أدرك فجأة أنّه لا يشعر بأيّ خوف، بل بحماسة وحسب ممزوجة بالبهجة. ومن خلال هدير الدم في أذنيه، سمع القطط من حوله تعوي من فرط الحماسة.

فجأة أحسّ سمسم أنّ الطوق يشتدّ حول عنقه. كان النمر الذيّال قد قبض عليه بأسنانه وبدأ يشدّه بقوّة. أحسّ بضغط كبير حول حلقه بحيث عجز عن التنفّس وبدأ يشعر بالذعر. راح يتلوّى، لكنّ كلّ حركة منه كانت تضاعف من الضغط. أخذ يشهق، ثمّ استجمع كلّ قوّته وحاول الإفلات من قبضة النمر الذيّال. فجأة، وبحركة خاطفة، تحرّر من بين أكفّه.

تراجع النمر الذيّال متعثّراً، بينما وقف سمسم بسرعة ونظر حوله. كان خصمه رابضاً على بعد ثلاثة أذيال منه. ومن فمه، تدلّى طوقه ممزّقاً ومقطّعاً.

على الفور، هبطت نجمة الصباح عن الصخرة العالية وأسكتت الحشد بمواء مدوٍّ. بقي كلّ من سمسم والنمر الذيّال قابعَين في مكانهما، يلهثان، في حين تناثرت كتل من فرائهما على الأرض. شعر سمسم بوخز جرح فوق عينه، بينما أصيبت أذن النمر الذيّال بشقّ كبير، وسال الدم فوق كتفيه النحيلَين على الأرض الترابية. كانا يحدّقان إلى بعضهما والشرر يتطاير من عيونهما.

تقدّمت نجمة الصباح وأخذت الطوق من النمر الذيّال. وضعته أمامها على الأرض وماءت قائلة: "خسر القادم الجديد طوق ذوي الساقين في معركة خاضها دفاعاً عن شرفه. وقد

عبّرت عشيرة النجوم عن موافقتها عليه، فبعدما تحرّر هذا الهرّ من قبضة مالكيه، بات يملك ملء الحرّية للانضمام إلى عشيرة الرعد كمبتدئ".

نظر سمسم إلى نجمة الصباح وهزّ رأسه موافقاً بوقار. نهض واقترب ليقف في بقعة من ضوء الشمس، ورحّبت عضلاته المنهكة بالدفء. توهّج فراؤه البرتقالي تحت أشعّة الشمس الذهبيّة. رفع سمسم رأسه بفخر ونظر إلى القطط التي تحيط به. هذه المرّة، لم يصدر عنها أيّ اعتراض أو استهجان، فقد أثبت نفسه كخصم جدير في المعركة.

اقتربت نجمة الصباح من سمسم ووضعت الطوق الممزّق أمامه على الأرض. لمست أذنه بلطف بأنفها وتمتمت قائلة: "أنت تبدو مثل شعلة نار في ضوء الشمس". ومضت عيناها بشكل خاطف كأنّ كلماتها تعني لها أكثر ممّا يعرف سمسم. "لقد قاتلتَ ببسالة". ثمّ التفتت إلى العشيرة وأعلنت قائلة: "من الآن فصاعداً، وحتّى يكسب هذا المبتدئ اسم محارب، سيُدعى بسّ النار، تيمّناً بفرائه الناري".

تراجعت إلى الخلف، وانتظرت مع بقيّة القطط خطوته التالية. من دون تردّد، استدار سمسم وراح يركل التراب والأعشاب على طوقه كأنّه يدفن قذارته.

زمجر النمر الذيّال وابتعد وهو يعرج نحو زاوية مظلّلة بالخنشار. أمّا بقيّة القطط فانقسمت إلى مجموعات وراحت تتمتم بين بعضها بحماسة.

"مرحباً يا بسّ النار!".

سمع سمسم صوت بسّ رمادي الودود خلفه. بسّ النار! ملأه الفخر عندما سمع اسمه الجديد، والتفت لتحيّة المبتدئ الرمادي بشمّة ترحيب.

قال بسّ رمادي: "كان قتالك رائعاً يا بسّ النار! لا سيّما بالنسبة إلى بسبوس أليف! فالنمر الذيّال محارب، مع أنّه لم ينهِ تدريبه سوى منذ شهرين. وهو لن ينساك بسهولة بعد الجرح الذي سبّبته في أذنه. فقد شوّهتَ مظهره، هذا مؤكّد".

أجاب بسّ النار: "شكراً لك يا بسّ رمادي. لكنّه قاتلني بشراسة هو الآخر!". لعق كفّه الأمامي وبدأ ينظّف الخدش العميق فوق عينه. في أثناء ذلك، سمع اسمه الجديد مجدّداً يتردّد بين القطط.

"بسّ النار!".

"مرحباً يا بسّ النار!".

"أهلاً بك أيّها الشابّ!".

أغمض بسّ النار عينيه للحظة مستمتعاً بأنغام اسمه.

أيقظه من أحلامه مواء الاستحسان الصادر عن بسّ رمادي: "واسم جميل أيضاً!".

نظر بسّ النار حوله متسائلاً: "أين ذهب النمر الذيّال؟".

"أعتقد أنّه توجّه إلى وكر الورقة الرقطاء". وأشار بسّ رمادي برأسه نحو زاوية محاطة بنبات الخنشار اختفى فيها النمر الذيّال. "إنّها مداويتنا، كما أنّه لا بأس بمظهرها أيضاً. فهي أصغر سنّاً وأكثر جمالاً من معظم..."

توقّف بسّ رمادي في منتصف حديثه عندما سمع الهرّان عواء منخفضاً بجانبهما. التفتا وعرف بسّ النار الهرّ الرمادي المخطّط الذي كان جالساً خلف بسّ رمادي سابقاً.

ماء بسّ رمادي وهو يخفض رأسه احتراماً: "النمر الأسود".

نظر الهرّ الرشيق إلى بسّ النار للحظة. "أنت محظوظ لأنّ طوقك انقطع في تلك اللحظة. فالنمر الذيّال محارب شابّ، لكنّني لم أتخيّل أن يُهزم أمام بسبوس أليف!". نطق عبارة بسبوس أليف بازدراء، ثمّ استدار مبتعداً.

همس بسّ رمادي قائلاً: "في الواقع، النمر الأسود ليس شابّاً ولا جميلاً..."

كان بسّ النار على وشك موافقة صديقه الجديد على رأيه عندما قاطعه عواء تحذير من هرّ رمادي مسنّ جالس عند أطراف الفسحة.

قال بسّ رمادي محذّراً على الفور: "شمشوم يشتمّ رائحة المشاكل!".

بالكاد وجد بسّ النار الوقت للالتفات قبل أن يندفع هرّ شابّ عبر الشجيرات ويدخل المخيّم. كان هزيلاً، وباستثناء طرف ذيله الطويل والنحيل الأبيض، كان السواد يلفّه تماماً.

شهق بسّ رمادي قائلاً: "هذا بسّ أدهم! لمَ أتى بمفرده؟ أين النمر الشرس؟".

نظر بسّ النار إلى بسّ أدهم الذي أخذ يترنّح. كان يلهث بشدّة، وكان فراؤه مشعّثاً ومكسوّاً بالغبار، وعيناه مليئتين بالخوف.

همس متسائلاً، بينما هرعت قطط أخرى لاستقبال القادم الجديد: "ومن هما بسّ أدهم والنمر الشرس؟".

شرح له بسرعة: "بسّ أدهم مبتدئ، والنمر الشرس مدرّبه. خرجا مع ذيل الأرجوان منذ شروق الشمس في مهمّة ضدّ عشيرة النهر!".

ردّد بسّ النار وقد أربكته كلّ هذه الأسماء: "ذيل الأرجوان؟".

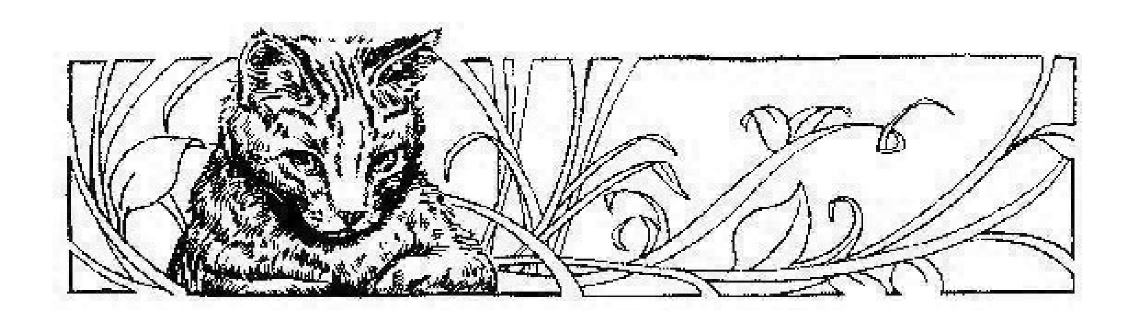
همس بسّ رمادي: "إنّه نائب نجمة الصباح. لكن لماذا عاد بسّ أدهم بمفرده؟". رفع رأسه مصغياً مع اقتراب نجمة الصباح.

"بسّ أدهم؟". تكلّمت الهرّة بهدوء، لكنّ نظرة القلق كانت واضحة في عينيها الزرقاوين.

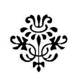
تراجعت بقيّة القطط وبدا التوتّر على شفاهها المشدودة.

قفزت نجمة الصباح على الصخرة ونظرت إلى الهرّ المرتجف. "ما الذي جرى؟ تكلّم يا بسّ أدهم!".

كان بسّ أدهم ما زال يجاهد لاستعادة أنفاسه، وجسده يعلو وينخفض بشكل متقطّع، بينما تحوّل التراب المحيط به إلى اللون الأحمر بفعل الدماء التي تسيل منه. غير أنّه تمكّن من الصعود على الصخرة العالية ليقف إلى جانب نجمة الصباح. التفت إلى الوجوه القلقة التي تحيط به، ثمّ أخذ نفساً عميقاً قبل أن يعلن قائلاً: "لقد مات ذيل الأرجوان!".



الفصل 4



ارتفعت صيحات الصدمة من قطط العشيرة وتردّدت أصداؤها في الغابة.

ترنّح بسّ أدهم قليلاً، ولمعت ساقه الأمامية اليمنى بالدماء التي كانت تسيل من جرح عميق في كتفه. تابع وهو يرتجف: "التقينا بخمسة محاربين من عشيرة النهر قرب الجدول، على مقربة من الصخور المشمسة. وكان قلب السنديان بينهم".

شهق بسّ رمادي الواقف بجانب بسّ النار: "قلب السنديان! إنّه نائب عشيرة النهر، وهو من أشرس المحاربين في الغابة. بسّ أدهم محظوظ! أتمنّى لو كنت مكانه. لكنتُ حقّاً..." تمّ إسكات بسّ رمادي بنظرة قاسية من الهرّ المسنّ الذي شعر بعودة بسّ أدهم قبل الجميع.

صبّ بسّ النار اهتمامه مجدّداً على بسّ أدهم.

"قام ذيل الأرجوان بتحذير قلب السنديان من دخول أراضي عشيرة الرعد. وقال إنّ من يُقبض عليه وهو يتجوّل فيها سيكون مصيره الموت المحتّم، لكنّ قل... قلب السنديان لم يتراجع. قال إنّ عشي...عشيرته تحتاج إلى الطعام وإنّ التهديد لا يخيفه". صمت بسّ أدهم لأخذ نفس آخر. كان جرحه ما زال ينزف بشدّة، وقد وقف بطريقة مائلة لتخفيف الوزن عن كتفه.

"في تلك اللحظة، هجمت علينا قطط عشيرة النهر. كان من الصعب رؤية ما يجري، فقد دار قتال عنيف. رأيت قلب السنديان يسمّر ذيل الأرجوان بالأرض، لكنّ ذيل الأرجوان..." فجأة غابت عينا بسّ أدهم ومال جانباً، ثمّ راح يتدحرج عن الصخرة العالية قبل أن يستقرّ على الأرض في الأسفل.

اندفعت نحوه هرّة كبيرة شقراء، ثمّ انحنت بجانبه وراحت تلعق خدّه قبل أن تنادي: "أيّتها الورقة الرقطاء!"

خرجت من الزاوية المظلّلة بالنبات الهرّة البنّية الجميلة التي رآها بسّ النار جالسة إلى جانب بسّ رمادي في وقت سابق. أسرعت إلى بسّ أدهم وماءت لتبعد عنه أمّه. بعد ذلك استخدمت أنفها الوردي الصغير لتقلب الهرّ الشابّ وتنظر إلى جرحه عن كثب. رفعت رأسها إلى الأعلى وماءت قائلة: "لا بأس يا زهرة الذهب، فجراحه ليست خطيرة. لكنّني أحتاج إلى بعض خيوط العنكبوت لوقف النزيف".

أسرعت الورقة الرقطاء عائدة إلى وكرها بينما كسر صمت المخيّم في الفسحة مواء حزين. فاستدارت كلّ الرؤوس إلى مصدره.

خرج هرّ بنّي داكن اللون وضخم البنية من النفق حاملاً بين أسنانه الحادّة ليس فريسة، بل جثّة هامدة لهرّ آخر. جرّ الضحية إلى وسط الفسحة.

رفع بسّ النار رأسه ولمح ذيلاً أشقر مائلاً إلى الاحمرار يتدلّى فوق التراب.

اجتاحت الصدمة أفراد العشيرة مثل نسيم بارد. بجانب بسّ النار، ربض بسّ رمادي بحزن. "ذيل الأرجوان!".

سألت نجمة الصباح من مكانها على الصخرة العالية: "كيف حدث ذلك أيّها النمر الشرس؟".

أفلت النمر الشرس عنق ذيل الأرجوان من فمه، ثمّ نظر إلى نجمة الصباح وقال: "لقد مات بشرف، قتله قلب السنديان. لم أستطع إنقاذه، لكنّني سلبتُ قلب السنديان حياته قبل أن يستمتع بحلاوة النصر". كان صوت النمر الشرس قوياً وعميقاً. "لم تذهب حياة ذيل الأرجوان سدى، لأنّني أشكّ أن يتجرّأ صيّادو عشيرة النهر ويطؤوا أراضينا مجدّداً".

نظر بسّ النار إلى بسّ رمادي ووجد عينيه مليئتين بالحزن.

بعد لحظة، اقتربت عدّة قطط لتلعق فراء ذيل الأرجوان المشعّث وهي تخرخر بجمل خافتة للمحارب الميت.

همس بسّ النار في أذن بسّ رمادي متسائلاً: "ماذا يفعلون؟".

أجاب بسّ رمادي من دون أن يرفع عينيه عن الهرّ الميت: "ربّما تركتنا روح ذيل الأرجوان لتنضمّ إلى عشيرة النجوم، لكنّ أفراد العشيرة سيتجاذبون الألسنة معه مرّة أخيرة".

ردّد بسّ النار: "عشيرة النجوم؟".

"إنّها عشيرة أرواح المحاربين الذين يحرسون كلّ قطط العشائر. يمكنك رؤيتهم في الفراء الفضّي".

بدا الاستغراب على بسّ النار، فشرح له بسّ رمادي: "الفراء الفضّي هو تلك المجموعة الكثيفة من النجوم التي تنتشر كلّ ليلة في السماء. كلّ نجم منها هو محارب في عشيرة النجوم.

وذيل الأرجوان سينضمّ إليها الليلة".

هزّ بسّ النار رأسه إلى الأسفل بينما اقترب بسّ رمادي لتجاذب الألسنة مع نائب عشيرته الميت.

كانت نجمة الصباح قد بقيت صامتة بينما اقترب عدد من القطط لإلقاء نظرة أخيرة على ذيل الأرجوان. أخيراً قفزت عن الصخرة العالية واقتربت ببطء من الجثّة. فتراجعت القطط الأخرى وراقبت زعيمتها وهي تجثم لتتجاذب الألسنة مع رفيقها القديم للمرّة الأخيرة.

عندما انتهت، رفعت رأسها وتحدّثت. كان صوتها منخفضاً ومثقلاً بالحزن. فأصغت العشيرة إليها بصمت. "كان ذيل الأرجوان محارباً باسلاً ولا يمكن الشكّ أبداً بولائه لعشيرة الرعد. لطالما اعتمدتُ على حكمه لأنّه كان يأخذ بالاعتبار احتياجات العشيرة ولا تغريه المصلحة الذاتية. لو بقي على قيد الحياة، لأصبح زعيماً عظيماً".

بعد ذلك ربضت على بطنها، ثمّ خفضت رأسها ومدّت كفّيها أمامها لتحزن بصمت على صديقها. فاقتربت عدّة قطط أخرى وربضت إلى جانبها في تلك الوضعية الحزينة، برؤوس محنيّة وظهور محدّبة.

راقبهم بسّ النار. لم يكن قد عرف ذيل الأرجوان، لكنّه تأثّر رغماً عنه وهو يشاهد حداد العشيرة عليه.

أتى بسّ رمادي ووقف إلى جانبه مجدّداً. قال: "سيحزن بسّ أغبر".

"بسّ أغبر؟".

"إنّه تلميذ ذيل الأرجوان، ذاك الهرّ البنّي المخطّط الواقف هناك. أتساءل من سيكون مدرّبه الجديد".

نظر بسّ النار إلى الهرّ الصغير الجاثم بجانب جثّة ذيل الأرجوان، يحدّق بشرود إلى الأرض. انتقل نظر بسّ النار إلى زعيمة العشيرة، فسأله: "كم ستجلس نجمة الصباح معه؟".

أجابه بسّ رمادي: "ربّما ستبقى الليل بطوله. فقد كان ذيل الأرجوان نائبها لأشهر طويلة جدّاً، ولن تتركه يرحل بسرعة. كان واحداً من أفضل المحاربين، ربّما لم يكن ضخماً وقوياً مثل النمر الشرس أو قلب الأسد، لكنّه كان سريعاً وذكياً".

نظر بسّ النار إلى النمر الشرس معجباً بقوّة عضلاته وبحجم رأسه. كانت حياته كمحارب قد خلّفت آثاراً واضحة على جسده الضخم. فإحدى أذنيه مقطوعة على شكل مخروطي عميق، في حين ظهرت ندبة سميكة على أنفه.

نهض النمر الشرس فجأة وذهب مسرعاً إلى بسّ أدهم. كانت الورقة الرقطاء جاثمة بجانب تلميذ النمر الشرس الجريح، تستخدم أسنانها وكفّيها الأماميين لتضغط كتلاً من نسيج العنكبوت على جرح كتفه.

مال بسّ النار نحو بسّ رمادي وسأله: "ماذا تفعل الورقة الرقطاء؟".

"تحاول إيقاف النزيف. يبدو الجرح خطيراً، كما يبدو بسّ أدهم خائفاً حقّاً. صحيح أنّه كان دائماً جباناً بعض الشيء، لكن لم يسبق لي أن رأيته بهذه الحال. تعال لنرى إن كان قد استيقظ".

سارا بين القطط الحزينة باتّجاه المكان الذي تمدّد فيه بسّ أدهم ووقفا على مسافة معقولة بانتظار أن ينهي النمر الشرس كلامه.

سأل النمر الشرس الهرّة البنّية بصوت واثق: "إذاً، كيف حاله؟ هل تعتقدين أنّ بإمكانك إنقاذه؟ لقد أمضيت وقتاً طويلاً في تدريبه، ولا أريد أن تضيع جهودي سدى في أوّل معركة".

أدابت الورقة الرقطاء من دون أن ترفع نظرها عن مريضها: "أجل، من المؤسف بعد تدريبك القيّم له أن يموت في معركته الأولى، أليس كذلك؟". سمع بسّ النار نبرة ساخرة في صوتها الناعم.

سألها النمر الشرس: "هل سيعيش؟".

"بالتأكيد، لا يحتاج سوى إلى الراحة".

اشتمّ النمر الشرس الهرّ الأسود الممدّد بلا حراك ثمّ نظر إليه ووخزه بأحد مخالبه الأمامية. "هيّا إذاً، انهض!".

بيد أنّ بسّ أدهم لم يتحرّك.

همس بسّ النار: "انظر إلى طول ذاك المخلب!".

أجابه بسّ رمادي: "أنت محقّ! أنا واثق أنّني لا أرغب في الاشتباك معه!".

"ليس بهذه السرعة، أيّها النمر الشرس!" وضعت الورقة الرقطاء كفّها على مخلب النمر الشرس الحادّ وأبعدته بلطف. "يحتاج هذا المبتدئ إلى البقاء ساكناً قدر الإمكان إلى أن يلتئم جرحه. فنحن لا نريد أن يعاوده النزف مجدّداً وهو يقفز في محاولة لإرضائك، لذا دعه وشأنه".

أمسك بسّ النار أنفاسه وهو ينتظر ردّ فعل النمر الشرس. أدرك أنّ عدداً قليلاً من القطط يجرؤ على إعطاء الأوامر لمحارب مثله. تصلّب الهرّ الضخم، وبدا على وشك الكلام عندما ماءت الورقة الرقطاء ممازحة: "أنت تعرف أنّه لا يجدر بك أن تجادل هرّة مداوية، أيّها النمر الشرس".

ومضت عينا النمر الشرس عندما سمع كلام الهرّة البنّية، فخرخر قائلاً: "أنا لن أتجرّأ على معارضتك يا عزيزتي". وبينما كان يستدير مبتعداً، لمح بسّ رمادي وبسّ النار. فسأل الهرّ الرمادي وهو يقف أمامهما: "من هذا؟".

قال بسّ رمادي: "إنّه مبتدئ جديد".

قال المحارب: "رائحته كرائحة بسبوس أليف!".

أجابه بسّ النار بجرأة: "كنت هرّ منزل، لكنّني سأتدرّب لأصبح محارباً".

نظر إليه النمر الشرس باهتمام مفاجئ. "آه أجل، تذكّرت الآن. فقد ذكرت نجمة الصباح أنّها عثرت على بسبوس أليف شارد. إذاً، هي تحاول تدريبك فعلاً؟".

جلس بسّ النار مستقيماً وحاول التأثير على هذا المحارب المميّز. فماء باحترام: "هذا صحيح".

رمقه النمر الشرس متأمّلاً، ثمّ قال: "إذاً سأتابع تقدّمك باهتمام".

نفخ بسّ النار صدره بفخر بينما انصرف النمر الشرس مبتعداً. "هل تعتقد أنّني أعجبته؟".

همس بسّ رمادي: "لا أعتقد أنّ النمر الشرس يعجب بأيّ مبتدئ!".

في تلك اللحظة تحرّك بسّ أدهم وهزّ أذنيه. تمتم متسائلاً: "هل رحل؟".

أجاب بسّ رمادي وهو يقترب منه: "من؟ النمر الشرس؟ أجل، لقد رحل".

اقترب بسّ النار وبدأ يعرّف عن نفسه: "مرحباً".

اعترضت الورقة الرقطاء قائلة: "ابتعدا أنتما الاثنان! كيف سأساعد هذا الهرّ مع كلّ هذه المقاطعات!". وحرّكت ذيلها بنفاد صبر باتّجاه بسّ رمادي وبسّ النار ثمّ مرّت بينهما وبين مريضها.

أدرك بسّ النار أنّها جادّة على الرغم من وميض عينيها العنبريتين الدافئتين.

ماء بسّ رمادي قائلاً: "تعال إذاً يا بسّ النار، سأعرّفك على المكان، إلى اللقاء يا بسّ أدهم".

ترك الهرّان الورقة الرقطاء مع بسّ أدهم وابتعدا.

بدا التفكير على بسّ رمادي، فمن الواضح أنّه يأخذ مهامه كدليل بجدّية. بدأ قائلاً: "بتّ تعرف الصخرة العالية"، وحرّك ذيله باتّجاه الصخرة الكبيرة الملساء. "دائماً تتحدّث نجمة الصباح مع العشيرة وهي واقفة هناك. أمّا وكرها فيقع في الأسفل". ورفع أنفه باتّجاه فجوة في جانب الصخرة العالية. "حُفر وكرها منذ أشهر طويلة بفعل جدول مياه قديم". تدلّت نباتات الأشنة على المدخل مشكّلة وقاء من الرياح والمطر.

تابع بسّ رمادي: "وهنا ينام المحاربون".

تبعه بسّ النار إلى أجمة كبيرة على بعد بضع خطوات من الصخرة العالية. كان هذا المكان يشرف بوضوح على مدخل القندول المؤدّي إلى المخيّم. تدلّت أغصان الشجيرات إلى الأسفل، لكنّ بسّ النار استطاع رؤية مساحة ظليلة في الداخل اتّخذها المحاربون وكراً لهم.

شرح له بسّ رمادي: "ينام كبار المحاربين أقرب ما يكون إلى الوسط، وهي البقعة الأكثر دفئاً. ويتقاسمون عادة صيدهم الطازج بجانب تلك الأجمة من نبات القرّاص. أمّا المحاربون الأصغر سنّاً فيأكلون إلى جانبهم. وفي بعض الأحيان، يُدعون إلى الانضمام إلى كبار المحاربين وتناول الطعام معهم، وهذا شرف كبير".

سأله بسّ النار وهو يشعر بالإعجاب والإرباك في آن واحد أمام كلّ هذه التقاليد والطقوس التي تحفل بها حياة العشيرة: "وماذا عن بقيّة القطط؟".

"حسناً، تشارك الإناثُ المحاربين مساكنَهم عندما تعملن كمحاربات، لكن عندما ينتظرن صغاراً، يعشن في وكر قرب الحضانة. أمّا المسنّون، فيملكون مكاناً خاصّاً بهم في الجانب الآخر من الفسحة. تعال، سأريك أين".

هرول بسّ النار خلف بسّ رمادي عبر الفسحة، وانعطفا عند الزاوية الظليلة التي يقع عندها وكر الورقة الرقطاء. توقّفا بجانب شجرة مقطوعة تظلّل بقعة من العشب الغضّ. بين الأعشاب الخضراء الناعمة، ربضت أربع قطط مسنّة تأكل أرنباً صغيراً وسميناً.

همس بسّ رمادي: "لا بدّ أنّ بسّ أغبر وبسّة الرمال هما اللذان أحضرا هذا الصيد. فمن واجبات المبتدئين اصطياد الطرائد لإطعام كبار السنّ".

ألقى أحد القطط التحيّة على بسّ رمادي قائلاً: "مرحباً أيّها الشابّ".

أجابه بسّ رمادي وهو يهزّ رأسه باحترام: "مرحباً يا شمشوم".

قال هرّ آخر: "لا بدّ أنّ هذا هو المبتدئ الجديد. اسمك بسّ النار، أليس كذلك؟". كان فراؤه بنّياً تتخلّله البقع الداكنة. أمّا ذيله، فكان عبارة عن عقب صغير.

أجاب بسّ النار، وهو يقلّد هزّة رأس بسّ رمادي المهذّبة: "هذا صحيح".

خرخر الهرّ البنّي قائلاً: "أنا الذيل الأبتر، أهلاً بك في عشيرتنا".

سألهما شمشوم: "هل أكلتما؟".

هزّ كلّ من الهرّين الشابّين رأسيهما بالنفي.

"حسناً، لدينا ما يكفي من الطعام هنا. فقد أصبح بسّ أغبر وبسّة الرمال صيّادَين ماهرَين. هل تمانعين إن شاركنا هذان الشابّان في فأر يا عوراء؟".

هزّت الهرّة الرمادية الجالسة إلى جانبه رأسها نافية. لاحظ بسّ النار أنّ إحدى عينيها

معتمة وغير مبصرة.

"وماذا عنك، يا فراء الكستناء؟".

كانت الهرّة المسنّة الأخرى ذات فراء بنّي تختلط فيه البقع الفاتحة والداكنة، وخطم رمادي. ماءت بصوت مبحوح بسبب السنّ: "بالطبع لا".

ماء بسّ رمادي بنهم: "شكراً". ثمّ اقترب وأخذ فأراً كبيراً من كومة الطرائد ووضعه عند أقدام بسّ النار. سأله: "ألم تتذوّق فأراً بعد؟".

اعترف بسّ النار قائلاً: "كلّا". ثارت شهيّته فجأة بفعل الروائح الدافئة المنبعثة من الطريدة الطازجة وارتجف جسده بأكمله وهو يفكّر أنّه يتناول وجبته الحقيقية الأولى كعضو في العشيرة.

"في هذه الحالة، يمكنك أن تتناول القضمة الأولى، لكن أبقِ لي القليل!". خفض بسّ رمادي رأسه وتراجع خطوة لإفساح المجال أمام بسّ النار.

جثم بسّ النار وتناول قضمة كبيرة من الفأر. كان طرياً ومليئاً بالعصارة، كما أنّه حافل بنكهات الغابة.

سأله بسّ رمادي: "ما رأيك؟".

تمتم بسّ النار بفم ممتلئ: "رائع!".

قال بسّ رمادي وهو يتقدّم لمشاركته الطعام: "أفسح لي المجال إذاً".

بينما تشارك المبتدئان الفأر، راحا يصغيان إلى الحديث الذي تبادله كبار السنّ.

سأل شمشوم: "كم سيمضي من الوقت قبل أن تعيّن نجمة الصباح نائباً جديداً؟".

ماءت عوراء قائلة: "ماذا قلت يا شمشوم؟".

أجابها شمشوم بنفاد صبر: "أعتقد أنّ سمعك أصبح أسوأ من بصرك! قلت كم سيمضي من الوقت قبل أن تعيّن نجمة الصباح نائباً جديداً؟".

تجاهلت عوراء جواب شمشوم الغاضب وتكلّمت عوضاً عن ذلك مع الهرّة الأخرى. "هل تذكرين اليوم الذي عُيّنت فيه نجمة الصباح نائبة يا فراء الكستناء، وذلك منذ زمن بعيد؟".

ماءت فراء الكستناء بجدّية: "آه أجل! حدث ذلك بعد مدّة قصيرة من خسارتها لصغارها".

قال شمشوم: "لن تكون مسرورة باضطرارها إلى تعيين نائب جديد. فقد احتلّ ذيل الأرجوان هذا المنصب لمدّة طويلة وأدّى مهامه على أحسن وجه. مع ذلك، عليها اتّخاذ قرار بسرعة. فبحسب أعراف العشيرة، ينبغي اتّخاذ القرار قبل علوّ القمر في الليلة التالية لوفاة النائب".

قال الذيل الأبتر: "هذه المرّة على الأقلّ الخيار بديهي".

رفع بسّ النار رأسه ونظر حوله. من يمكن أن يكون الهرّ الذي يقصده الذيل الأبتر؟ فبالنسبة إلى بسّ النار، كلّ المحاربين يستحقّون هذا المنصب. ربّما كان يعني النمر الشرس، ففي النهاية هو الذي انتقم لموت ذيل الأرجوان.

كان النمر الشرس جالساً على مسافة غير بعيدة، وقد وجّه أذنيه نحو الحديث الدائر بين كبار السنّ.

مدّ بسّ النار لسانه ليلعق آخر آثار الفأر عن شاربيه. في تلك اللحظة، تناهى إليه صوت نجمة الصباح من على الصخرة العالية. كانت جثّة ذيل الأرجوان ما زالت ممدّدة في الفسحة في الأسفل، وبدت رمادية شاحبة في الضوء الخافت. قالت: "ينبغي لنا تعيين نائب جديد. لكن أوّلاً، لنوجّه شكرنا إلى عشيرة النجوم على حياة ذيل الأرجوان. هذه الليلة، سيجلس مع رفاقه المحاربين بين النجوم".

خيّم الصمت ونظرت كلّ القطط إلى السماء التي بدأت تظلم بينما كان الليل يسدل ستاره على الغابة.

تابعت نجمة الصباح: "والآن، سأعلن اسم النائب الجديد لعشيرة الرعد. أقول هذا الكلام أمام جثّة ذيل الأرجوان لكي تسمع روحه وتوافق على خياري".

نظر بسّ النار إلى النمر الشرس، ولم يخفَ عليه النهم الذي بدا في عيني المحارب الضخم العنبريتين وهو يحدّق إلى الصخرة العالية.

قالت نجمة الصباح: "قلب الأسد سيكون نائب العشيرة الجديد".

شعر بسّ النار بالفضول لمعرفة ردّ فعل النمر الشرس، لكنّ وجه المحارب الأسمر لم يكشف شيئاً ممّا يجول في خاطره، بل تقدّم لتهنئة قلب الأسد بدفعة رأس صادرة من أعماق قلبه بحيث اختلّ توازن الهرّ الذهبي.

همس بسّ النار متسائلاً: "لماذا لم يقع اختيارها على النمر الشرس؟".

تمتم بسّ رمادي من دون أن يحوّل نظره عن نجمة الصباح: "ربّما لأنّ قلب الأسد محارب منذ مدّة أطول، ويملك خبرة أكبر بكثير".

تحدّثت نجمة الصباح من جديد: "كان ذيل الأرجوان أيضاً مدرّب الشابّ بسّ أغبر. وبما أنّه لا ينبغي تأخير تدريب مبتدئينا، فإنّني سأعيّن مدرّباً جديداً لبسّ أغبر فوراً. أيّها النمر الأسود، بما أنّك أصبحت جاهزاً لتولّي مهام المدرّب، ستتابع تدريب بسّ أغبر. لقد خضعتَ لتدريب رائع على يد النمر الشرس، وأتوقّع منك أن تنقل إلى تلميذك بعضاً من المهارات الممتازة التي اكتسبتَها".

نفش المحارب فراءه فخراً وهو يعلن قبوله لتلك المهمّة بهزّة رأس مهيبة. اقترب من بسّ

أغبر، وخفض رأسه، ثمّ لامس أنفه بأنف تلميذه الجديد على نحو أخرق بعض الشيء. حرّك بسّ أغبر ذيله باحترام، لكنّ الحزن ظلّ مخيّماً على عينيه.

ارتفع صوت نجمة الصباح من جديد: "سأسهر مع جثّة ذيل الأرجوان هذه الليلة قبل أن ندفنه عند شروق الشمس". ثمّ قفزت عن الصخرة العالية واقتربت لتتمدّد بقرب جثّة ذيل الأرجوان مرّة أخرى. انضمّ إليها عدد كبير من القطط الأخرى، ومن بينهم بسّ أغبر وشمشوم.

اقترح بسّ النار قائلاً: "ألن نجلس معهم نحن أيضاً؟". عليه أن يقرّ أنّ الفكرة لا تعجبه كثيراً، فقد كان يومه حافلاً، وقد بدأ يشعر بالتعب. كلّ ما أراده هو إيجاد بقعة دافئة وجافة يتكوّر وينام فيها.

هزّ بسّ رمادي رأسه نافياً. "كلّا، وحدهم الأشخاص الأقرب إلى ذيل الأرجوان يشاركونه ليلته الأخيرة بيننا. سأريك أين تنام، فوكر المبتدئين يقع هنا".

تبع بسّ النار صديقه الجديد إلى أجمة كثيفة من نبات الخنشار تقع خلف قرم شجرة مكسوّ بالطحالب.

قال بسّ رمادي: "يتشارك كلّ المبتدئين صيدهم بجانب هذا الجذع المقطوع".

سأله بسّ النار: "وكم عدد المبتدئين؟".

"ليس كبيراً كما كان في العادة؛ وحدنا أنا، وأنت، وبسّ أدهم، وبسّ أغبر، وبسّة الرمال".

عندما استقرّ بسّ رمادي وبسّ النار بجانب الجذع، خرجت هرّة شابّة من تحت نبات الخنشار. كان فراؤها عنبري اللون مثل فراء بسّ النار، لكنّه أفتح، مع خطوط أدكن لكنّها مرئيّة بالكاد.

ماءت وهي تنظر إلى بسّ النار: "أنت إذاً المبتدئ الجديد!".

قال بسّ النار: "مرحباً".

اشتمّت الهرّة الهواء وقالت بفظاظة: "رائحته كرائحة بسبوس أليف! لا تقل لي إنّني سأشارك وكري مع هرّ بهذه الرائحة المقزّزة!".

فوجئ بسّ النار. فمنذ عراكه مع النمر الذيّال، عاملته كلّ القطط بمودّة، فاعتقد أنّ الخبر الذي أتى به بسّ أدهم ألهاهم عنه.

قال بسّ رمادي: "اعذر بسّة الرمال. أعتقد أنّها تعاني من خطب ما، فهي ليست بهذا المزاج السيّئ عادة".

هسّت بسّة الرمال مهدّدة.

في تلك اللحظة، ارتفع صوت الرعب الأبيض خلفهما. "مهلاً يا الشباب. بسّة الرمال! بصفتك تلميذتي توقّعت أن تبدي ترحيباً أكبر بهذا القادم الجديد".

رفعت بسّة الرمال رأسها ونظرت بتحدٍّ. خرخرت من دون أن يبدو عليها أيّ أسف: "أنا آسفة أيّها الرعب الأبيض، غير أنّني لم أتوقّع أن أتدرّب مع بسبوس أليف، هذا كلّ شيء!".

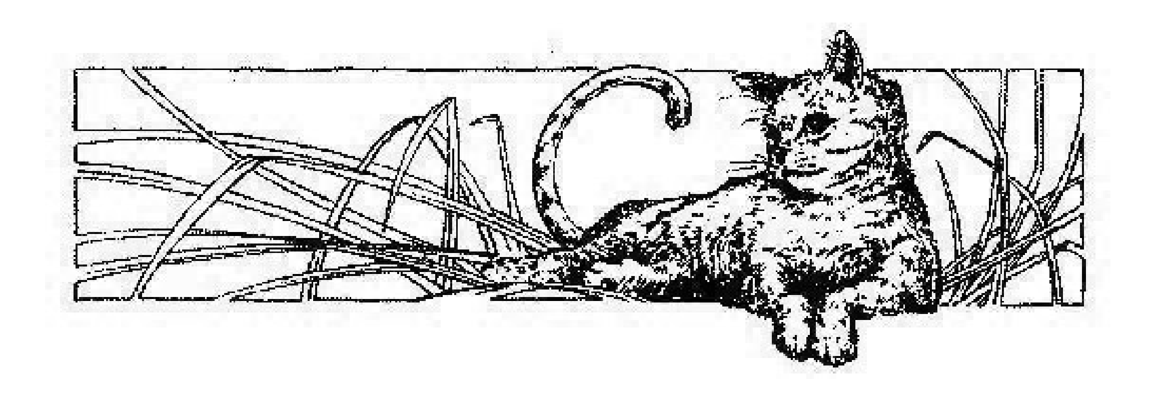
قال الرعب الأبيض بهدوء: "أنا واثق أنّك ستعتادين على ذلك. والآن، لقد تأخّر الوقت والتدريب يبدأ باكراً غداً. عليكم أنتم الثلاثة أن تأخذوا قسطاً من النوم". ألقى على بسّة الرمال نظرة جادّة، فهزّت رأسها بإذعان. وبينما ابتعد، استدارت واختفت في أجمة النباتات وهي تشتمّ الهواء أثناء مرورها أمام بسّ النار.

دعا بسّ رمادي بسّ النار بهزّة من ذيله ليتبعه، وقاده خلف بسّة الرمال. داخل المكان المخصّص للنوم كانت الأرض مكسوّة بالطحالب الناعمة، بينما ألقى ضوء القمر ظلالاً خضراء على كلّ شيء. كان الهواء عابقاً برائحة الخنشار وأكثر دفئاً من الخارج.

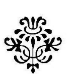
سأل بسّ النار: "أين أنام؟".

أجابت بسّة الرمال بنبرة حادّة وهي تمهّد بعض الطحالب بكفّها: "أينما تشاء شرط أن يكون بعيداً عنّي!".

تبادل بسّ رمادي وبسّ النار النظرات، لكنّهما لزما الصمت. مهّد بسّ النار كومة من الطحالب بمخالبه. وعندما حوّل سريره إلى فراش مريح، تكوّر في وضعية مريحة لينام. شعر بالرضى يغمر جسده، فقد أصبح هذا المكان منزله الآن. بات ينتمي إلى عشيرة الرعد.



الفصل 5



"بسّ النار، استيقظ!". اختلط مواء بسّ رمادي بحلم بسّ النار. كان يطارد سنجاباً إلى أعالي شجرة سنديان طويلة.

أضاف بسّ رمادي بإلحاح: "يبدأ التدريب عند شروق الشمس، وقد استيقظ بسّ أغبر وبسّة الرمال أساساً".

تمطّى بسّ النار بكسل، ثمّ تذكّر. اليوم هو يوم التدريب الأوّل. هبّ واقفاً وتبدّد نعاسه بفعل الحماسة التي اجتاحت جسده.

كان بسّ رمادي ينظّف نفسه بسرعة. توقّف قليلاً عن لعق فراءه وقال: "تحدّثت للتوّ مع قلب الأسد وعرفت أنّ بسّ أدهم لن يتدرّب معنا إلى أن يتعافى من جروحه. سيبقى على الأرجح في وكر الورقة الرقطاء ليوم أو يومين آخرين. أمّا بسّ أغبر وبسّة الرمال فذهبا في مهمّة صيد. لذلك قرّر قلب الأسد أن نتدرّب معه ومع النمر الشرس هذا الصباح. لكن علينا أن نسرع، فهما بانتظارنا!".

قاد بسّ رمادي بسّ النار بسرعة عبر مدخل المخيّم، وصعدا سفح الوادي الذي تتخلّله الصخور. عندما وصلا إلى القمّة، تخلّل النسيم البارد فراءهما. تسارعت سحب بيضاء كثيفة عبر السماء الزرقاء، وأحسّ بسّ النار بفرح عارم يسيطر عليه وهو يتبع بسّ رمادي عبر منحدر تظلّله الأشجار، إلى أن وصلا إلى غور رملي.

وجدا النمر الشرس وقلب الأسد بانتظارهما فعلاً، جالسَين على مسافة بضعة أذيال من بعضهما على الرمال الدافئة.

زمجر النمر الشرس: "من الآن فصاعداً، أتوقّع منكما أن تلتزما بالموعد".

قال قلب الأسد بلطف: "لا تكن قاسياً جدّاً أيّها النمر الشرس، فقد كانت الليلة الماضية حافلة بالأحداث وأنا واثق أنّهما متعبين. لم يتمّ تعيين مدرّب لك يا بسّ النار، لذلك سنتولّى أنا والنمر الشرس تدريبك حاليّاً".

هزّ بسّ النار رأسه بحماسة ورفع ذيله عالياً، غير قادر على إخفاء سعادته بالتدرّب على أيدي محاربين عظيمَين مثلهما.

ماء النمر الشرس بنفاد صبر: "تعاليا، سنريكما اليوم حدود أراضينا حتّى يتسنّى لكما معرفة الأماكن التي يمكنكما الصيد فيها والحدود التي تحتاج إلى الحماية. وأنت يا بسّ رمادي، لن يضرّك تذكّر حدود أراضي العشيرة".

على ذلك، قفز النمر الشرس وخرج من الغور الرملي. هزّ قلب الأسد رأسه لرماد وانطلقا بالسرعة نفسها. فأسرع بسّ النار للحاق بهم، وراحت أكفّه تنزلق على الرمال الناعمة.

كانت الأشجار كثيفة في هذا الجزء من الغابة، إذ علت أشجارَ البتولا والرماد أشجارُ السنديان الضخمة. وكانت الأرض مكسوّة بالأوراق المتساقطة اليابسة التي راحت تخشخش تحت أكفّهم. توقّف النمر الشرس وأطلق رذاذاً ليخلّف رائحته على أجمة كثيفة من الخنشار. فوقفت القطط الأخرى بجانبه.

تمتم قلب الأسد: "يوجد طريق لذوي الساقين هنا. استخدم أنفك يا بسّ النار، هل تستطيع اشتمام شيء؟".

اشتمّ بسّ النار، وأحسّ بوجود رائحة خفيفة لأحد ذوي الساقين ورائحة أقوى لكلب، وكانت مألوفة لديه في منزله القديم. "لقد نزّه أحد ذوي الساقين كلبه هنا، لكنّهما رحلا الآن".

قال قلب الأسد: "جيّد، هل تعتقد أنّ المكان آمن للعبور؟".

اشتمّ بسّ النار مجدّداً ووجد أنّ الروائح ضعيفة وقد اختلطت مع روائح الغابة الأكثر عذوبة، فأجاب: "أجل".

هزّ النمر الشرس رأسه موافقاً وخرجت القطط الأربعة من تحت النباتات، ثمّ اجتازت الطريق الضيّق المكسوّ بالحجارة الحادّة.

اصطفّت أمامهم أشجار الصنوبر. كانت طويلة ومستقيمة، صفّاً تلو آخر، وكان من السهل السير بهدوء هنا. فقد كانت الأرض مكسوّة بطبقة سميكة من الإبر الذابلة التي وجدها بسّ النار كالإسفنج تحت أكفّه. لم يكن ثمّة شجيرات منخفضة هنا للاختباء بينها، فأحسّ بسّ النار بتوتّر رفاقه وهم يسيرون من دون وقاية بين جذوع الأشجار.

ماء النمر الشرس: "ذوو الساقين هم الذين وضعوا هذه الأشجار هنا. يقطعونها بواسطة مخلوقات كريهة الرائحة، تصدر دخاناً قادراً على جعل قطّ صغير يصاب بالعمى. بعد ذلك، يأخذونها إلى منطقة الأشجار المقطوعة على مقربة من هنا".

توقّف بسّ النار وأصغى إلى هدير آكلة الشجر الذي سبق أن سمعه من قبل.

شرح له بسّ رمادي، الذي لاحظ أنّه توقّف: "ستبقى منطقة الأشجار المقطوعة صامتة لبضعة أشهر أخرى حتّى يحين فصل الحرّ".

تابعت القطط سيرها عبر غابة الصنوبر.

قال النمر الشرس وهو يشير بذيله إلى أحد الاتّجاهات: "تقع منطقة ذوي الساقين في هذا الاتّجاه. لا شكّ أنّك تشتمّ رائحتها يا بسّ النار. غير أنّنا اليوم سنسلك الاتّجاه الآخر".

وصلوا أخيراً إلى طريق آخر لذوي الساقين يحدّ الطرف الآخر لغابة الصنوبر. قطعوه بسرعة للاحتماء في أدغال غابات السنديان، لكنّ بسّ النار ظلّ يشعر بقلق القطط الأخرى.

همس بسّ رمادي: "نحن نقترب من أراضي عشيرة النهر، فالصخور المشمسة تقع هناك". وأشار بخطمه الناعم إلى تلّة من الصخور خالية من الأشجار.

أحسّ بسّ النار بقشعريرة تسري في جسده. فهذا هو المكان الذي قُتل فيه ذيل الأرجوان.

توقّف قلب الأسد عند صخرة رمادية مسطّحة. "هذا هو الحدّ الفاصل بين أراضي عشيرة الرعد وأراضي عشيرة النهر. فعشيرة النهر تحكم أراضي الصيد الواقعة بجانب النهر الكبير. خذ نفساً عميقاً يا بسّ النار".

أحسّ بسّ النار برائحة حادّة لقطط لا يعرفها، وفوجئ كم تختلف عن الروائح الدافئة لقطط مخيّم عشيرة الرعد. فوجئ أيضاً عندما أدرك كم بدت روائح عشيرة الرعد مألوفة ومريحة بالنسبة إليه منذ الآن.

قال النمر الشرس الواقف إلى جانبه: "تلك هي رائحة عشيرة النهر. تذكّرها جيّداً، فهي ستكون الأقوى عند الحدود لأنّ محاربي العشيرة حدّدوا برائحتهم الأشجار المنتشرة هنا". على ذلك، رفع الهرّ الأسمر ذيله وخلّف أثره على الصخرة المسطّحة.

قال قلب الأسد: "سنتبع هذا الخطّ الحدودي لأنّه يؤدّي مباشرة إلى الأشجار الأربع".

انطلق مسرعاً بعيداً عن الصخور المشمسة يتبعه النمر الشرس، بينما هرول بسّ رمادي وبسّ النار خلفهما.

سأل بسّ النار وهو يلهث: "ما هي الأشجار الأربع؟".

أجاب بسّ رمادي: "إنّه المكان الذي تجتمع فيه العشائر الأربع. إذ توجد هناك أربع أشجار سنديان ضخمة وقديمة بقِدَم عشائرنا...".

أمرهما النمر الشرس: "اصمتا! لا تنسيا أنّنا قريبون من أرض أعدائنا!".

صمت التلميذان وركّز بسّ النار على السير بهدوء. عبروا جدولاً ضحلاً وهم يقفزون من صخرة إلى أخرى لكي لا تبتلّ أكفّهم.

عندما وصلوا إلى الأشجار الأربع، كان بسّ النار يلهث بشدّة وأكفّه تؤلمه. فهو ليس معتاداً على التنقّل لمسافات بعيدة وبهذه السرعة، لذلك شعر بارتياح كبير عندما قادهما قلب الأسد والنمر الشرس إلى خارج الغابات الكثيفة وتوقّفا عند حافّة منحدَر تغطّيه الشجيرات.

كانت الشمس قد بلغت وسط السماء، وتبدّدت الغيوم وسكن الهواء. في الأسفل، في ضوء الشمس المبهر، ارتفعت أربع أشجار سنديان ضخمة ولامست قممها الخضراء الداكنة أعلى المنحدر الحادّ.

قال قلب الأسد لبسّ النار: "كما أخبرك بسّ رمادي، هذه هي الأشجار الأربع، نقطة التقاء أراضي العشائر الأربع. تسيطر عشيرة الرياح على المرتفعات الممتدّة أمامنا، والتي تغيب الشمس خلفها. لن تتمكّن اليوم من اشتمام رائحتهم لأنّ الرياح تهبّ باتّجاههم، لكنّك ستتعرّف عليهم قريباً".

أضاف بسّ رمادي وهو يميل برأسه جانباً: "وتحكم عشيرة الظلال ذلك الجزء الأكثر ظلمة من الغابة. يقول كبار العشيرة إنّ الرياح الباردة تهبّ من الشمال على قطط عشيرة الظلال وتجمّد قلوبها".

هتف بسّ النار: "كلّ هذه العشائر!". وفكّر بصمت، كم هي منظَّمة، ثمّ تذكّر حكايات زعتر المخيفة عن القطط البرّية التي تبثّ الرعب في الغابة.

ماء قلب الأسد قائلاً: "أصبحت تعرف الآن لماذا تُعتبر الفرائس ثمينة جدّاً، ولماذا يجب علينا أن نقاتل لحماية القليل الذي نملكه".

قال بسّ النار بجرأة: "لكنّ هذا جنون! لماذا لا تتعاون العشائر وتتقاسم أراضي الصيد الخاصّة بكلّ منها عوضاً عن قتال بعضها البعض؟".

خيّم الصمت والصدمة على وقع كلماته.

كان النمر الشرس أوّل من أجاب. قال بنبرة لاذعة: "هذا التفكير يتّسم بالخيانة، أيّها البسبوس الأليف".

حذّره قلب الأسد: "لا تكن بالغ القسوة أيّها النمر الشرس، فعادات العشائر ما زالت جديدة على هذا المبتدئ". نظر إلى بسّ النار وأضاف: "أنت تتحدّث من قلبك أيّها الشابّ، وهذا سيجعل منك محارباً قوياً يوماً ما".

زمجر النمر الشرس قائلاً: "أو يجعله يستسلم لضعف البسبوس الأليف في لحظة الهجوم".

ألقى قلب الأسد نظرة خاطفة على النمر الشرس قبل أن يتابع: "إنّ العشائر الأربع تجتمع

فعلاً بسلام مرّة كلّ شهر. هذا" – أمال رأسه باتّجاه أشجار السنديان الأربع الضخمة في الأسفل – "هو المكان الذي تجتمع فيه. وتدوم الهدنة ما دام القمر بدراً".

قال بسّ النار وهو يتذكّر كم كان ضوء القمر ساطعاً في الليلة الماضية: "هذا يعني أنّه ثمّة اجتماع قريب".

أجاب قلب الأسد بإعجاب: "بالفعل! هذه الليلة، في الواقع. فهذه الاجتماعات مهمّة جدّاً لأنّها تتيح للعشائر الاختلاط بسلام لليلة واحدة. لكن عليك أن تفهم أنّ التحالفات الأطول أمداً تجلب من المشاكل أكثر ممّا تستحقّ".

وافقه النمر الشرس قائلاً: "إنّ ولاءنا للعشيرة هو الذي يمنحنا القوّة. وإن ضعف ذلك الولاء، تضعف فرص بقائنا على قيد الحياة".

هزّ بسّ النار رأسه موافقاً. "فهمت".

قال قلب الأسد وهو يقف: "هيّا، لنتابع السير".

مشوا على طول حافّة الوادي الذي يضمّ الأشجار الأربع. خلفهم، بدأت الشمس تنخفض في السماء. عبروا الجدول عند نقطة ضيّقة واجتازوه بقفزة واحدة.

اشتمّ بسّ النار الهواء، فلامست غدد أنفه رائحة قوية وحادّة لقطط جديدة. سأل: "أيّ عشيرة هذه؟".

أجابه النمر الشرس بتجهّم: "عشيرة الظلال، فنحن نسير على حدود أراضيها. كن حذراً يا بسّ النار، فالروائح الحديثة تشير إلى وجود دورية لعشيرة الظلال في الجوار".

هزّ بسّ النار رأسه، وفي تلك اللحظة، سمع صوتاً جديداً. تصلّب في مكانه، لكنّ القطط الأخرى تابعت سيرها متّجهة مباشرة نحو الصوت الهادر الذي أخافه.

سألهم وهو يسرع ليلحق بهم: "ما هذا؟".

أجابه قلب الأسد: "ستعرف حالاً".

حدّق بسّ النار إلى الأشجار أمامه. بدت له أقلّ كثافة، إذ تخلّلتها أشعّة الشمس الساطعة. سألهم: "هل نحن عند أطراف الغابة؟". ثمّ توقّف وأخذ نفساً عميقاً. كانت أجواء الغابة الخضراء عابقة بروائح غريبة وغامضة. ولم تكن هذه المرّة روائح قطط، بل ذكّرته بمنزله القديم. أخذ الهدير المتواصل يزداد قوّة، مسبّباً اهتزاز الأرض تحت أكفّهم وألماً في أذني بسّ النار.

قال النمر الشرس: "هذا هو درب الرعد".

تقدّم بسّ النار خلفهم بينما قادهم قلب الأسد إلى أطراف الغابة. أخيراً جلس وراحت القطط الأربعة تتأمّل المشهد.

استطاع بسّ النار رؤية طريق رمادي اللون يشبه النهر، يمتدّ عبر الغابة. امتدّ الطريق الرمادي الحجري الصلب أمامهم لمسافة بعيدة، وبدت الأشجار من الجانب الآخر ضبابية اللون وصغيرة. ارتعد بسّ النار بسبب الرائحة الحادّة التي تصاعدت منه.

فجأة قفز إلى الخلف، واقشعرّ جسمه مع مرور وحش عملاق وهو يهدر. راحت أغصان الأشجار من الجانبين تلوح بجنون بفعل الرياح التي هبّت مع مرور ذلك الوحش المسرع. حدّق بسّ النار إلى القطط الأخرى بذهول وعجز عن الكلام. كان قد سبق أن رأى طُرقات مثل هذه قرب منزله القديم لدى ذوي الساقين، لكن لم تكن أبداً بهذه المساحة، ولم تكن تسير عليها وحوش بهذه السرعة والشراسة.

قال بسّ رمادي: "لقد ذعرت أوّل مرّة رأيتها، لكنّها تساعد على الأقلّ على منع محاربي عشيرة الظلال من العبور إلى أراضينا. يمتدّ درب الرعد لمسافة خطوات عديدة على طول حدودنا. لكن لا تقلق، إذ يبدو أنّ هذه الوحوش لا تغادر الطريق أبداً. بالتالي ستكون على ما يرام ما لم تقترب منها".

قال قلب الأسد: "حان وقت العودة إلى المخيّم. لقد تعرّفت على كلّ حدودنا الآن، لكنّنا سنتجنّب صخور الأفاعي، مع أنّ الطريق الذي سنسلكه أطول. فالقطط غير المدرّبة تشكّل فريسة سهلة للأفاعي، وأعتقد أنّك بدأت تتعب يا بسّ النار".

شعر بسّ النار رغماً عنه بالارتياح لفكرة العودة إلى المخيّم. فقد بدأ رأسه يدور مع جميع الروائح والمشاهد الجديدة، وكان قلب الأسد على حقّ، فهو متعب وجائع. مشى خلف بسّ رمادي بينما استدارت القطط تاركة درب الرعد خلفها وعادت إلى الغابة.

ملأت الروائح الندية هواء المساء بينما كان بسّ النار يشقّ طريقه عبر مدخل المخيّم. كان الصيد الطازج بانتظارهم. أخذ بسّ النار وبسّ رمادي حصّتهما من الكومة الملقاة في جزء ظليل من الفسحة وحملاها إلى جذع الشجرة خارج مسكنهما.

كان بسّ أغبر وبسّة الرمال هناك، يمضغان طعامهما بنهم.

قال بسّ أغبر وهو ينظر بازدراء إلى بسّ النار: "مرحباً، أيّها البسبوس الأليف. استمتع بالطعام الذي اصطدناه لك".

"من يدري، قد تتعلّم يوماً اصطياد طعامك بنفسك!".

سأل بسّ رمادي ببراءة: "أما زلتما في مهمّة صيد أنتما الاثنان؟ لا يهمّ،كنّا في دورية مراقبة لحدود أراضينا. سيسرّكما أن تعرفا أنّ كلّ شيء على ما يرام".

قال بسّ أغبر ساخراً: "أنا واثق أنّ القطط الأخرى شعرت بالرعب عندما اشتمّت رائحتيكما!".

أجاب بسّ رمادي بعدما أصبح عاجزاً عن إخفاء غضبه: "حتّى إنّ أيّاً منهم لم يتجرّ

على الظهور أمامنا".

قالت بسّة الرمال: "حسناً، سنسألهم اليوم عندما نراهم في اجتماع العشائر".

سألهما بسّ النار، وقد شعر بالحماسة على الرغم من عدائية زميليه: "وهل أنتما ذاهبان؟".

أجاب بسّ أغبر بتعالٍ: "بالطبع، إنّه شرف عظيم كما تعلم. لكن لا تقلق، سنخبرك بما جرى في الصباح".

تجاهل بسّ رمادي بهجة بسّ أغبر وبدأ يأكل طعامه. كان بسّ النار جائعاً هو الآخر، فربض يأكل. لم يستطع أن يقاوم شعوره بالحسد لأنّ بسّ أغبر وبسّة الرمال ذاهبان للقاء العشائر الأخرى هذه الليلة.

ارتفع نداء نجمة الصباح فنظر بسّ النار إلى الأعلى. شاهد عدداً من محاربي العشيرة والمسنّين يجتمعون في الفسحة. لقد حان وقت انطلاق فريق العشيرة إلى الاجتماع. فقفز بسّ أغبر وبسّة الرمال وبدءا يهرولان للانضمام إلى القطط الأخرى.

قالت بسّة الرمال من فوق كتفها: "إلى اللقاء أنتما الاثنان. أتمنّى لكما أمسية لطيفة وهادئة!".

خرجت القطط المجتمعة من مدخل المخيّم معاً، وعلى رأسها نجمة الصباح. ومض فراؤها كالفضّة في ضوء القمر، وبدت هادئة وواثقة وهي تتقدّم عشيرتها إلى الهدنة القصيرة بين الأعداء القدامى.

سأل بسّ النار بسّ رمادي بحزن: "هل سبق لك أن حضرت اجتماعاً للعشائر؟".

أجاب بسّ رمادي وهو يطحن عظام فأرة مصدراً صوتاً عالياً: "ليس بعد، لكن سيحين الوقت قريباً، وما عليك سوى الانتظار. فكلّ المبتدئين يذهبون في وقت ما".

أنهى المبتدئان وجبتهما بصمت. بعد ذلك، اقترب بسّ رمادي من بسّ النار وبدأ ينظّف له رأسه. نظّفا نفسيهما معاً وتجاذبا الألسنة مثلما رأى بسّ النار القطط الأخرى تفعل عند وصوله. وحين استبدّ بهما التعب بعد رحلتهما الطويلة، دخلا إلى وكرهما. استقرّا هناك وسرعان ما استغرقا في النوم.

في صباح اليوم التالي، وصل بسّ رمادي وبسّ النار باكراً إلى الغور الرملي. تسلّلا خارجاً قبل استيقاظ بسّة الرمال وبسّ أغبر. كان بسّ النار توّاقاً لسماع أخبار الاجتماع، لكنّ بسّ رمادي جرّه بعيداً وهو يقول: "ستعرف كلّ شيء عن ذلك لاحقاً، فأنا أعرف جيّداً هذين الاثنين".

كانت السماء الصافية تعد بيوم دافئ آخر. وهذه المرّة، انضمّ إليهما بسّ أدهم. فبفضل جهود الورقة الرقطاء، كان جرحه يتعافى بسرعة.

أخذ بسّ رمادي يلعب، يدفع الأوراق في الهواء ويقفز خلفها. شاهده بسّ النار وبدأ يحرّك ذيله مستمتعاً. أمّا بسّ أدهم، فجلس جانباً بهدوء وبدا عليه التوتّر والكآبة.

هتف بسّ رمادي: "ابتسم يا بسّ أدهم! أعرف أنّك لا تحبّ التدريب، لكنّك لا تبدو بهذا البؤس عادة!".

أنذرت رائحتا قلب الأسد والنمر الشرس المبتدئين باقترابهما، فماء بسّ أدهم بسرعة: "أعتقد أنّني قلق بعض الشيء خشية أن يعاودني ألم كتفي".

في تلك اللحظة، خرج النمر الشرس من بين الشجيرات، يتبعه قلب الأسد عن قرب.

قال النمر الشرس: "على المحاربين أن يتحمّلوا ألمهم بصمت". ثمّ نظر إلى عيني بسّ أدهم مباشرة وأضاف: "عليك أن تتعلّم كيف تمسك لسانك".

أجفل بسّ أدهم وخفض بصره إلى الأرض، بينما همس بسّ رمادي في أذن بسّ النار: "يبدو أنّ مزاج النمر الشرس عكر اليوم".

نظر قلب الأسد إلى تلميذه بجدّية وأعلن قائلاً: "سنتدرّب اليوم على المطاردة. فثمّة فرق كبير بين الزحف لاصطياد أرنب والزحف لاصطياد فأر. هل يعرف أيّ منكم السبب؟".

لم تكن لدى بسّ النار أدنى فكرة، وبدا أنّ بسّ أدهم أخذ أمر النمر الشرس على محمل الجدّ وأمسك لسانه تماماً.

حثّهم النمر الشرس: "هيّا!".

كان بسّ رمادي هو الذي أجاب: "لأنّ الأرنب يشتمّ رائحتك قبل أن يراك، أمّا الفأر فيشعر بوقع خطواتك على الأرض قبل أن يشتمّ رائحتك حتّى".

"هذا صحيح يا بسّ رمادي! ما الذي يجب أن تتذكّره إذاً عندما تصطاد فأراً؟".

قال بسّ النار: "أن أمشي بخفّة؟".

نظر إليه قلب الأسد باستحسان وقال: "بالضبط يا بسّ النار. عليك أن تنقل كلّ وزنك إلى وركيك لكي لا تُحدِث خطواتك وقعاً ثقيلاً على أرض الغابة. فلنجرّب!".

شاهد بسّ النار كيف انحنى كلّ من بسّ رمادي وبسّ أدهم على الفور واتّخذا وضعية المطاردة.

قال قلب الأسد بينما راح المبتدئان يتقدّمان إلى الأمام خلسة: "ممتاز يا بسّ رمادي!".

قال النمر الشرس بنبرة آمرة: "أبقِ مؤخّرتك منخفضة يا بسّ أدهم، فأنت تبدو مثل البطّة! والآن حان دورك يا بسّ النار".

جثم بسّ النار وبدأ يزحف على أرض الغابة. شعر أنّه اتّخذ بشكل غريزي الوضعية الصحيحة. وبينما أخذ يتقدّم إلى الأمام بصمت وخفّة قدر الإمكان، أحسّ بالفخر لأنّ عضلاته تجاوبت معه بسلاسة.

زمجر النمر الشرس قائلاً: "من الواضح أنّك لم تعرف شيئاً سوى النعومة! فأنت تطارد مثل بسبوس أليف أخرق! هل تظنّ أنّ العشاء سيأتي ويستلقي في طبقك بانتظار أن تأكله؟".

جلس بسّ النار بسرعة بينما كان النمر الشرس يتحدّث وقد فاجأه كلامه القاسي. أصغى جيّداً إلى المحارب، عازماً على فعل كلّ شيء بالطريقة الصحيحة.

أشار قلب الأسد بلطف: "ستتحسّن مشيته وحركته لاحقاً، لكنّ وضعيته متوازنة تماماً".

تذمّر النمر الشرس قائلاً: "الأمر الذي يجعله أفضل من بسّ أدهم، على ما أعتقد". وألقى نظرة ازدراء على القطّ الأسود مضيفاً: "حتّى بعد شهرين من التدريب ما زلتَ تضع كلّ ثقلك على جنبك الأيسر".

تضاعف اكتئاب بسّ أدهم، ولم يستطع بسّ النار منع نفسه من القول: "جرحه يزعجه، هذا كلّ شيء!".

التفت النمر الشرس وحدّق إلى بسّ النار بقسوة. "الجراح هي جزء من الحياة، وعليه أن يتعلّم التكيّف معها. حتّى أنت يا بسّ النار تعلّمت أمراً هذا الصباح. ولو أنّ بسّ أدهم يلتقط الدروس بسرعة مثلك، لتحوّل إلى فخر لي وليس إلى مصدر إحراج". ثمّ صرخ غاضباً في وجه تلميذه: "تخيّل أنّ بسبوساً أليفاً يتفوّق عليك!".

شعر بسّ النار بوخز انزعاج يجتاح جسده. لم يستطع النظر إلى عيني بسّ أدهم، لذلك خفض بصره إلى أكفّه.

قام بسّ رمادي من وضعيّة المطاردة وراح يتجوّل على نحو هزلي في أنحاء الفسحة قائلاً: "حسناً، أنا أخرق أكثر من حيوان بساق واحدة. أعتقد أنّني مضطرّ للاكتفاء باصطياد الفئران الغبية، فهي لن تتمكّن من الفرار منّي. ما عليّ سوى الوصول إليها والجلوس عليها حتّى تستسلم".

قال قلب الأسد بجدّية: "ركّز أيّها الشابّ، فالوقت ليس وقت مزاح! ربما استطعتَ التركيز بشكل أفضل إن مارستَ قدراتك على المطاردة".

نظر المبتدئون الثلاثة إلى الأعلى بفرح.

قال قلب الأسد: "أريد أن يحاول كلّ منكم اصطياد فريسة حقيقية. بسّ أدهم، ابحث بجانب شجرة البوم. وأنت يا بسّ رمادي، قد تجد شيئاً بين نباتات العلّيق الكثيفة هناك. أمّا أنت يا بسّ النار، فاتبع طريق الأرانب عند تلك الهضبة. ستجد جدولاً شتوياً جافّاً، وقد تعثر على شيء هناك".

انطلق الثلاثة، وحتّى بسّ أدهم شعر بطاقة إضافيّة أمام هذا التحدّي.

كان الدم يضجّ في أذني بسّ النار وهو يزحف ببطء فوق الهضبة. وجد بالفعل جدولاً جافّاً بين الأشجار أمامه. خمّن أنّه في فصل الرياح تتدفّق مياه المطر عبره وصولاً إلى النهر الذي يمرّ في أراضي عشيرة النهر، إلّا أنّه جافّ الآن.

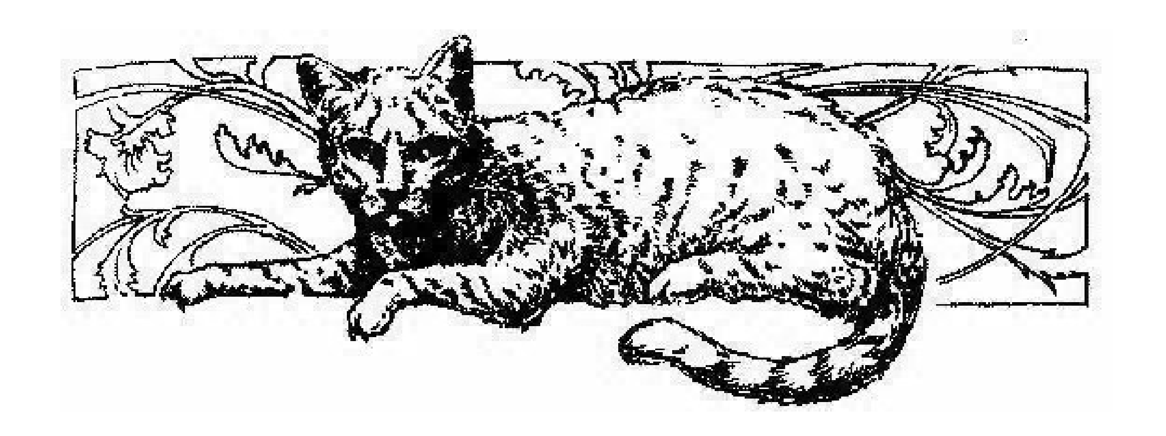
تقدّم بسّ النار بصمت على الضفّة وجثم على الأرض الرملية. شعر أنّ كلّ حواسه متوتّرة. راح يتفحّص الجدول الجاف بصمت بحثاً عن آثار حياة. ترقّب أيّ حركة صغيرة، وفتح فمه لالتقاط أدنى رائحة، بينما وجّه أذنيه إلى الأمام.

فجأة، اشتمّ رائحة فأر. عرف الرائحة على الفور، وتذكّر طعمه الذي تذوّقه للمرّة الأولى في الليلة الفائتة. ضجّ جسده بالطاقة، لكنّه ظلّ ساكناً محاولاً تحديد مكان الفريسة.

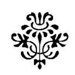
شدّ أذنيه إلى الأمام إلى أن سمع النبض السريع لقلب فأر صغير. أخيراً لمح وميضاً بنّي اللون. كان المخلوق الصغير يتحرّك بين الأعشاب الطويلة التي تحيط بضفاف الجدول. اقترب بسّ النار، وتذكّر أنّ عليه إبقاء وزنه على وركيه إلى أن يصبح على مسافة تسمح له باصطياد الفأر. أخيراً، ضغط بقوّة على أكفّه الخلفية وانطلق مسرعاً بينما تطايرت الرمال خلفه.

فرّ الفأر هارباً، لكنّ بسّ النار كان أسرع. فقد حمله في الهواء بكفّ واحدة ورماه في قعر الجدول الرملي ورمى بنفسه عليه ثمّ قتله بسرعة بعضّة حادّة واحدة.

حمل بسّ النار الجثّة الدافئة بعناية بين أسنانه وعاد رافعاً ذيله عالياً إلى الغور حيث ينتظره النمر الشرس وقلب الأسد. لقد اصطاد أوّل طريدة له. أصبح الآن مبتدئاً حقيقياً في عشيرة الرعد.



الفصل 6



تسلّلت أشعّة شمس الصباح الباكر لتضيء أرض الغابة بينما كان بسّ النار يتجوّل بحثاً عن طريدة. مرّ شهران منذ أن بدأ تدريبه، وبات يشعر بالارتياح في محيطه. فقد استيقظت حواسه وتدرّبت على عادات الغابة.

توقّف بسّ النار لاشتمام الأرض وما يتحرّك فيها. فالتقط رائحة أحد ذوي الساقين الذين تجوّلوا في الغابة مؤخّراً. مع حلول فصل الحرّ، أصبحت الأغصان مثقلة بأوراق الشجر بينما ضجّت الأرض بحركة مخلوقات دقيقة جدّاً تحت بساط من النباتات الرطبة.

بدا بسّ النار رشيقاً وقوياً وهو يتنقّل بصمت بين الأشجار. كانت كلّ حواسه متنبّهة لالتقاط الرائحة التي ستقوده إلى فريسته. فهذه أوّل مهمّة له بمفرده، وهو مصمّم على أن يبرع فيها حتّى وإن اقتصرت على إحضار صيد للعشيرة.

توجّه نحو الجدول الذي عبره في أوّل جولة له في أراضي الصيد المخصّصة لعشيرة الرعد. كانت المياه تتدفّق فيه بغزارة وهي تنحدر فوق الحصى الناعمة المستديرة. توقّف قليلاً ليلعق شيئاً من الماء العذب البارد، ثمّ رفع رأسه واشتمّ الهواء مجدّداً بحثاً عن رائحة فريسة.

كان الهواء هنا عابقاً برائحة ثعلب حادّة. وأنبأته الرائحة اللاذعة أنّ الثعلب أتى من هنا في وقت سابق من هذا اليوم. عرف بسّ النار الرائحة لأنّه اشتمّها في أوّل زيارة له إلى الغابة. في ذلك اليوم، علّمه قلب الأسد أنّ هذه الرائحة تعود إلى ثعلب، لكنّه لم يرَ بعد ثعلباً فعلياً باستثناء لمحة لذيله خلال تلك الجولة الأولى.

كافح لتمييز رائحة الثعلب والتركيز على رائحة الطريدة. فجأة اهتزّ شارباه عندما رصد نبض فريسة؛ كان فأر ماء يتجوّل حول عشّه.

سرعان ما رأى الفأر. كان المخلوق البنّي السمين يروح ويجيء على ضفّة الجدول يجمع الأعواد. فسال لعاب بسّ النار ترقّباً. كان قد تناول وجبته الأخيرة قبل ساعات عديدة، لكنّه لم يجرؤ على اصطياد شيء لنفسه قبل إطعام العشيرة. تذكّر الكلمات التي كرّرها قلب الأسد والنمر الشرس مراراً: "ينبغي إطعام العشيرة أوّلاً".

جثم بسّ النار، ثمّ بدأ يقترب من المخلوق الصغير واحتكّ فراء بطنه البرتقالي بالعشب الرطب. اقترب أكثر، من دون أن يبعد نظره عن فريسته. لقد أوشك على الوصول إليه، وبعد لحظة سيصبح قريباً بما فيه الكفاية لينقضّ عليه...

فجأة تحرّكت نباتات الخنشار خلفه مصدرة صوت حفيف عالٍ. فانتفضت أذنا فأر الماء وسرعان ما اختفى في جحر في الضفّة.

اقشعرّ جسد بسّ النار. أيّاً يكن من أفسد فرصته الأولى الجيّدة لاصطياد الفريسة سيدفع الثمن. اشتمّ الهواء وعرف أنّه هرّ لكنّه أدرك مجفلاً أنّه لم يستطع تحديد العشيرة التي ينتمي إليها لأنّ رائحة الثعلب ما زالت تربك حاسة شمّه.

بدأت زمجرة غضب تتصاعد من حلقه وهو يستدير عائداً في دائرة واسعة. رفع أذنيه وفتح عينيه لرصد أيّ حركة. سمع الخشخشة مجدّداً، وكانت أعلى وصادرة من جهة واحدة. اقترب بسّ النار ورأى النباتات تتحرّك، لكنّ أغصانها ما زالت تحجب العدوّ عن الرؤية. تكسّر غصن محدثاً صوتاً قوياً، ففكّر أنّ الحيوان كبير الحجم بلا ريب نظراً للصوت الذي يحدثه، واستعدّ لمعركة شرسة.

قفز على جذع شجرة رماد وتسلّقها بسرعة إلى غصن عالٍ. في الأسفل، أخذ الهرّ المحارب الخفيّ يقترب أكثر. أمسك بسّ النار أنفاسه وراح يتحيّن الفرصة للقفز عليه في اللحظة التي تفرّقت فيها نباتات الخنشار وظهر منها شكل رمادي ضخم.

أطلق بسّ النار صرخة حرب مدوّية وأبرز مخالبه ثمّ قفز على عدوّه واستقرّ على كتفيه العضليين المكسويين بالفراء. أمسكه بقوّة وأنشب فيه مخالبه الحادّة واستعدّ ليوجّه له عضّة تحذير قوية.

قفز الهرّ من تحته وحمله معه في الهواء. "مااا! ما هذا؟".

"آه! بسّ رمادي؟". عرف بسّ النار الصوت المذهول والتقط رائحة صديقه المألوفة، لكنّه كان مشحوناً جدّاً ولم يفلته بسهولة.

صرخ بسّ رمادي: "كمين!". ولم يكن قد أدرك بعد أنّ الهرّ الذي قفز على ظهره كان بسّ النار. راح يتدحرج في محاولة للتخلّص من المهاجم.

"أفّ!". تدحرج بسّ النار معه، وشعر أنّه يُسحق تحت وزن صديقه. أخذ يصيح وهو يكافح للتحرّر: "هذا أنا، بسّ النار!". أفلته وتدحرج بعيداً، ثمّ وقف ونفض فراءه الذي اهتزّ في موجة انتهت عند ذيله. كرّر قائلاً: "بسّ رمادي! هذا أنا، ظننت أنّك محارب من الأعداء!".

وقف بسّ رمادي وراح ينفض نفسه هو الآخر. تمتم وهو يدير رأسه ليلعق كتفيه: "هذا ما ظننته أنا أيضاً! لقد أرعبتني!".

تمتم بسّ النار: "أنا آسف، لكن ماذا يفترض بي أن أعتقد عندما فاجأتني بهذا الشكل؟".

نظر إليه بسّ رمادي بعينين مليئتين بالاستنكار: "فاجأتك! كان ذلك أفضل تسلّل أقوم به".

"تسلّل! ما زلتَ تتسلّل مثل حيوان أعرج!". وخفض أذنيه مداعباً.

فأطلق بسّ رمادي هسيساً مرحاً وقال: "حسناً، سأريك أيّها المشاكس!".

قفز الهرّان على بعضهما وبدءا يتدحرجان بمرح. ضربه بسّ رمادي بكفّه، فضجّ رأس المبتدئ الشابّ من قوّة الضربة.

"أفّ!". هزّ بسّ النار رأسه ثمّ انطلق في هجوم مضادّ.

تمكّن من توجيه ضربتين قبل أن يغلبه بسّ رمادي ويثبّته على الأرض، فاسترخى بسّ النار تماماً.

ماء بسّ رمادي وهو يرخي قبضته: "أنت تستسلم بسهولة!". في تلك اللحظة، هبّ بسّ النار واقفاً ورمى بسّ رمادي عن ظهره وأسقطه أرضاً.

قفز بسّ النار خلفه وسمّره في مكانه، ثمّ صاح مردّداً إحدى جمل قلب الأسد المفضّلة: "عنصر المفاجأة هو أعظم سلاح لدى المحارب". ثمّ ابتعد عن بسّ رمادي وأخذ يتقلّب فوق بساط الأوراق، مستمتعاً بفوزه السهل وبدفء الأرض تحت ظهره.

لم يبدُ على بسّ رمادي أيّ انزعاج بسبب هزيمته الثانية هذا الصباح. فقد كان يوماً جميلاً ولم يرغب في إفساده بسوء المزاج. سأل صديقه: "إذاً، ما أخبار المهمّة التي خرجتَ فيها؟".

جلس بسّ النار وقال: "كنت أبلي حسناً إلى أن وصلت! فقد أوشكت على اصطياد فأر، لكنّك أخفته بصخبك".

"آه، أنا آسف".

نظر بسّ النار إلى صديقه المكتئب. "لا بأس، لم تكن تعلم. على أيّ حال، ألم تكن ذاهباً لملاقاة الدورية على حدود عشيرة الرياح؟ ظننت أنّك تحمل لهم رسالة من نجمة الصباح".

"أجل، صحيح، لكن ما زال أمامي وقت طويل. وكنت أنوي اصطياد شيء أوّلاً، فأنا أتضوّر جوعاً!".

"أنا أيضاً، لكن عليّ أن أصطاد للعشيرة أوّلاً".

قال بسّ رمادي ساخراً: "أنا واثق أنّ بسّ أغبر وبسّة الرمال يلتهمان فأراً أو اثنين عندما يذهبان في مهمّة الصيد".

"لن يفاجئني ذلك، لكن هذه هي مهمّتي الأولى بمفردي...".

قال بسّ رمادي متنهّداً: "وتريد إنجازها بشكل صحيح، أعرف".

سأله بسّ النار لتغيير الموضوع: "ما هي الرسالة التي بعثت بها نجمة الصباح؟".

"تريد من الدورية انتظارها عند الجمّيزة العظيمة لتنضمّ إليهم عند علوّ الشمس. إذ يبدو أنّ بعض قطط عشيرة الظلال كانت تطوف خلسة في المكان، وترغب نجمة الصباح في التحقّق من أنّ كلّ شيء على ما يرام".

"يجدر بك الانطلاق إذاً".

أجابه بسّ رمادي بثقة: "أراضي عشيرة الرياح ليست بعيدة من هنا، لديّ وقت طويل، كما أظنّ أنّه يجدر بي مساعدتك بعدما خسرتَ صيدك بسببي".

"لا يهمّ، سأجد فأراً آخر. فهذا يوم دافئ، ولا شكّ أنّ الفئران ستغادر أوكارها".

"صحيح، لكن يبقى عليك اصطيادها". انشغل بسّ رمادي بعضّ أحد مخالبه الأمامية، ونزع عنها قطعة جلد خارجية وهو شارد الذهن. "كما تعلم، قد يستغرق منك ذلك وقتاً طويلاً إلى ما بعد منتصف النهار، ربّما حتّى مغيب الشمس".

هزّ بسّ النار رأسه من دون حماسة بينما أطلقت معدته أصوات احتجاج. يتعيّن عليه على الأرجح القيام بثلاث أو أربع رحلات صيد قبل أن يجلب عدداً كافياً من الطرائد. وقد يظهر الفراء الفضّي في السماء قبل أن تسنح له الفرصة بتناول الطعام.

مسح بسّ رمادي شاربه وقال: "هيّا، سأساعدك لتبدأ، فأنا أدين لك بذلك على الأقلّ. يجب أن نتمكّن من التقاط فأرين قبل أن أذهب".

تبع بسّ النار بسّ رمادي إلى أعلى الجدول، مسروراً بصحبته. كانت رائحة الثعلب ما زالت في الجوّ، إلّا أنّها بدت أقوى فجأة.

توقّف بسّ النار وسأله: "هل تشتمّ هذه الرائحة؟".

توقّف بسّ رمادي واشتمّ الهواء ثمّ أجاب: "إنّها رائحة ثعلب، لقد اشتممتها منذ قليل".

"لكن ألا تبدو لك الآن أقوى؟".

اشتمّ بسّ رمادي مجدّداً وفتح فمه قليلاً. تمتم بصوت منخفض: "أنت على حقّ". التفت لينظر إلى الأدغال على الضفّة المقابلة، ثمّ همس: "انظر!".

نظر بسّ النار إلى حيث أشار صديقه، فرأى مخلوقاً أحمر وكثيف الفراء يتحرّك بين الشجيرات. خرج المخلوق إلى فسحة تحت الأشجار فبدا جسده القصير ذو الفراء الأحمر يلمع تحت الشمس. كان يملك ذيلاً كثيفاً وخطماً طويلاً ورفيعاً.

همس قائلاً: "إذاً هذا هو الثعلب؟ ما أقبح خطمه!".

وافقه بسّ رمادي: "أنت على حقّ!".

همس بسّ النار: "كنت أتبع أحد هذه المخلوقات عندما... التقينا للمرّة الأولى".

هسّ بسّ رمادي: "بل هو الذي كان يتبعك أيّها الأحمق! لا تثق أبداً بثعلب. فهو يبدو مثل كلب، لكنّه يتصرّف كهرّ. علينا تحذير إناث الحضانة من وجوده في أرضنا. فالثعالب لا تقلّ خطراً عن حيوانات الغُرَير عندما يتعلّق الأمر بقتل صغار القطط. وأنا مسرور لأنّك لم تتعارك مع الثعلب الذي رأيته في المرّة الأخيرة، فأنت تشكّل بالنسبة إليه فريسة سهلة". بدا على بسّ النار شيء من الامتعاض، غير أنّ بسّ رمادي تابع يقول: "لكنّ فرص نجاتك أصبحت أكبر الآن. على كلّ حال، ستقوم نجمة الصباح على الأرجح بإرسال دورية من المحاربين لإبعاده، وإراحة بال هرر الحضانة".

لم يرهما الثعلب، لذلك تابعا سيرهما على طول الجدول.

سأله بسّ النار وهما يجوبان الضفّة ويشتمّان الهواء من الجانبين: "إذاً، ما هو شكل الغرير؟".

"لونه أبيض وأسود وقوائمه قصيرة، ستعرفه عندما تراه. إنّها حيوانات سيّئة المزاج وخرقاء، ومع أنّها أقلّ ميلاً من الثعلب إلى مهاجمة الصغار، إلّا أنّ عضّتها خبيثة. كيف تظنّ أنّ الهرّ المسنّ أبتر حصل على اسمه؟ لم يعد قادراً على تسلّق شجرة منذ أن قطع غُرير ذيله!".

"ولماذا لا يتسلّق الشجرة؟".

"لأنّه يخشى السقوط. فالهرّ يحتاج إلى ذيله إن أراد أن يهبط على قوائمه، لأنّ الذيل يساعده على قلب جسده في الهواء".

هزّ بسّ النار رأسه متفهّماً.

كما توقّع بسّ النار، كان الصيد جيّداً في ذلك اليوم. لم يمضِ وقت طويل حتّى اصطاد بسّ رمادي فأراً صغيراً واصطاد بسّ النار طائر سمّن. قضى عليه بسرعة، ذلك أنّ الوقت لم يكن يسمح له اليوم بممارسة تقنيات القتل. فثمّة كثير من الأفواه الجائعة التي تنتظر في المخيّم. طمر بسّ النار الفريسة بالتراب لإخفائها عن الحيوانات الأخرى حتّى يعود لأخذها.

فجأة خرج سنجاب.

انطلق بسّ النار خلفه وهو ينادي: "الحق به!". وراح يعدو بأقصى سرعته في الغابة

الخضراء وبسّ رمادي في أعقابه.

توقّفا أخيراً عندما تسلّق السنجاب جذع شجرة بتولا واختفى فيه.

تذمّر بسّ رمادي قائلاً بخيبة أمل: "لقد خسرناه!".

وقف الهرّان لالتقاط أنفاسهما، ففاجأتهما رائحة حادّة اقتحمت فميهما وأنفيهما.

قال بسّ النار: "هذا درب الرعد، لم أعرف أنّنا ابتعدنا إلى هذا الحدّ".

اقترب الهرّان ليحدّقا إلى الطريق الأسود الكبير. كانت المرّة الأولى التي يأتيان فيها إلى هذا المكان بمفردهما. راحت مخلوقات صاخبة تجري على الطريق الصلب وهي تحدّق بأعينها الثابتة إلى الأمام.

قال بسّ رمادي: "ياه! رائحة تلك الوحوش مقرفة حقّاً!".

هزّ بسّ النار أذنيه موافقاً بعد أن لسعت الروائح الخانقة حلقه. سأل صديقَه: "هل قمت يوماً باجتياز درب الرعد؟".

هزّ بسّ رمادي رأسه نافياً.

خطا بسّ النار خارج الغابة ليجد خطّاً من الأعشاب المكسوّة بالشحوم يفصل بين الغابة ودرب الرعد. مشى عليه ببطء، ثمّ تراجع فوراً مع مرور وحش مسرع.

سأله بسّ رمادي: "مهلاً! ماذا تفعل؟".

لم يجبه بسّ النار، بل انتظر إلى أن اختفت كلّ الوحوش عن نظره، ثمّ اقترب مجدّداً حتّى طرف الطريق. مدّ كفّه بحذر ليلمسه، فوجده دافئاً ولزجاً تقريباً بسبب حرارة الشمس. نظر إلى الأعلى، وحدّق إلى ما وراء درب الرعد. فاشتبه بوجود عينين تومضان في الغابة من الجهة المقابلة. اشتمّ الهواء، لكنّه لم يشعر سوى برائحة الطريق الرمادي الكبير. كانت العينان ما زالتا تومضان في الظلال، ثمّ رفّتا ببطء.

أصبح بسّ النار واثقاً الآن. إنّه محارب من عشيرة الظلال، يحدّق إليه مباشرة.

"بسّ النار!". أجفله صوت بسّ رمادي في اللحظة التي مرّ فيها وحش هائل أطول من الشجرة أمام أنفه. أوشكت الرياح التي هبّت إثر مروره أن توقعه أرضاً. فاستدار وأخذ يركض بأقصى سرعته عائداً إلى أمان الغابة.

صاح به بسّ رمادي: "أيّها الأحمق! هل تملك دماغ فأر أم ماذا؟". كان شاربه يرتجف خوفاً وغضباً. "ماذا كنت تفعل؟".

تمتم بسّ النار: "أردت أن أعرف كيف هو ملمس درب الرعد". كان شاربه يرتجف هو

الآخر.

هسّ بسّ رمادي قائلاً : "تعال لنخرج من هنا!".

تبع بسّ النار صديقه الذي راح يقفز عائداً إلى وسط الغابة. عندما أصبحا على مسافة آمنة من درب الرعد، توقّف بسّ رمادي لالتقاط أنفاسه.

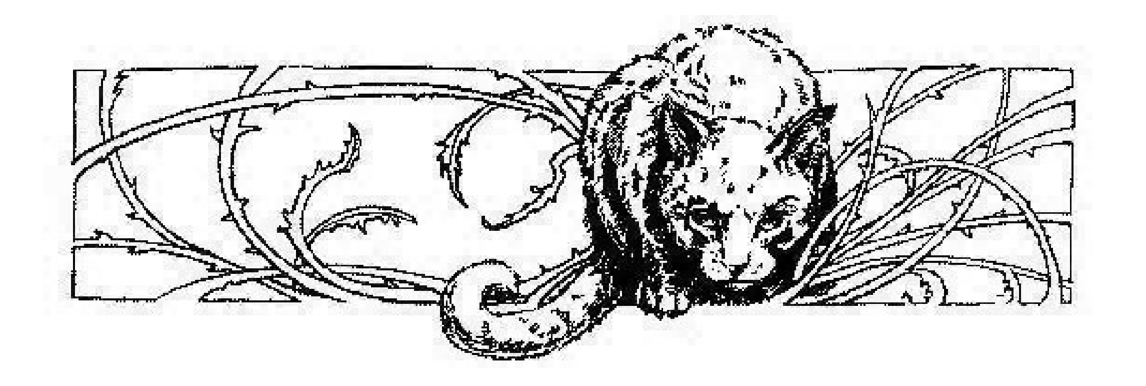
جلس بسّ النار وبدأ يلعق فراءه المشعّث. "أعتقد أنّني رأيت محارباً من عشيرة الظلال". استمرّ يلعق مضيفاً: "في الغابة من الجهة الأخرى من درب الرعد".

ردّد بسّ رمادي محملقاً به: "محارب من عشيرة الظلال! حقّاً؟".

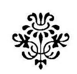
"أنا واثق من ذلك".

أجاب بسّ رمادي: "حسناً، من حظّنا أنّ ذاك الوحش مرّ أمامنا في تلك اللحظة. فقطط عشيرة الظلال لا يتجوّلون فرادى، ونحن لن نقدر عليهم. من الأفضل لنا الابتعاد من هنا". نظر إلى الشمس التي كانت على وشك بلوغ وسط السماء وقال: "يجدر بي الانطلاق إن أردت الوصول إلى الدورية في الوقت المناسب. إلى اللقاء". وأسرع يجري بين الأعشاب وهو ينادي: "من يدري، قد يسمح لي قلب الأسد بالمجيء لمساعدتك بالصيد بعد أن أوصل هذه الرسالة".

راقبه بسّ النار وهو يبتعد، وشعر أنّه يحسده لأنّه يتمنّى الانضمام إلى دورية المحاربين. لكن على الأقلّ لديه ما يرويه لبسّ أغبر وبسّة الرمال عندما يعود إلى المخيّم. فقد رأى اليوم لأوّل مرّة أحد محاربي عشيرة الظلال.



الفصل 7



عاد بسّ النار على أعقابه باتّجاه الجدول وهو يفكّر بالعينين الملتهبتين في عتمة أراضي عشيرة الظلال.

فجأة، اشتمّ رائحة غريبة حملها النسيم.

ثمّة غريب! قد يكون ذاك المحارب من عشيرة الظلال...

على الفور، بدأ بسّ النار يزمجر، إذ نقلت له الرائحة رسائل عديدة. كان الغريب هرّة، ولم تكن صغيرة كما أنّها لم تكن تنتمي حتماً إلى عشيرة الرعد. ومع أنّها لا تحمل رائحة مميّزة لأيّ من العشائر، إلّا أنّ بسّ النار عرف أنها متعبة وجائعة ومريضة، كما أنّها في مزاج سيّئ.

خفض جسده وتقدّم إلى الأمام باتّجاه الرائحة. توقّف بعد ذلك حائراً، لأنّ رائحة المحارب أصبحت أخفّ. فاشتمّ مجدّداً.

فجأة، وبحركة سريعة كالبرق، انطلقت كرة من الفراء من بين الشجيرات خلفه.

أطلق بسّ النار صيحة ذعر عندما اصطدمت به الهرّة وأسقطته أرضاً. شعر بكفّين ثقيلين يثبّتان كتفيه على الأرض وبفكّ حديدي يطبق على مؤخّر عنقه. ماء متذمّراً وبدأ يفكّر بسرعة. سينتهي أمره إن فكّرت هذه الهرّة بغرز مخالبها عميقاً في عنقه.

هكذا شلّ حركته وأجبر عضلاته على الاسترخاء كما لو أنّه يخضع لها، ثمّ أطلق مواء خوف مزيّف.

فتحت الهرّة فمها لتطلق مواء انتصار، غير أنّها هسّت قائلة: "آه، مبتدئ صغير! يا لها

من فريسة سهلة لجمرة!".

أمام هذه الإهانة، أحسّ بسّ النار بموجة من الغضب. سأريكِ. سيُثبت لكرة الفراء تلك أيّ محارب هو! لكن ليس بعد، سأنتظر حتّى أشعر بأسنانها مجدّداً.

عضّت جمرة مجدّداً. وفي تلك اللحظة، اندفع بسّ النار إلى الأعلى بكلّ القوّة التي يتمتّع بها جسده الشابّ. فأطلقت الهرّة صرخة وهي تطير في الهواء، قبل أن تهبط على ظهرها فوق أجمة من النباتات الشائكة.

نفض بسّ النار فراءه قائلاً: "لستُ بهذه السهولة، هاه؟".

أطلقت جمرة هسيس تحدٍّ وهي تخلّص نفسها من الأغصان المتشابكة. قالت بنبرة حادّة: "لست سيّئاً أيّها الشابّ. لكن ما زلت بحاجة إلى تعلّم الكثير!".

فوجئ بسّ النار عندما رأى خصمه بوضوح للمرّة الأولى. كانت الهرّة ذات وجه عريض ومسطّح تقريباً، وعينين برتقاليتين مستديرتين. أمّا فراءها الرمادي الداكن الطويلا فتجمّع في كتل كريهة الرائحة، في حين بدت آثار المعارك القديمة بوضوح على أذنيها الممزّقتين والخشنتين، والندوب التي تخطّ خطمها.

وقف بسّ النار بثبات معلناً التحدّي في وجه تلك الدخيلة. "أنت في أراضي الصيد التابعة لعشيرة الرعد. اخرجي من هنا!".

"ومن سيجبرني على ذلك؟". أبعدت جمرة شفتيها بتحدٍّ مظهرة أسنانها المكسورة والمكسوّة بالبقع. "سأصطاد أوّلاً ثمّ أرحل. وربّما أبقى لبعض الوقت...".

"كفاك ثرثرة". صاح بسّ النار في وجهها وهو يشعر أنّ دماء القطط القديمة تضجّ في عروقه. لم يعد ثمّة أثر للهرّ الأليف في تلك اللحظة، بل غلبت عليه دماء المحارب وتحمّس للقتال دفتعاً عن أرضه وحماية عشيرته.

يبدو أنّ جمرة أحسّت بالتغيير الذي طرأ عليه، إذ التهبت عيناها البرتقاليتان بإكبار جديد لذلك الهرّ الشابّ. خفضت رأسها وأشاحت بنظرها عنه، ثمّ بدأت تتراجع. خرخرت بنبرة لطيفة: "لا داع للتسرّع الآن".

لم ينخدع بسّ النار بحيلتها، بل أخرج مخالبه وراح يتقدّم إلى الأمام مصدراً صيحة حرب مدوّية.

ردّت عليه الهرّة الأخرى بهسيس غضب، قبل أن يشتبك الهرّ الشابّ والهرّة المسنّة معاً في عراك عنيف. تدحرجا وومضت أسنانهما ومخالبهما. خفض بسّ النار أذنيه وحاول التغلّب عليها. بيد أنّ فراء الهرّة المتكتّل علق في مخالبه ولم يستطع الوصول إلى جلدها.

فجأة وقفت جمرة على قائمتيها الخلفيتين، وبدت أكبر من حجمها بذيلها المشعّث.

أحسّ بسّ النار بفكّ جمرة الضخم وهو يتّجه نحوه. فتراجع إلى الخلف في الوقت المناسب، وأطبقت أسنانها على الهواء بجوار أذنه.

تلقائيّاً، ردّ بسّ النار بضربة عنيفة إلى الخلف، فاصطدم كفّه بجانب رأس جمرة وأرسلت الضربة موجات ألم عبر قائمته الأمامية.

صرخت جمرة مذهولة وسقطت على قوائمها الأربع، ثمّ هزّت رأسها لتخفيف الألم.

في اللحظة الوجيزة التي سبقت استعادة الهرّة لرشدها، وجد بسّ النار فرصته. فألقى بنفسه إلى الأمام وهو جاثم وأطبق بفكّيه على قائمتها الخلفية. زمجر باشمئزاز لأنّ طعم فرائها كان مريعاً، إلّا أنّه عضّ بقوّة.

صاحت جمرة من شدّة الألم واستدارت لتعضّ ذيل بسّ النار.

أطبقت أسنانها على ذيله، فاجتاح الألم عموده الفقري، الأمر الذي ضاعف من غضبه. فانتزع ذيله من بين أسنانها وراح يلوّح به غاضباً.

جثمت جمرة استعداداً لهجوم جديد، وبدا له أنّ أنفاسها تخرج على شكل أزيز من رئتيها المتعفّنتين. صدمته الرائحة، غير أنّ رسالة اليأس والضعف والجوع الذي استبدّ بالهرّة كانت مؤلمة تقريباً.

عندئذٍ حرّكه إحساس غريب، إحساس لا يشبه أحاسيس المحاربين ولا يريده، ألا وهو الشفقة. حاول عدم التفكير في ذلك، لأنّه يدرك أنّ ولاءه يجب أن يكون للعشيرة بالكامل، لكنّه لم يستطع التخلّص منه. تردّد في رأسه كلام قلب الأسد: "أنت تتحدّث من قلبك أيّها الشابّ، وهذا سيجعل منك محارباً قوياً يوماً ما". ثمّ تبعه تحذير النمر الشرس الذي رنّ في أذنيه وهو يقول: "أو يجعله يستسلم لضعف البسبوس الأليف في لحظة الهجوم ".

تقدّمت جمرة، فتراجع بسّ النار فوراً في وضعية عدائية. حاولت الهرّة الكبيرة الوصول إلى كتفيه للإمساك به على نحو يسمح لها بقتله، لكنّ قائمتها الجريحة أعاقتها هذه المرّة.

"ابتعدي!". قوّس بسّ النار ظهره، لكنّ جمرة تمكّنت من إنشاب مخالبها فيه وتشبّثت به بقوّة. فأجبره وزنها على الانبطاح أرضاً.

شعر بسّ النار بطعم التراب في فمه فبصقه وهو يصرخ.

لوى جسده برشاقة لتجنّب ضغط قائمتيها الخلفيتين الساحقتين ومخالبها الحادّة التي كانت تحاول إنشابها في بطنه الناعم. فتدحرجا مراراً وتكراراً وهما يعضّان وينهشان بعضهما.

انفصلا بعد دقائق وراح بسّ النار يلهث، غير أنّه شعر أنّ جمرة بدأت تضعف. فقد كانت الهرّة جريحة، وبالكاد قادرة على حمل جسدها الهزيل.

سألها بسّ النار مزمجراً: "ألم تكتفي بعد؟". إن استسلمت الدخيلة، سيتركها تذهب بعضّة

تحذيرية واحدة لتذكّرها به.

غير أنّ جمرة همست بشجاعة: "مطلقاً!". برغم ذلك، انهارت قائمتها الجريحة، فسقطت أرضاً. حاولت أن تقف، لكنّها لم تستطع. هسّت في وجه بسّ النار، وبدا التعب في عينيها: "لو لم أكن جائعة ومنهكة، لمزّقتك إرباً". التوى فم الهرّة بألم وتحدٍّ. "اقضِ عليّ، لن أمنعك".

تردّد بسّ النار، إذ لم يسبق له أن قتل هرّاً آخر من قبل. قد يفعل في خضمّ معركة، لكنّ القتل الرحيم بدم بارد هو أمر مختلف تماماً.

حرّضته جمرة قائلة: "ماذا تنتظر؟ أنت ترتجف مثل بسبوس أليف!".

أجفل بسّ النار من كلام الهرّة. أما زالت قادرة على اشتمام رائحة ذوي الساقين فيه حتّى الآن بعد مضيّ كلّ هذا الوقت؟

أجابها بنبرة لاذعة: "أنا محارب مبتدئ في عشيرة الرعد!".

ضاقت عينا جمرة، فقد رأت بسّ النار وهو يُجفل من كلامها وأدركت أنّها ضربت على وتر حسّاس. قالت ساخرة: "هاه، لا تقل لي إنّ اليأس بلغ بعشيرة الرعد أن تجنّد هررة أليفة؟".

هسّ بسّ النار: "عشيرة الرعد ليست يائسة!".

"أثبت لي ذلك إذاً! تصرّف كمحارب واقضِ عليّ. إن فعلت، فإنك ستسديني خدمة".

حدّق إليها بسّ النار وقرّر ألّا يتأثّر بكلامها ويقتل هذه المخلوقة البائسة. شعر بعضلاته تسترخي مع تصاعد فضوله. كيف وصلت هرّة تنتمي إلى عشيرة إلى هذه الحالة؟ فعشيرة الرعد ترعى مسنّيها على نحو أفضل من صغارها! ماء قائلاً: "يبدو أنّك تتعجّلين الموت".

أجابته بنبرة حادّة: "حقّاً؟ حسناً، هذا شأني أيّها الهرّ الفضولي. ما مشكلتك أنت؟ هل تحاول إقناعي بالبقاء على قيد الحياة؟".

كان كلامها ينمّ عن شجاعة، لكنّ بسّ النار اشتمّ رائحة الجوع والمرض المتصاعدة من الهرّة. كانت ستموت على أيّ حال إن لم تأكل قريباً. وبما أنّها عاجزة عن الصيد، ربّما يجدر به قتلها حالاً. نظرا إلى بعضهما، وبدا التردّد في نظراتهما.

أخيراً أمرها بسّ النار: "ابقي مكانك".

تبدّد توتّر جمرة وزالت علامات العداء عن فرائها وعضلاتها. قالت وهي تعرج متألّمة وتتّجه نحو بقعة من النباتات الناعمة: "هل تمزح أيّها الصغير؟ أنا لست ذاهبة إلى أيّ مكان". تمدّدت وراحت تلعق جرح قائمتها.

نظر بسّ النار إليها وهو يبتعد وهسّ ساخطاً بصوت منخفض قبل أن يتوجّه نحو الأشجار.

بينما كان يمشي بصمت بين نباتات الخنشار، ملأت أنفه روائح دفّأتها الشمس، وميّز رائحة حادّة لجرذ مات منذ وقت. سمع صرير الحشرات تحت لحاء الشجر المتساقط وحفيف حيوانات ذات فراء تُسرع فوق الأوراق. خطر بباله للوهلة الأولى الذهاب لإحضار طائر السمّن الذي اصطاده في وقت سابق، لكنّ الأمر سيستغرق وقتاً.

ربّما يجدر به الذهاب والبحث عن جثّة الجرذ. فهذا سهل، لكنّ الهرّة التي تتضوّر جوعاً تحتاج إلى صيد طازج. فالمحاربون لا يأكلون طعام الغربان إلّا في أوقات الشدّة.

وقف فجأة عندما اشتمّ رائحة أرنب صغير أمامه. اقترب بضع خطوات أخرى وراءه. فانخفض إلى الأسفل، وراح يقترب من المخلوق الصغير. بالكاد كان يبعد عنه طول فأر عندما اكتشف وجوده، لكنّ الأوان كان قد فات. اندفع الأرنب الأبيض مبتعداً، الأمر الذي أرسل موجة حماس للمطاردة في عروق بسّ النار. فاندفع خلفه، وقبض عليه بمخالبه، وسرعان ما نجح في اصطياده.

أمسك بالجسد الذي يتلوّى وقضى عليه بسرعة.

نظرت جمرة متعبة إلى بسّ النار وهو يلقي الأرنب على الأرض بجانبها. فغرت فاها من شدّة الدهشة وقالت: "أهلاً بك مجدّداً أيّها البسبوس! ظننت أنّك ذهبت لإحضار أصدقائك المحاربين الصغار".

"حقّاً؟ حسناً، قد أفعل إن لم تكفّي عن مناداتي بسبوس". ثمّ دفع الأرنب إلى مسافة أقرب منها بأنفه. شعر بالإحراج بسبب لطفه وهو يقول: "اسمعي، إن كنت لا تريدين هذا...".

أجابت جمرة بسرعة: "آه كلّا، بل أريده".

راقبها بسّ النار وهي تأخذ قضمة وتبتلعها. شعر بالجوع وسال لعابه، لكنّه يعرف أنّه لا يجدر به حتّى التفكير بالأكل. فما زال عليه أخذ عدد كافٍ من الطرائد للعشيرة، مع أنّ الصيد الطازج كان شهياً.

"مممم". بعد دقائق، أطلقت جمرة تنهيدة طويلة ونامت على جنبها قائلة: "هذا أوّل صيد طازج أحصل عليه منذ أيّام". ثمّ نظّفت خطمها وجلست تلعق فراءها.

كما لو أنّ جلسة تنظيف واحدة ستكفيها، فكّر بسّ النار في ذلك باشمئزاز، فهو لم ير من قبل هرّة بقذارتها.

رمق بقايا الفريسة. لم يكن قد تبقّى منها شيء يكفي لملء بطن هرّ شابّ، لكنّ عراكه مع جمرة زاد من جوعه. فاستسلم لشهيّته وأكل شيئاً من البقايا. كانت لذيذة. لعق أخيراً شفتيه وهو يتلذّذ بطعم الصيد حتّى النهاية.

راقبته جمرة عن كثب، ثمّ بانت أسنانها الصفراء وهي تقول بمكر: "هذا أفضل من القذارة التي يطعمها ذوو الساقين لإخواننا، أليس كذلك؟". لقد عرفت نقطة ضعفه، وأرادت أن تعزف على

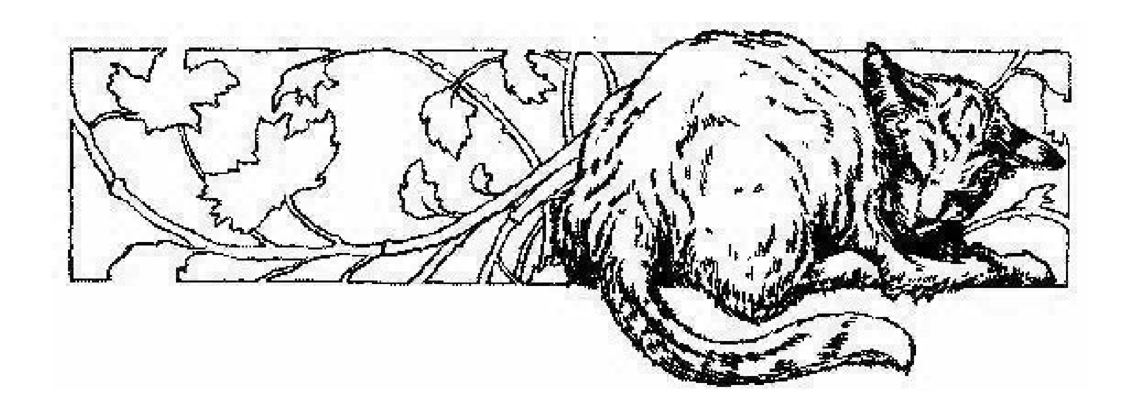
الوتر الحسّاس.

تجاهلها بسّ النار وبدأ ينظّف نفسه.

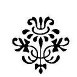
تابعت تقول: "إنّه سمّ، قذارة فئران! وحدها كرة فراء بلا عظام تقبل بأكل تلك الأشياء المقرفة...". صمتت فجأة ثمّ قالت: "انتبه... ثمّة محاربون قادمون".

أدرك بسّ النار هو الآخر أنّه ثمّة قطط تقترب، فقد سمع وقع خطواتها على الأوراق وصوت فرائها وهو يحتكّ بالأغصان. اشتمّ الهواء الذي مرّ بفرائها، وشعر أنّ الروائح مألوفة. إنّهم من محاربي عشيرة الرعد، فهم يسيرون بثقة في أرضهم غير آبهين بالأصوات التي يحدثونها.

لعق بسّ النار شفتيه وهو يشعر بالذنب، وأمل أن يمسح كلّ آثار البقايا التي ابتلعها للتوّ. ثمّ نظر إلى جمرة وعظام الأرنب الطازجة المكوّمة بجانبها. تردّد كلام قلب الأسد في رأسه: "ينبغي إطعام العشيرة أوّلاً". لكن لا شكّ أنّه سيفهم لماذا قام بسّ النار بإطعام هذه الهرّة البائسة. راح ذهنه يعمل بسرعة، وشعر بالخوف فجأة ممّا ينتظره. لقد خرج في أوّل مهمّة له كمبتدئ، وانتهى به الأمر بخرق قانون المحاربين!



الفصل 8



زمجرت جمرة بتحدٍّ مع اقتراب الخطى، لكنّ بسّ النار أحسّ بذعرها. كافحت لتقف على قدميها وقالت: "لقد أطلتُ البقاء، شكراً على الوجبة". حاولت أن تبتعد وهي تعرج على قوائمها الثلاثة، لكنّ الألم أقعدها مجدّداً. "آه! لقد تصلّبت قائمتي وأنا جالسة".

فات أوان الهرب مع خروج أشكال صامتة من بين الأشجار. خلال لحظات، أحاطت دورية عشيرة الرعد ببسّ النار وجمرة. عرفهم بسّ النار فوراً. كانت الدورية مؤلّفة من النمر الشرس، والنمر الأسود، وغصن الصفصاف، ونجمة الصباح، وجميعهم رشيقون وأقوياء. اشتمّ بسّ النار خوف جمرة فور ظهورهم.

تبعهم بسّ رمادي. خرج من بين الأجمات ووقف بجانب دورية المحاربين.

ألقى بسّ النار تحيّة سريعة على أفراد عشيرته، لكنّ بسّ رمادي كان الوحيد الذي ردّ التحيّة: "مرحباً يا بسّ النار!".

زمجر النمر الشرس: "اصمتا!".

نظر بسّ النار إلى جمرة وتأوّه بصمت. ما زال قادراً على اشتمام رائحة خوفها، لكن عوضاً عن الخضوع بجبن، كانت الهرّة المشعّثة تحدّق إلى أعدائها بتحدٍّ.

"بسّ النار؟". كان سؤال نجمة الصباح بارداً ومتّزناً. "ماذا لدينا هنا؟ محاربة من الأعداء تمّ إطعامها منذ قليل، بالحكم على رائحتكما أنتما الاثنان". كانت نظراتها حادّة، فخفض بسّ النار رأسه.

بدأ يقول: "كانت ضعيفة وجائعة...".

"وماذا عنك؟ هل كنت جائعاً إلى حدّ أنّك أطعمتَ نفسك قبل أن تجمع الطرائد لعشيرتك؟ أفترض أنّ لديك سبباً وجيهاً لخرق قانون المحاربين، أليس كذلك؟".

لم ينخدع بسّ النار بالنبرة اللطيفة التي تحدّثت بها زعيمة العشيرة. كانت نجمة الصباح غاضبة، ولها الحقّ في ذلك. فانخفض أكثر على الأرض.

قبل أن يتمكّن من قول شيء، هسّ النمر الشرس قائلاً: "البسبوس الأليف لا يتغيّر!".

تجاهلت نجمة الصباح كلام النمر الشرس ونظرت عن ذلك إلى جمرة. فجأة، بدا عليها الاستغراب. "ماذا أرى! يبدو أنّك أسرت لنا هرّة من عشيرة الظلال، هرّة أعرفها جيّداً. أنت الهرّة المداوية لعشيرة الظلال، أليس كذلك؟ ماذا تفعلين في أراضي عشيرة الرعد؟".

أجابت جمرة بصوت كالهسيس: "كنتُ مداوية عشيرة الظلال لكنّني قرّرت العيش بمفردي".

أصغى إليها بسّ النار مذهولاً. هل ما يسمعه صحيح؟ هل كانت جمرة محاربة في عشيرة الظلال؟ لا بدّ أنّ حالتها المزرية طغت على رائحتها التي كانت ستسمح له بالتعرّف على انتمائها. كان سيستمتع بمراوغتها أكثر لو أنّه عرف.

قال النمر الشرس ساخراً: "جمرة! يبدو أنّ الزمن قسا عليك لتهزمي أمام مبتدئ!".

قال النمر الأسود: "لا فائدة من هذه الهرّة العجوز، فلنقتلها حالاً. أمّا بالنسبة إلى هذا البسبوس الأليف، فقد خرق قانون المحاربين عندما أطعم محاربة من الأعداء ويجب معاقبته".

خرخرت نجمة الصباح بهدوء: "لا تخرج مخالبك أيّها النمر الأسود، فكل العشائر تتحدّث عن شجاعة جمرة وحكمتها، وقد يفيدنا أن نسمع ما تودّ قوله. هيّا، لنأخذها إلى المخيّم، وهناك سنقرّر ماذا نفعل بها وببسّ النار. هل يمكنكِ السير أم تحتاجين إلى المساعدة؟".

أجابت الهرّة القذرة وهي تعرج: "ما زلت أملك ثلاث قوائم سليمة".

لمح بسّ النار ألماً في عيني جمرة، لكنّها كانت مصمّمة على عدم إظهار أيّ ضعف. لمح أيضاً نظرة احترام عابرة في عيني نجمة الصباح قبل أن تستدير وتقود المجموعة بين الأشجار. مشى بقيّة المحاربين إلى جانبي جمرة وتقدّمت الدورية وهي تواكب أسيرتها العرجاء.

أمّا بسّ النار وبسّ رمادي فسارا في أعقابهم.

سأل بسّ النار صديقه هامساً: "هل سبق أن سمعت بجمرة؟".

"قليلاً. يبدو أنّها كانت محاربة قبل أن تصبح هرّة مداوية، وهذا غير اعتيادي. لكنّني لا أستطيع أن أتخيّلها شريدة. فقد عاشت كلّ حياتها في عشيرة الظلال".

"ماذا تقصد بشريدة؟".

نظر إليه بسّ رمادي مجيباً: "الهرّ الشريد هو الهرّ الذي لا ينتمي إلى عشيرة ولا يعتني به أحد من ذوي الساقين. يقول النمر الشرس إنّهم غير جديرين بالثقة وأنانيون. غالباً ما يعيشون بجوار مساكن ذوي الساقين، لكنّهم لا ينتمون إلى أحد ويكسبون رزقهم بأنفسهم".

قال بسّ النار: "قد أصبح هرّاً شريداً عندما تعاقبني نجمة الصباح".

طمأنه بسّ رمادي قائلاً: "نجمة الصباح عادلة ولن ترميك خارج العشيرة. حتّى إنّه يبدو عليها السرور بهذه الأسيرة الهامّة لعشيرة الظلال، وأنا واثق أنّها لن تصنع مشكلة كبيرة من مسألة إطعام تلك القطّة المسكينة".

أجابه بسّ النار وهو يشعر أنّ الخجل يتآكله: "لكنّهم لا يكفّون عن التذمّر من قلّة الصيد! آه، لماذا أكلت من ذلك الأرنب؟".

وكز بسّ رمادي صديقه قائلاً: "حسناً، أجل، كان ذلك غباءً منك. لا شكّ أنّك خرقت قانون المحاربين، لكن ما من هرّ كامل!".

لم يجبه بسّ النار، بل واصل تقدّمه بكاهل مثقل بالذنب. فهو لم يتوقّع إطلاقاً أن تنتهي أوّل مهمّة له بمفرده على هذا النحو.

مع مرور الدورية من أمام الحرّاس عند مدخل المخيّم، أتت بقيّة قطط العشيرة مسرعة للترحيب بعودة محاربيها.

اجتمعت إناث الحضانة والصغار والعجائز حولهم من الجانبين وحدّقوا بفضول إلى جمرة وهي تُقتاد إلى داخل المخيّم. عرف بعض العجائز الهرّة المسنّة، وسرعان ما انتشر الخبر أنّها مداوية عشيرة الظلال، وسرت الهمهمات بين قطط العشيرة.

بدت جمرة غير مبالية بما يجري حولها، ولم يستطع بسّ النار أن يقاوم الإعجاب بالطريقة التي دخلت بها باعتزاز وهي تعرج على الرغم من العيون التي تحدّق إليها والألسنة التي تتناولها. كان يعرف أنّها تعاني من ألم مبرح وأنها ما زالت جائعة على الرغم من تناولها الأرنب الذي اصطاده لها.

عندما وصلت الدورية إلى الصخرة العالية، أشارت نجمة الصباح إلى الأرض المكسوّة بالتراب أمامها. فنفّذت جمرة الأمر الصامت الذي أعطته زعيمة العشيرة وربضت بامتنان على الأرض. استمرّت بتجاهل النظرات العدائية من حولها وبدأت تلعق ساقها الجريحة.

رأى بسّ النار الورقة الرقطاء وهي تخرج من وكرها. لا شكّ أنّها اشتمّت وجود هرّة جريحة في المخيّم. فتفرّق الحشد للسماح للهرّة البنّية الشابّة بالمرور.

حدّقت جمرة إلى الورقة الرقطاء وهسّت قائلة: "أنا أعرف كيف أعتني بجراحي، لست بحاجة إلى مساعدتك".

لم تقل الورقة الرقطاء شيئاً، بل هزّت رأسها باحترام وتراجعت.

كانت بعض القطط قد خرجت للصيد وعادت بصيد طازج بانتظار عودة المحاربين. فأخذ كلّ منهم بعض الطعام وحمله إلى جانب أجمة القرّاص لأكله. ثمّ أتت بقيّة قطط العشيرة وأخذ كلّ منها حصّته.

راح بسّ النار يمشي في الفسحة جائعاً ويراقب القطط وهي تنقسم في مجموعاتها المعتادة لتمضغ طعامها. تاق لتناول شيء، لكنّه لم يجرؤ على الاقتراب من كومة الطرائد. فقد خرق اليوم قانون المحاربين وهذا يعني حسب ظنّه أنّه لن يحصل على حصّته من الصيد.

توقّف بجانب الصخرة العالية، وكانت نجمة الصباح تتبادل الحديث هناك مع النمر الشرس. نظر بسّ النار بتردّد إلى زعيمة العشيرة منتظراً إشارة للسماح له بالأكل. لكنّ الهرّة الرمادية وكبير محاربيها كانا منشغلَين بالحديث بصوت منخفض. تساءل بسّ النار ما إذا كانا يتحدّثان عنه. ومن شدّة يأسه وخوفه على مصيره، حاول أن يسترق السمع لما يقولانه.

بدا من صوته النمر الشرس أنّه نافد الصبر. "من الخطر جدّاً إدخال محاربة من الأعداء إلى قلب عشيرة الرعد! فالآن بعدما باتت تعرف المخيّم، سيسمع بموقعه حتّى أصغر قطط عشيرة الظلال، وسنضطرّ إلى الرحيل".

خرخرت نجمة الصباح مجيبة: "اهدأ أيّها النمر الشرس. ما الذي سيدفعنا للرحيل؟ قالت جمرة إنّها تعيش بمفردها الآن، وما من سبب لتسمع عشيرة الظلال شيئاً عنّا".

أجابها النمر الشرس بحدّة: "وهل تصدّقين ذلك؟ لكن ما الذي كان يفكّر فيه ذلك البسبوس الأليف الأحمق؟".

قالت نجمة الصباح: "فكّر للحظة أيّها النمر الشرس. لماذا تقرّر الهرّة المداوية في عشيرة الظلال ترك عشيرتها؟ أنت خائف من الأسرار التي قد تفشيها لعشيرة الظلال، لكن هل فكّرت بأسرار عشيرة الظلال التي ستفشيها لنا؟".

استطاع بسّ النار أن يرى فراء النمر الشرس وهو يعود أملس من جديد إثر المنطق الذي استشفّه في كلام نجمة الصباح. هزّ المحارب رأسه موافقاً، ثمّ ابتعد ليأخذ حصّته من الصيد.

بقيت نجمة الصباح في مكانها. نظرت إلى أرجاء الفسحة حيث كانت بعض الهررة الصغيرة تتعارك وتتقلّب بمرح في التراب، ثمّ نهضت وبدأت تتقدّم من بسّ النار. غاص قلب هذا الأخير وبدأ يفكّر بما ستقوله له.

غير أنّ نجمة الصباح تجاوزته من دون أن تعره أيّ اهتمام، بل طغت على عينيها نظرة شرود. نادت وهي تقترب من الحضانة: "بياض الثلج!".

خرجت هرّة بيضاء نقية ذات عينين زرقاوين داكنتين من بين النباتات، وارتفع من الداخل مواء الصغار.

خرخرت الهرّة البيضاء مطمئنة صغارها: "اهدؤوا، لن أتأخّر". ثمّ التفتت إلى زعيمتها وقالت: "نعم يا نجمة الصباح، ما الأمر؟".

"لقد رأى أحد المبتدئين ثعلباً في الجوار. حذّري بقيّة الإناث لحراسة الحضانة جيّداً، واحرصي على بقاء القطط التي لم تتجاوز ستّة أشهر داخل المخيّم إلى أن يتمكّن محاربونا من إبعاده".

هزّت بياض الثلج رأسها وقالت: "سأبلغهنّ، شكراً لك". ثمّ استدارت وعادت إلى الحضانة لتهدئة الصغار.

أخيراً، ذهبت نجمة الصباح إلى كومة الطرائد وأخذت حصّتها. كانت القطط قد تركت لها حمامة برّية سمينة. نظر إليها بسّ النار وهي تحملها بعيداً لتأكلها مع كبار المحاربين.

أخيراً دفعه جوعه إلى الاقتراب. كان بسّ رمادي مع بسّ أدهم يلتهمان حسّوناً صغيراً بجانب جذع الشجرة. رأى بسّ النار وهو يقترب من كومة الطعام، فهزّ رأسه مشجّعاً. خفض بسّ النار عنقه لأخذ فأر برّي صغير.

"هذا ليس لك". علا صوت النمر الشرس الذي أتى من خلفه وأبعد الفأر جانباً. "أنت لم تُحضر أيّ طرائد، لذلك سيأكل المسنّون حصّتك. خذها إليهم".

نظر بسّ النار إلى نجمة الصباح.

هزّت رأسها على نحو مقتضب وقالت: "افعل ما يقول".

حمل بسّ النار الفأر بإذعان وأخذه إلى شمشوم. داعبت الرائحة الشهية أنفه، وأراد بشدّة سحق الفأر بأسنانه القوية. حتّى إنّه بدأ يشعر بطاقة حياة الفأر تتدفّق في جسده الشابّ.

مارس ضبطاً كبيراً للنفس وهو يضع الطريدة أمام الهرّ الرمادي ثمّ يتراجع بتهذيب. لم يتوقّع الشكر ولم يحظَ به.

شعر في تلك اللحظة بالسرور لأنّه أكل بقايا الأرنب الذي اصطاده لجمرة. فهو لن يحظى بأيّ طعام حتّى يذهب للصيد غداً من جديد.

مشى بسّ النار نحو بسّ رمادي. كان صديقه قد ملأ بطنه وتمدّد مع بسّ أدهم خارج وكر المبتدئين. تمدّد على جنبه وراح يلعق ساقه الأمامية بحركة منتظمة.

رآه بسّ رمادي وهو يقترب، فتوقّف عن لعق فراءه وسأل: "هل أخبرتك نجمة الصباح بعقوبتك؟".

أجاب بسّ النار بكآبة: "ليس بعد"، فنظر إليه بسّ رمادي بتعاطف ولم يقل شيئاً.

تردّد نداء نجمة الصباح في أرجاء الفسحة: "كلّ القطط القادرة على اصطياد فريستها

بنفسها مدعوّة إلى اجتماع للعشيرة".

كان معظم المحاربين قد أنهوا طعامهم وانشغلوا بتنظيف أنفسهم على غرار بسّ رمادي. فوقفوا برشاقة واتّجهوا إلى الصخرة العالية التي كانت نجمة الصباح تنتظرهم عندها.

قال بسّ رمادي: "هيّا بنا". هبّ واقفاً وتبعه بسّ أدهم وبسّ النار الذي وقف ومشى بوقار.

قالت نجمة الصباح: "أنا واثقة أنّكم سمعتم بالأسيرة التي أحضرناها معنا اليوم. لكن ثمّة أمر ينبغي أن تعرفوه". نظرت إلى الهرّة المشعّثة الممدّدة بجانب الصخرة العالية وسألتها: "هل يمكنك سماعي من هناك؟".

أجابتها جمرة بنبرة لاذعة: "قد أكون مسنّة، لكنّني لم أصبح صمّاء بعد!".

تجاهلت نجمة الصباح نبرة الأسيرة العدائية وتابعت تقول: "أخشى أنّني أحمل بعض الأنباء السيّئة. فقد ذهبت اليوم مع دورية إلى أراضي عشيرة الرياح، ووجدنا الهواء عابقاً برائحة عشيرة الظلال. كان قد تمّ رشّ كلّ الأشجار تقريباً من قبل محاربي تلك العشيرة. ولم نلتقِ في طريقنا بأيّ من قطط عشيرة الرياح، علماً أنّنا توغّلنا عميقاً في أراضيهم".

خيّم الصمت إثر كلامها، ولاحظ بسّ النار الإرباك الذي طغى على وجوه قطط العشيرة.

سألها شمشوم بتردّد: "هل تعنين أنّ عشيرة الظلال أخرجتهم من أرضهم؟".

أجابت نجمة الصباح: "لسنا واثقين، لكنّ المؤكّد هو أنّ رائحة عشيرة الظلال كانت منتشرة في كلّ مكان. وجدنا دماء أيضاً، وفراء متناثراً. وهذا يشير إلى وقوع معركة، مع أنّنا لم نجد جثثاً لأيّ من العشيرتين".

علا مواء الاستغراب من الحشد، وشعر بسّ النار أنّ الغضب والصدمة سيطرا على من حوله، إذ لم يسبق مطلقاً أن قامت عشيرة بإخراج أخرى من أرضها.

سألت عوراء بصوت خشن: "كيف يمكن أن تطرَد عشيرة الرياح؟ صحيح أنّ عشيرة الظلال شرسة، لكنّ عشيرة الرياح كثيرة العدد. فقد عاشت في المرتفعات لأجيال عديدة، لماذا يتمّ إخراجها الآن؟". هزّت رأسها بتوتّر، وارتجف شاربها.

قالت نجمة الصباح: "لا أستطيع الإجابة عن تساؤلاتكم. فمن المعروف أنّ عشيرة الظلال عيّنت مؤخّراً زعيماً جديداً بعد وفاة النجم الأشعث. ولم يُلمح زعيمها الجديد، النجم نمرود، إلى أيّ تهديد عندما التقينا به في الاجتماع الأخير".

قال النمر الأسود: "ربّما كانت جمرة تملك أجوبة، ففي النهاية هي تنتمي إلى عشيرة الظلال!".

ردّت جمرة وهي ترمق النمر الأسود بعدائية: "أنا لست بخائنة! ولا شيء يجبرني على

إفشاء أسرار عشيرة الظلال لوحش مثلك!". تقدّم المحارب إلى الأمام خافضاً أذنيه، وزمّ عينيه استعداداً للقتال.

صاحت نجمة الصباح: "توقّف!".

توقّف النمر الأسود فوراً، مع أنّ جمرة ظلّت ترمقه وتهسّ بشراسة.

قالت نجمة الصباح: "كفى! الخطر جدّي والوضع لا يسمح بأن نتقاتل. على عشيرة الرعد أن تستعدّ. وبدءاً من هذه الليلة، سيتنقّل المحاربون في مجموعات أكبر. أمّا بقيّة أعضاء العشيرة فسيبقون على مقربة من المخيّم، وستذهب الدوريات لمراقبة الحدود أكثر من ذي قبل، كما أنّ كلّ الصغار سيمكثون في الحضانة".

هزّت القطط المجتمعة في الأسفل رؤوسها موافقة.

تابعت زعيمة العشيرة: "حاجتنا إلى المحاربين هي العائق الأكبر، لذلك علينا الإسراع في تدريب تلامذتنا. عليهم أن يكونوا مستعدّين في أسرع وقت للدفاع عن العشيرة".

رأى بسّ النار كيف تبادل بسّ أغبر وبسّة الرمال نظرات الفرح، بينما حدّق بسّ رمادي إلى نجمة الصباح بعينين واسعتين ومليئتين بالحماسة. أمّا بسّ أدهم فأخذ يحرّك أكفّه بتوتّر، وقد طغى القلق على عينيه.

تابعت نجمة الصباح: "أحد الهررة الشابّة كان يتدرّب مع بسّ رمادي وبسّ أدهم على يد المدرّب نفسه. إن قمت أنا بتدريبه، سأسرّع عمليّة تدريب التلامذة الثلاثة جميعاً". صمتت قليلاً ثمّ نظرت إلى أفراد العشيرة وأضافت: "سأتولّى تدريب بسّ النار بنفسي".

فتح بسّ النار عينيه مذهولاً. هل ستكون نجمة الصباح مدرّبته؟

شهق بسّ رمادي الواقف إلى جانبه، ولم يستطع إخفاء دهشته. "يا لهذا الشرف! مضت أشهر منذ أن قامت نجمة الصباح بتدريب أحد. فهي لا تدرّب عادة سوى أبناء النوّاب!".

فجأة، علا صوت النمر الشرس بين الحاضرين. "إذاً ستتمّ مكافأة بسّ النار عوضاً عن معاقبته على إطعام محاربة من الأعداء عوضاً عن إطعام عشيرته".

أجابت نجمة الصباح: "بسّ النار أصبح تلميذي الآن وأنا سأتعامل معه". ثمّ حدّقت إلى عيني النمر الشرس المليئتين بالحقد للحظة قبل أن ترفع رأسها لتنظر إلى الحشد بأكمله مجدّداً: "ستبقى جمرة هنا حتّى تستعيد عافيتها، فنحن محاربون ولسنا وحوشاً. لذلك ستُعامل باحترام ولياقة".

اعترض النمر الأسود: "لكنّ العشيرة لا تستطيع إعالة جمرة، فنحن نملك كثيراً من الأفواه أساساً".

همس بسّ رمادي في أذن بسّ النار: "صحيح! وبعضها أكبر من غيرها!".

قالت جمرة: "أنا لا أحتاج إلى رعاية أحد! لا بل سأمزّق كلّ من يحاول ذلك!".

تمتم بسّ رمادي: "كم هي ودودة، أليس كذلك؟".

حرّك بسّ النار طرف ذيله موافقاً، وصدر مواء مكتوم عن بقيّة المحاربين الذين عرفوا في المحاربة العدوّة روح القتال.

تجاهلت نجمة الصباح الهمهمات. "سنصطاد فريستين بضربة واحدة. بسّ النار، عقاباً لك على خرق قانون المحاربين، فإنّك ستتولّى رعاية جمرة. ستصطاد لها وتداوي جراحها. كما أنّك ستجهّز لها فراشاً نظيفاً وتنظّف قذارتها".

أجاب بسّ النار بخضوع: "حسناً يا نجمة الصباح". وقال في سرّه، أنظّف أوساخها! ياه!

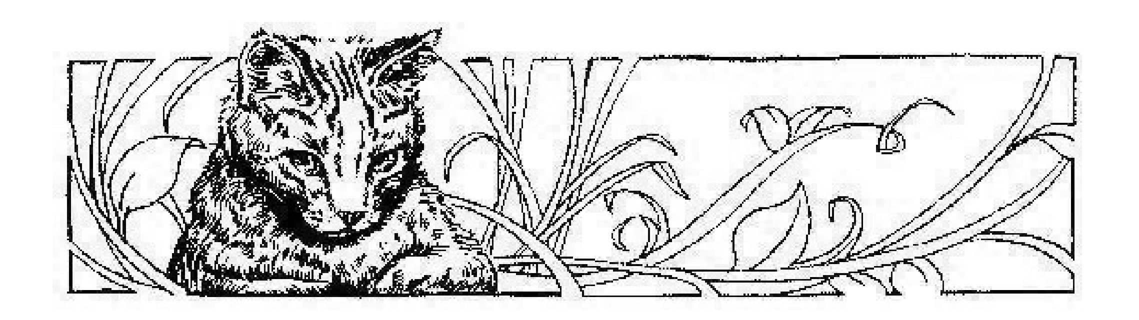
صدر مواء ساخر عن بسّ أغبر وبسّة الرمال. همس الأوّل: "يا لها من فكرة جيّدة! لا شكّ أنّ بسّ النار بارع في التقاط البراغيث!".

وأضافت الأخرى: "وفي الصيد أيضاً! فكيس العظام هذا يحتاج إلى طعام!".

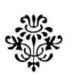
قاطعتهما نجمة الصباح: "كفى! آمل ألّا يخجل بسّ النار من رعاية جمرة، فهي مداوية ومسنّة، وهذان سببان كافيان لاحترامها!". ألقت نظرة حادّة على بسّ أغبر وبسّة الرمال وأضافت: "لا توجد مذلّة في رعاية هرّة أخرى عندما تكون عاجزة عن رعاية نفسها. انتهى الاجتماع. والآن أرغب في الحديث مع كبار المحاربين على انفراد". ثمّ نزلت عن الصخرة العالية وتوجّهت إلى وكرها.

تبعها قلب الأسد، بينما أخذت بقيّة القطط تبتعد عن الصخرة العالية. قام بعضهم بتهنئة بسّ النار على اختياره مبتدئاً من قبل نجمة الصباح، بينما سخر منه آخرون وتمنّوا له الحظّ خلال رعايته لجمرة. أمّا بسّ النار فطغت عليه الدهشة بعد إعلان نجمة الصباح بحيث اكتفى بهزّ رأسه بشرود.

أتى إليه النمر الذيّال. كان الشقّ الذي أحدثه في أذن الهرّ ما زال بادياً. تراجع شارب المحارب الشابّ في تكشيرة قبيحة وهو يقول ساخراً: "حسناً، أتمنّى أن تفكّر مرّتين قبل إحضار قطط مشرّدة إلى المخيّم في المرّة القادمة. فكما سبق وقلت، الدخلاء لا يأتي منهم أيّ خير".



الفصل 9



همس بسّ رمادي بينما كان النمر الذيّال يبتعد: "لو كنت مكانك، لذهبت للاطمئنان على جمرة، فهي لا تبدو سعيدة".

نظر بسّ النار إلى الهرّة العجوز التي كانت لا تزال ممدّدة بجانب الصخرة العالية. كان بسّ رمادي على حقّ، إذ وجدها ترمقه.

ماء قائلاً: "حسناً، سأذهب. تمنَّ لي التوفيق!".

أجابه بسّ رمادي: "ستحتاج إلى دعم كلّ عشيرة النجوم في هذه المهمّة. نادني إن احتجت إلى المساعدة. إن شعرتُ أنّها تنوي الهجوم عليك، سأتسلّل من خلفها وأضربها على رأسها بجثّة أرنب متيبّسة".

خرخر بسّ النار بمرح وذهب إلى جمرة. لكن سرعان ما تبدّد مرحه وهو يقترب من الهرّة الجريحة.

من الواضح أنّ الهرّة العجوز كانت في مزاج فظيع. فقد هسّت محذّرة وكشّرت عن أنيابها قائلة: "قف هنا أيّها البسبوس الأليف!".

تنهّد بسّ النار وشعر أنّ شجاراً ينتظره. غير أنّ إحساس الجوع لم يفارقه بعد، وقد بدأ التعب يستبدّ به. تاق ليتكوّر في فراشه ويأخذ قيلولة بعد الظهيرة، وآخر ما أراده الآن هو الشجار مع هذه الكتلة البائسة من الفراء والأسنان. ماء بصوت منهك: "قولي ما تشائين، أنا أنفّذ وحسب أوامر نجمة الصباح".

قالت جمرة بحدّة: "لكنّك بسبوس أليف بالفعل، أليس كذلك؟".

وجدها منهكة هي الأخرى، لأنّ صوتها كان أقلّ غضباً، مع أنّ نبرتها ظلّت مفعمة

بالازدراء كالعادة.

أجابها بهدوء: "عندما كنت هرّاً صغيراً كنت أعيش مع ذوي الساقين".

"وكذلك كانت أمّك؟ وأبوك؟".

"أجل، كانا كذلك". نظر بسّ النار إلى الأرض وشعر باستياء كبير. يكفيه أنّ قطط عشيرته ما زالوا يعتبرونه دخيلاً، وليس مضطرّاً بالتأكيد للإجابة عن أسئلة هذه الأسيرة ذات المزاج السيّئ.

يبدو أنّ جمرة اعتبرت صمته دعوة للمتابعة. "لكنّ الدماء التي تجري في عروق البسابيس الأليفة ليست كدماء المحاربين، فلماذا لا تفرّ عائداً إلى المنزل الذي نشأت فيه عوضاً عن رعايتي؟ من المهين أن أتلقّى العناية من هرّ وضيع الأصل مثلك!".

نفد صبر بسّ النار، فردّ عليها قائلاً: "لن تشعري بمهانة أقلّ لو كنت ابن محارب. فالإحساس بالعار سيلازمك سواء أكنتُ هرّاً عريق الأصل من عشيرتك أو واحداً من ذوي الساقين أتى يلمّك عن الأرض". راح يهزّ ذيله من جانب إلى آخر متابعاً: "فما يُشعرك بالمهانة هو الاعتماد على أيّ هرّ على الإطلاق!".

حدّقت إليه جمرة بعينين برتقاليتين مذهولتين.

واصل بسّ النار هجومه الشرس. "عليك الاعتياد على قبول المساعدة حتّى تصبحي قادرة على رعاية نفسك أيّتها العجوز الهزيلة الحقودة!".

صمت عندما بدأت جمرة تصدر أزيزاً منخفضاً وخشناً.

شعر بالقلق، فخطا نحوها. كانت الهرّة ترتعش وقد ضاقت عيناها وتحوّلتا إلى فتحتين صغيرتين. هل تعاني من نوبة يا ترى؟

"اسمعي، أنا لم أعنِ..." ثمّ أدرك فجأة أنّها كانت تضحك!

تصاعدت قرقرة هادرة من أعماق صدرها، فلم يعرف بسّ النار ماذا يفعل.

توقّفت عن الضحك أخيراً وقالت بصوت خشن: "أنت شجاع أيّها البسبوس الأليف. والآن أنا متعبة، وساقي تؤلمني. أحتاج إلى النوم وإلى شيء أضعه على هذا الجرح. اذهب وأحضر هرّتكم المداوية الجميلة واطلب منها جلب بعض الأعشاب. أعتقد أنّ كمادة من زهرة العود الذهبي ستفيدني. وبينما أنت تبحث عن الزهرة، لا أمانع بمضغ بعض بذور الخشخاش، فالألم يكاد يقتلني!".

فوجئ بسّ النار بتبدّل مزاجها، فاستدار وذهب مسرعاً إلى وكر الورقة الرقطاء.

لم يكن قد سبق له أن زار هذا الجزء من المخيّم. فراح يمشي عبر نفق أخضر من نبات

الخنشار يؤدّي إلى فسحة عشبية صغيرة، ورفع أذنيه ترقّباً. رأى في إحدى الجهات صخرة طويلة يشقّها صدع عريض في الوسط يتّسع لوكر هرّة. خرجت الورقة الرقطاء من تلك الفتحة وبدت كعادتها نضرة وودودة، بينما لمع فراؤها المرقّط بمئات الظلال العنبرية والبنّية.

ألقى عليها بسّ النار تحيّة خجولة، وأعطاها قائمة الأعشاب والبذور التي تحتاج إليها جمرة.

أجابته الورقة الرقطاء: "معظمها موجود في وكري، سأحضر بعض أوراق الآذريون أيضاً لكي لا يلتهب الجرح. انتظرني هنا".

شكر بسّ النار الهرّة المداوية التي عادت إلى وكرها. حاول أن يسترق نظرة إلى الداخل، لكنّ الوكر كان معتماً جدّاً ولم يستطع رؤية شيء، بل سمع وحسب خشخشة الأوراق واشتمّ روائح أعشاب غير مألوفة.

خرجت الورقة الرقطاء من ظلام وكرها ووضعت عند قدمي بسّ النار حزمة من الأوراق. "اطلب من جمرة ألّا تكثر من بذور الخشخاش، فأنا لا أريدها أن توقف الألم تماماً، ذلك أنّ بعض الألم يساعدني على معرفة مدى تجاوبها مع العلاج".

هزّ بسّ النار رأسه ثمّ حمل الأعشاب بأسنانه. ماء بفمه الممتلئ: "شكراً لك!". ثمّ عاد أدراجه عبر نفق الخنشار إلى الفسحة الرئيسة.

كان النمر الشرس جالساً خارج وكر المحاربين، يراقبه عن كثب. فحمل الأعشاب لجمرة وهو يشعر بنظرات العينين العنبريتين على ظهره. التفت ونظر إلى النمر الشرس بفضول، فزمّ المحارب عينيه وأشاح بنظره.

وضع بسّ النار الرزمة بجانب جمرة، فماءت قائلة: "جيّد. والآن قبل أن تتركني بسلام، أحضِر لي شيئاً آكله، فأنا أتضوّر جوعاً!".

أشرقت الشمس ثلاث مرّات منذ دخول جمرة إلى المخيّم. استيقظ بسّ النار باكراً ووكز بسّ رمادي الذي كان لا يزال نائماً بجانبه، وقد دسّ أنفه تحت ذيله الكثيف. قال له بسّ النار: "انهض وإلاّ ستتأخّر على التدريب".

رفع بسّ رمادي رأسه وقد بدا عليه النعاس وزمجر موافقاً، لكن على مضض.

حثّ بسّ النار زميله بسّ أدهم ليستيقظ هو الآخر. ففتح الهرّ الأسود عينيه فوراً وهبّ واقفاً. ماء وهو ينظر حوله بفزع: "ما الأمر؟".

حاول بسّ النار أن يهدّئ من روعه قائلاً: "اهدأ يا بسّ أدهم، لقد حان وقت التدريب".

بدأ كلّ من بسّ أغبر وبسّة الرمال، النائمَين في فراشَين من الطحالب في الجهة الأخرى من الوكر، يستيقظان هما أيضاً. وقف بسّ النار وشقّ طريقه عبر نباتات الخنشار.

كان الصباح دافئاً، فقد استطاع رؤية بقعة من السماء الزرقاء الصافية من خلال الأوراق والأغصان التي تظلّل المخيّم. لكن اليوم، لمعت حبّات الندى الكبيرة على أوراق الخنشار والعشب الذي يكسو أرض الغابة. تنسّم بسّ النار الهواء. لقد أوشك فصل الحرّ على الانتهاء وقريباً سيصبح الجوّ أبرد.

تمدّد وراح يتقلّب على الأرض بجانب جذع الشجرة، يمدّد ساقيه ويحفّ رأسه على الأرض الباردة. تمدّد بعد ذلك على جنبه ونظر باتّجاه جمرة ليرى إن كانت قد استيقظت.

كان قد خُصّص لها مكان تنام فيه عند الطرف الآخر من الشجرة المقطوعة التي يجتمع عندها كبار السنّ لتناول طعامهم. وُضع فراشها بجانب الجذع المكسوّ بالطحالب بعيداً عن مسامع العجائز، لكن على مرأى من وكر المحاربين الواقع في الجهة المقابلة من الفسحة. رأى بسّ النار كومة فراء رمادي تعلو وتنخفض بانتظام على وقع أنفاس الهرّة النائمة.

خرج بسّ رمادي من الوكر خلفه، وفي أعقابه بسّة الرمال وبسّ أغبر. أطلّ بسّ أدهم بعدهم، وراح ينظر بعصبية في أرجاء الفسحة قبل أن يخرج تماماً من ملجئه.

ماء بسّ أغبر: "ينتظرك يوماً آخر من العناية بكيس البراغيث العجوز ذاك، أليس كذلك يا بسّ النار؟ أنا واثق أنّك تتمنّى الخروج والتدرّب معنا".

جلس بسّ النار وراح ينفض الغبار عن فرائه. لم يكن ينوي السماح لبسّ أغبر بإفساد مزاجه.

تمتم بسّ رمادي: "لا تقلق يا بسّ النار. ستستأنف نجمة الصباح تدريبك قريباً".

ماءت بسّة الرمال بقسوة وهي ترفع رأسها الأملس والأشقر وترميه بنظرة حقودة: "ربّما ظنّت أنّه من الأفضل بقاء البسبوس الأليف في المخيّم ورعاية المرضى".

قرّر بسّ النار تجاهل تعليقاتها الجارحة، وسألها: "ماذا سيعلّمكم الرعب الأبيض اليوم يا بسّة الرمال؟".

أجابته بفخر: "سنتدرّب اليوم على القتال. سيعلّمني كيف يقاتل المحارب الحقيقي".

قال بسّ رمادي: "أمّا أنا فسيصطحبني قلب الأسد إلى الجمّيزة العظيمة لأتدرّب على التسلّق. يجدر بي الانطلاق، فلا بدّ أنّه بانتظاري".

قال بسّ النار: "سأرافقك إلى أعلى الوادي، إذ عليّ اصطياد فطور لجمرة. هل أنت آتٍ يا بسّ أدهم؟ لا شكّ أنّ النمر الشرس سيكلّفك بشيء ما".

تنهّد بسّ أدهم وهزّ رأسه موافقاً، ثمّ تبع بسّ رمادي وبسّ النار إلى خارج المخيّم. صحيح أنّ إصابته شفيت تماماً، لكن يبدو أنّه ما زال غير متحمّس للتدرّب على القتال.

"إليك طعامك". وضع بسّ النار فأراً كبيراً وطائر صعنج على الأرض بجانب جمرة.

تمتمت قائلة: "لقد استغرقت في النوم". كانت الهرّة لا تزال نائمة عند عودة بسّ النار إلى المخيّم من رحلة الصيد. لكن لا بدّ أنّ رائحة الصيد الطازج أيقظتها، فنهضت وجلست.

خفضت رأسها وبدأت تأكل بنهم الطعام الذي أحضره بسّ النار. كانت شهيتها قد تحسّنت جدّاً مع استعادتها لقواها. فجرحها يتماثل للشفاء، لكنّ مزاجها بقي عدوانياً ولا يمكن توقّعه كالعادة.

أنهت وجبتها وتذمّرت قائلة: "أشعر بحكّة رهيبة عند أسفل ذيلي، لكنّني لا أستطيع الوصول إليه. هلّا لعقته عنّي؟".

ارتعد بسّ النار وهو يفكّر بالمهمّة التي تنتظره، إلّا أنّه جلس وبدأ العمل.

بينما كان يسحق البراغيث السمينة بين أسنانه، رأى مجموعة من القطط الصغيرة تتقلّب على التراب في الجوار. كانت تدفع بعضها وتتعارك بمرح، على نحو مؤذٍ تقريباً. كانت أغمضت جمرة قد عينيها بينما كان بسّ النار ينظّفها، ففتحت عيناً واحدة لمراقبة القطط وهي تلعب. ففوجئ عندما أحسّ بعمودها الفقري يتصلّب تحت أسنانه.

أصغى قليلاً إلى صيحات الصغار.

ماء هرّ صغير مخطّط قائلاً: "هل تشعر بأسناني أيّها النجم نمرود؟". ثمّ قفز على ظهر هرير رمادي وأبيض يزعم أنّه زعيم عشيرة الظلال. وراح الصغيران يتشقلبان باتّجاه الصخرة العالية. فجأة، وقف الهرير الرمادي والأبيض ورمى الهرير المخطّط عن ظهره. فصاح الصغير وطار ليحطّ بالقرب منا جمرة.

على الفور، قفزت الهرّة العجوز على قدميها، وانتصب فراؤها ثمّ هسّت قائلة بعنف: "لا تقترب منّي يا كتلة الفراء!".

ألقى الصغير المخطّط نظرة واحد على الهرّة الغاضبة، ثمّ استدار وفرّ هارباً ليختبئ خلف هرّة مخطّطة راحت تحدّق غاضبة إلى جمرة.

أمّا الهرير الرمادي والأبيض فجمد في مكانه، ثمّ راح يتراجع خطوة خطوة عائداً إلى أمان الحضانة.

صُدم بسّ النار من ردّ فعل جمرة. ظنّ أنّه رآها في أسوأ حالاتها عندما تعاركا بعد لقائهما الأوّل، لكنّه لمح غضباً جديداً في عينيها الآن. ماء بحذر: "أعتقد أنّ الهررة الصغيرة ضاقت ذرعاً من بقائها في المخيّم، وأصبحت كثيرة الحركة".

احتجّت جمرة قائلة: "لا آبه بما تشعر به، المهمّ أن تبقى بعيدة عنّي!".

سألها بسّ النار بفضول: "ألا تحبّين الصغار؟ ألم يسبق لك أن أنجبت؟".

هسّت جمرة بغيظ: "ألا تعرف أنّ الهرر المداوية لا تنجب؟".

غامر بسّ النار قائلاً: "لكن سمعت أنّك كنت محاربة قبل ذلك".

ردّت عليه بحدّة: "أنا لم أنجب!". ثمّ انتزعت ذيلها منه وأضافت بصوت أكثر انخفاضاً، بدا حزيناً تقريباً: "على أيّ حال، يبدو أنّ الحوادث تقع للصغار عندما أكون قريبة منهم".

طغى الانفعال على عينيها البرتقاليتين. فأسندت ذقنها على كفّيها الأماميين وحدّقت أمامها. راقب بسّ النار كتفيها ينخفضان وهي تطلق تنهيدة طويلة صامتة.

نظر إليها بفضول وتساءل عن معنى كلامها. هل كانت الهرّة العجوز جادّة؟ في الواقع، يصعب تحديد ذلك، إذ يبدو أنّ مزاج جمرة سريع التقلّب. هزّ كتفيه ثمّ تابع عمله.

قال لها بعدما انتهى: "بقيت بضع قرادات لم أستطع انتزاعها".

أجابته بنبرة لاذعة: "آمل ألّا تكون قد حاولت أيّها الأحمق، فأنا لا أريد رؤوس قرادات مغروزة في مؤخّرتي، شكراً جزيلاً. اطلب من الورقة الرقطاء إعطاءك القليل من صفراء الفئران لأفركها بها. فعند دخول ذاك السائل في أنوفها ترتخي قبضتها فوراً".

قال بسّ النار: "سأحضر لك القليل حالاً!". اقتنص فرصة الابتعاد عن الهرّة المستاءة لبعض الوقت، لا سيما وأنّه لا يمانع الذهاب لرؤية الورقة الرقطاء مجدّداً.

توجّه نحو نفق الخنشار. كانت القطط تتجوّل في الفسحة حاملة أعواداً وأغصاناً بين أسنانها. فبينما كان منهمكاً بتنظيف جمرة، راح المخيّم يعجّ بالحركة. وهذا كان حاله منذ أن أعلنت نجمة الصباح اختفاء عشيرة الرياح. كانت قطط الحضانة تحيك الأغصان والأوراق لصنع جدار أخضر كثيف حول الحضانة، بحيث يكون المدخل الضيّق هو الطريق الوحيد للدخول والخروج منها. وراحت قطط أخرى تعمل على أطراف المخيّم، وتملأ الفراغات في الأجمات الكثيفة.

حتّى القطط المسنّة انشغلت في حفر جحر في الأرض. أخذ المحاربون يمرّون باطّراد، حاملين الفرائس التي كانت تُجمع في كومة بجانب القطط المسنّة من أجل تخزينها في الجحر. ساد جوّ من الهدوء والتركيز والتصميم على جعل العشيرة آمنة ومموّنة قدر الإمكان بموارد البقاء.

في حال قيام عشيرة الظلال بأيّ محاولة لدخول أرض عشيرة الرعد، ستحتمي القطط داخل المخيّم، ولن تسمح باقتيادها إلى خارج أراضيها بسهولة مثلما فعلت عشيرة الرياح.

كان كلّ من النمر الأسود، والنمر الذيّال، وغصن الصفصاف، وبسّ أغبر ينتظرون بصمت عند مدخل المخيّم. تركّزت أنظارهم على الفتحة المؤدّية إلى النفق. عدت دورية للتوّ، وكانت مكسوّة بالغبار ومنهكة. ما إن دخل المحاربون المخيّم، حتّى اقترب منهم النمر الأسود ورفاقه وتبادلوا معهم الحديث. بعد ذلك، غادروا المخيّم بسرعة، ذلك أنّ حدود عشيرة الرعد لم تكن تُترك بلا حراسة ولا للحظة واحدة.

دخل بسّ النار نفق الخنشار المؤدّي إلى وكر الورقة الرقطاء. عندما وصل إلى الفسحة الصغيرة، رأى الهرّة المداوية تحضّر أعشاباً ذات رائحة حلوة.

سألها: "هلّا أعطيتني قليلاً من صفراء الفئران من أجل قرادات جمرة؟".

راحت الورقة الرقطاء تضغط بكفّها على كومتين من الأعشاب وتخلطهما معاً بمخلبها بعناية. قالت: "لحظة واحدة".

سألها وهو يجلس في بقعة دافئة: "هل أنت مشغولة؟".

نظرت إليه بعينيها العنبريتين الصافيتين وتمتمت قائلة: "أنا أستعدّ لأيّ إصابات طارئة". التقت نظراتهما للحظة قبل أن يشيح بسّ النار بنظره وقد ساوره إحساس غير مريح. أعادت الورقة الرقطاء انتباهها إلى الأعشاب.

انتظر وقد سرّه الجلوس بهدوء ومراقبتها وهي تعمل.

قالت أخيراً: "حسناً، ماذا تريد؟ صفراء الفئران؟".

"نعم من فضلك". وقف ومدّد ساقيه الخلفيتين. كانت الشمس قد دفّأت فراءه وجعلته يشعر بالنعاس.

دخلت الورقة الرقطاء إلى وكرها ثمّ عادت حاملة شيئاً بحذر في فمها. كان عبارة عن كرة صغيرة من الطحالب تتدلّى من طرف قطعة رقيقة من لحاء الشجر. مرّرتها لبسّ النار، فشعر بنفَسها الدافئ وهو يتناول قطعة اللحاء بأسنانه.

قالت له الورقة الرقطاء: "الطحالب مبلّلة بالصفراء. لا تدعها تلامس فمك وإلّا ستشعر بطعم كريه لأيّام. اضغطها على القرادات ثمّ اغسل كفّيك بالماء وليس بلسانك!".

هزّ بسّ النار رأسه موافقاً ثمّ عاد إلى جمرة مليئاً بالفرح وبطاقة جديدة.

قال للهرّة العجوز: "ابقي ساكنة!". ثمّ استخدم كفّيه الأماميتين ليضغط على كلّ قرادة.

قالت له عندما انتهى: "يمكنك تنظيف قذارتي ما دامت كفّاك كريتهي الرائحة أساساً! أمّا أنا فسآخذ غفوة". تثاءبت وبدت أسنانها السوداء والمكسورة. يبدو أنّ دفء الشمس جعلها تشعر بالنعاس هي الأخرى. تمتمت قائلة: "والآن بإمكانك الذهاب والقيام بما يفعله المبتدئون".

بعدما نظّف بسّ النار قذارة جمرة، تركها تغفو ثمّ توجّه إلى نفق القندول عند مدخل المخيّم قاصداً الجدول ليغسل أكفّه.

ناداه صوت من أطراف الفسحة: "بسّ النار!".

التفت بسّ النار ووجد الذيل الأبتر يكلّمه.

سأله الهرّ المسنّ بفضول: "إلى أين أنت ذاهب؟ عليك المساعدة في التجهيزات".

أجابه: "كنت أضع الصفراء على قرادات جمرة".

هزّ الذيل الأبتر شاربه بشيء من التسلية وقال: "أنت ذاهب إذاً إلى أقرب جدول! حسناً، لا تعد من دون صيد، فنحن بحاجة إلى أكبر كمية ممكنة".

"حسناً".

خرج من المخيّم ووصل إلى سفح الوادي. نزل إلى الجدول الذي اصطاد عنده هو وبسّ رمادي عندما عثر على جمرة. ومن دون تردّد، قفز إلى الماء البارد والصافي. وصلت المياه إلى وركيه وبلّلت فراء بطنه، فارتعش وشهق من أثر الصدمة.

سمع خشخشة صادرة عن الأجمات فوقه، فنظر إلى الأعلى، مع أنّه عرف من الرائحة المألوفة التي بلغت أنفه أنّ لا شيء يدعو إلى القلق.

كان بسّ رمادي وبسّ أدهم واقفَين ينظران إليه كأنّه فقد عقله. "ماذا تفعل هناك؟".

أجابهما مكشّراً: "لوّثت كفيّ بصفراء الفئران. من الأفضل ألّا تسألا! أين قلب الأسد والنمر الشرس؟".

أجاب بسّ رمادي: "ذهبا للانضمام إلى الدورية التالية، وأمرانا بتمضية بقيّة ما بعد الظهيرة في الصيد".

قال بسّ النار وهو يُجفل مع مرور تيّار بارد على أكفّه: "طلب منّي أبتر الشيء نفسه. فالكلّ مشغولون في المخيّم كأنّنا سنتعرّض لهجوم وشيك". صعد إلى الضفّة والماء يقطر منه.

قال بسّ أدهم: "ومن قال إنّنا لن نتعرّض لهجوم وشيك؟". راحت عيناه تتحرّكان من جهة إلى أخرى كأنّه يتوقّع أن يقفز العدوّ من بين الشجيرات في أيّ لحظة.

نظر بسّ النار إلى كومة الصيد بجانب المبتدئين. "يبدو أنّ الحظّ حالفكما اليوم".

قال بسّ رمادي بفخر: "أجل، وما زال لدينا الوقت. هل تريد الانضمام إلينا؟".

خرخر بسّ النار: "بالطبع". ثمّ نفض نفسه لمرّة أخيرة قبل أن يلحق بصديقيه.

من الواضح أنّ قطط المخيّم أعجبت بكمّية الصيد التي عاد بها المبتدئون الثلاثة بعد جولتهم عصر ذلك اليوم. فقد تمّ استقبالهم بأذيال مرفوعة وسلامات وديّة بالأنف. واحتاجوا إلى أربع رحلات لنقل صيدهم إلى الجحر الذي حفره المسنّون.

كان قلب الأسد والنمر الشرس قد عادا للتوّ من دوريتهما عندما أحضر بسّ النار وبسّ رمادي وبسّ أدهم حِملهم الأخير.

قال قلب الأسد: "أحسنتم يا شباب، سمعت أنّكم عكلتم بجدّ، فقد امتلأ المخزن تقريباً.

يمكنكم إضافة هذا الحِمل الأخير إلى كومة الطرائد التي سنتناولها هذه الليلة. خذوا أيضاً بعضاً منها إلى وكركم، فأنت تستحقّون مأدبة!".

هزّ المبتدئون الثلاثة أذيالهم فرحاً.

زمجر النمر الشرس محذّراً: "آمل ألّا تكون قد أهملت جمرة خلال انشغالك بكلّ هذا الصيد يا بسّ النار".

هزّ بسّ النار رأسه بنفاد صبر، وكان توّاقاً للفرار منه. فهو يتضوّر جوعاً، لا سيّما وأنّه احترم قانون المحاربين هذه المرّة ولم يتناول لقمة واحدة بينما كان يصطاد للعشيرة، لا هو ولا صديقاه.

انطلقوا ووضعوا آخر حمل لهم فوق الصيد الذي كان مكوّماً في وسط الفسحة. بعد ذلك أخذ كلّ منهم قطعة إلى جذع الشجرة المجاور لوكرهم. كان الوكر خالياً.

سأل بسّ أدهم: "أين هما بسّ أغبر وبسّة الرمال؟".

قال بسّ النار: "لا بدّ أنّهما في دورية".

قال بسّ رمادي: "هذا جيّد، سننعم ببعض السكينة".

أكلوا حتّى شبعوا، ثمّ جلسوا ينظّفون أنفسهم، مستمتعين بهواء الليل البارد بعد حرّ النهار.

قال بسّ رمادي فجأة: "احزر ماذا حدث اليوم؟ لقد تمكّن بسّ أدهم من انتزاع مديح من كبيرنا النمر الشرس هذا الصباح!".

شهق بسّ النار قائلاً: "حقّاً؟ وما الذي فعلتَه وأفرح النمر الشرس، هل تمكّنت من الطيران؟".

أجاب بسّ أدهم بخجل وهو ينظر إلى أكفّه: "في الواقع، قمت باصطياد غراب".

ماء بسّ النار بإعجاب: "وكيف فعلت ذلك؟".

اعترف بتواضع: "كان غراباً مسنّاً".

أضاف بسّ رمادي: "لكنّه كان ضخماً، وحتّى النمر الشرس لم يستطع التعليق سلباً على ذلك! فهو في مزاج سيّئ جدّاً منذ أن قرّرت نجمة الصباح تدريبك". لعق كفّه بشرود للحظة ثمّ تابع قائلاً: "لحظة واحدة، بل منذ أن عُيّن قلب الأسد نائباً".

قال بسّ أدهم بسرعة: "إنّه قلق وحسب من عشيرة الظلال ومن كثرة الدوريات. عليكما أن تتجنّبا إزعاجه".

قُطع حديثهما بمواء عالٍ صادر من الجهة الأخرى من الفسحة.

فهبّ بسّ النار واقفاً وقال: "أوه كلّا، لقد نسيت إعطاء جمرة حصّتها!".

قال بسّ رمادي وهو يقف فوراً: "انتظر هنا، سآخذ لها شيئاً".

اعترض بسّ النار: "كلّا من الأفضل أن أذهب أنا، فهذا عقابي وليس عقابك".

أصرّ صديقه قائلاً: "لن يلاحظ أحد، فالكلّ مشغول بالأكل. أنت تعرفني، أنا هادئ مثل فأر وسريع مثل سمكة. انتظر هنا".

جلس بسّ النار مجدّداً، ولم يستطع إخفاء ارتياحه. راقب صديقه وهو يذهب إلى كومة الطرائد.

كما لو أنّ بسّ رمادي ينفّذ الأوامر، حمل بثقة فأرين مليئين بالعصارة، ثمّ توجّه مسرعاً نحو جمرة.

سرعان ما أتاه صوت غاضب من مدخل وكر المحاربين: "قف يا بسّ رمادي!". خرج النمر الشرس من الوكر واتّجه نحوه وسأله: "إلى أين تأخذ هذين الفأرين؟".

شعر بسّ النار بانكماش في معدته وهو يراقب ما يجري عاجزاً عن فعل شيء. بجانبه، جمد بسّ أدهم في مكانه بينما كان يمضغ طعامه وربض فوق وجبته فيما بدا الذهول في عينيه.

أسقط بسّ رمادي الفأرين وراح يحرّك أكفّه بتوتّر قائلاً: "ممم...".

"أنت لا تساعد بسّ النار بإطعام تلك الخائنة الجشعة هناك، أليس كذلك؟".

رأى بسّ النار صديقه وهو ينظر إلى أكفّه للحظة قبل أن يجيب أخيراً: "أنا... أنا كنت أشعر بالجوع وحسب، وكنت أنوي أخذ هذين الفأرين لآكلهما وحدي. ولو سمحت لهذين الاثنين أن يشاركاني بهما" – ونظر إلى بسّ النار وبسّ أدهم – "لن يتركا لي سوى العظام والفراء".

قال النمر الشرس: "آه، حقّاً؟ حسناً، إن كنت جائعاً يمكنك تناولهما هنا حالاً!".

قال بسّ رمادي وهو ينظر إلى المحارب بشيء من الخوف: "لكن–.

"حالاً!".

خفض بسّ رمادي رأسه بسرعة وبدأ يأكل الفأرين. قضى على الأوّل ببضع قضمات وابتلعه بسرعة. أمّا الثاني، فاستغرق منه وقتاً أطول. اعتقد بسّ النار أنّه لن يتمكّن أبداً من ابتلاعه، وتقلّصت معدته تعاطفاً، إلّا أنّ بسّ رمادي تمكّن بصعوبة من ابتلاع آخر لقمة وقضى بذلك على الفأر الثاني.

سأل النمر الشرس بصوت لطيف تشوبه السخرية والتعاطف: "هل شبعت؟".

أجابه بسّ رمادي وهو يكتم تجشّؤاً: "نعم".

"هذا جيّد"، وابتعد النمر الشرس عائداً إلى وكره.

عاد بسّ رمادي بتثاقل إلى صديقيه، فشكره بسّ النار بامتنان وهو يلامس برأسه فراء صديقه الناعم: "شكراً بسّ رمادي، كنت سريع البديهة".

علا مواء جمرة مجدّداً، فتنهّد بسّ النار ونهض. سيحرص على إعطائها ما فيه الكفاية من الطعام لإشباعها طوال الليل. فقد أراد النوم باكراً، ليريح أكفّه المتعبة بعدما أشبع جوعه.

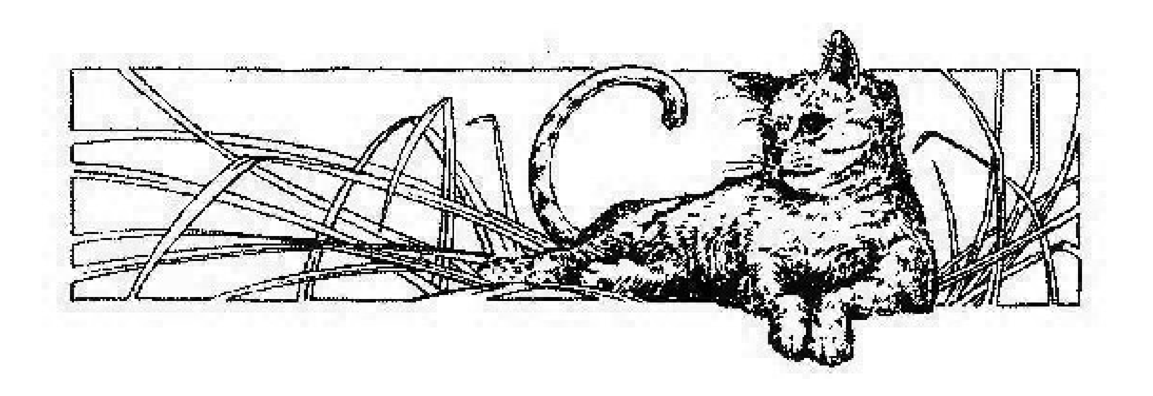
سأل صديقه وهو يستدير ليرحل: "هل أنت بخير يا بسّ رمادي؟".

صدر أنين عن بسّ رمادي قبل أن يربض متألّماً. "لقد أكثرت من الطعام!".

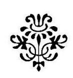
قال له بسّ النار: "اذهب لرؤية الورقة الرقطاء، أنا واثق أنّها ستعطيك شيئاً يساعدك على الهضم".

قال بسّ رمادي: "آمل ذلك". وابتعد ببطء.

أراد بسّ النار أن يراقبه وهو يذهب، لكنّ مواء جمرة الغاضب جعله يسرع لإطعامها.



الفصل 10



في الصباح التالي، تساقط مطر خفيف على رؤوس الأشجار وبلّل الرذاذ المخيّم.

استيقظ بسّ النار وهو يشعر بالبلل. كانت ليلة غير مريحة. وقف ونفض نفسه بقوّة ليجفّف فراءه ثمّ خرج من وكر المبتدئين وذهب إلى جمرة.

كانت الهرّة تستيقظ للتوّ. رفعت رأسها ونظرت بعينين شبه مغمضتين إلى بسّ النار وهو يقترب. "عظامي تؤلمني هذا الصباح. هل كانت تمطر طوال الليل؟".

أجابها: "منذ علوّ القمر". مدّ كفّه وتلمّس فراشها بحذر ثمّ أضاف: "فراشك مبتلّ تماماً. لماذا لا تنتقلين إلى جوار الحضانة؟ فتلك البقعة مظلّلة بالشجر".

اعترضت قائلة: "ماذا؟ وأبقى مستيقظة طوال الليل بسبب مواء الصغار؟ بل أفضّل البلل!".

راقبها بسّ النار وهي تدور بتوتّر فوق فراش الطحالب. فقرّر تغيير موضوع الصغار ما دام يزعج الهرّة العجوز إلى هذا الحدّ وقال: "إذاً دعيني على الأقلّ أحضر لك فراشاً جافّاً".

أجابته بهدوء، وهي تجلس مجدّداً: "شكراً لك يا بسّ النار!".

ذُهل بسّ النار وتساءل ما إذا كانت جمرة بخير. فهذه هي المرّة الأولى التي تشكره فيها ولا تناديه بالبسبوس الأليف.

أخيراً قالت بنبرة قوية: "حسناً، لا تقف هناك مثل سنجاب مدهوش، بل اذهب وأحضر بعض الطحالب!".

انتفض شارب بسّ النار بمرح، فتلك هي جمرة التي يعرفها. هزّ رأسه وانطلق مسرعاً.

أوشك على الاصطدام بالنمرة الشقراء في وسط الفسحة، وهي التي هرّة الحضانة التي شاهدت ثورة جمرة في وجه الهرير المخطّط في اليوم السابق.

ماء قائلاً: "أنا آسف أيّتها النمرة الشقراء، هل أنت ذاهبة لرؤية جمرة؟".

أجابته بعبوس: "وماذا أريد من تلك المخلوقة الغريبة؟ بل كنت أبحث عنك، فنجمة الصباح تريد رؤيتك".

أسرع بسّ النار إلى الصخرة العالية وتوجّه إلى وكر نجمة الصباح.

كانت زعيمة العشيرة جالسة في الخارج، تحرّك رأسها بوتيرة منتظمة وهي تلعق الفراء الرمادي الذي يغطّي رقبتها. توقّفت عندما رأت بسّ النار، فسألته: "كيف حال جمرة اليوم؟".

أجابها: "فراشها مبتلّ، لذلك كنت ذاهباً لأحضر لها مزيداً من الطحالب".

"سأطلب من إحدى هرر الحضانة القيام بذلك". ثمّ لعقت فراءها مرّة أخرى، ونظرت إلى بسّ النار بعناية، قبل أن تسأله: "هل أصبحَت قادرة على اصطياد طعامها بنفسها؟".

"لا أظنّ ذلك، لكنّها تستطيع السير".

"حسناً". بدا عليها الشرود لحظة قبل أن تضيف: "حان الوقت لتستأنف تدريبك يا بسّ النار، لكن عليك أن تعمل بجدّ لتعويض الوقت الضائع".

"عظيم! أعني شكراً لك يا نجمة الصباح!".

تابعت قائلة: "ستخرج هذا الصباح مع النمر الشرس وبسّ رمادي وبسّ أدهم. فقد طلبت من النمر الشرس أن يختبر المهارات القتالية لكلّ مبتدئينا. ولا تقلق على جمرة، سأطلب من أحدهم رعايتها في غيابك".

هزّ بسّ النار رأسه موافقاً.

قالت نجمة الصباح: "والآن، انضمّ إلى صديقيك، فأنا أظنّ أنّهم بانتظارك".

قال: "شكراً لك يا نجمة الصباح". واستدار وهو يحرّك ذيله فرحاً ثمّ انطلق إلى وكره.

كانت نجمة الصباح على حقّ. فقد وجد بسّ رمادي وبسّ أدهم بانتظاره بجانب جذع الشجرة. بدا بسّ رمادي متوتّراً وغير مرتاح، وكان فراؤه مثقلاً برطوبة الهواء. أمّا بسّ أدهم فأخذ يروح ويجيء بشرود بجانب الجذع وهو يهزّ طرف ذيله الأبيض.

قال بسّ رمادي عندما اقترب بسّ النار: "إذاً، ستنضمّ إلينا اليوم! سيكون يوماً حافلاً،

أليس كذلك؟". ثمّ نفض فراءه بقوّة للتخلّص من البلل.

"أجل، فقد أخبرتني نجمة الصباح أنّ النمر الشرس سيقيّمنا اليوم. هل سترافقنا بسّة الرمال وبسّ أغبر أيضاً؟".

أجاب بسّ رمادي: "لقد ذهبا مع الرعب الأبيض والنمر الأسود في دورية، لذا أعتقد أنّ النمر الشرس سيهتمّ بأمرهما لاحقاً".

حثّهما بسّ أدهم قائلاً: "هيّا! علينا أن ننطلق". كان قد كفّ عن الذهاب والإياب وأخذ يحوم بجانبهما بقلق.

قال بسّ رمادي: "أنا متحمّس لذلك، وآمل أن تمنحني الحركة شيئاً من الدفء!".

عبر الثلاثة نفق القندول وخرجوا من المخيّم، ثمّ أسرعوا باتّجاه الغور الرملي. لم يكن النمر الشرس قد وصل بعد، فوقفوا في ظلّ شجرة صنوبر، ونفشوا ريشهم اتّقاءً للبرد.

سأل بسّ النار صديقه الأسود الذي كان يحرّك أكفّه إلى الأمام والخلف بعصبية: "هل أنت قلق بسبب الاختبار؟ ما من داعٍ لذلك، فأنت تلميذ النمر الشرس. وعندما يقدّم تقريره إلى نجمة الصباح، سيكون عليه إخبارها بمدى مهارتك".

قال بسّ أدهم بقلق: "لا يمكن توقّع ما يدور في رأس النمر الشرس".

قال بسّ رمادي: "حبّاً بالله، اجلس وإلاّ ستتعب قبل أن نبدأ".

مع وصول النمر الشرس، تغيّرت السماء. فبدت السحب أقلّ شبهاً بالفراء الرمادي الكثيف وأقرب إلى كرات الزغب الأبيض الناعم التي تستخدمها الإناث حول فراش صغارها. لن يمضي وقت طويل قبل أن تظهر السماء الزرقاء، لكنّ الهواء الذي حمل السحب البيضاء أتى معه بنسمات باردة.

حيّاهم النمر الشرس بسرعة ثمّ انتقل فوراً إلى تفاصيل التدريب. قال: "أمضينا أنا وقلب الأسد الأسابيع القليلة الفائتة نحاول تعليمكم كيفيّة الصيد. وعليكم اليوم أن تستطخدموا ما تعلّمتموه. سيسلك كلّ منكم طريقاً مختلفاً ويأتي بأكبر قدر ممكن من الطرائد. وما تصطادونه سيُضاف إلى مؤونة المخيّم".

نظر المبتدئون الثلاثة إلى بعضهم البعض بتوتّر وحماسة، وشعر بسّ النار بنبضه يتسارع وهو يفكّر بالتحدّي الذي ينتظره.

تابع النمر الشرس: "أنت يا بسّ أدهم ستتبع الدرب الممتدّ وراء الجمّيزة العظيمة وصولاً إلى صخور الأفاعي. فهذا سيكون سهلاً عليك نظراً لمهاراتك المثيرة للشفقة. أمّا أنت يا بسّ رمادي، فستسلك الطريق الممتدّة على طول الجدول وصولاً إلى درب الرعد".

ماء بسّ رمادي: "هذا عظيم، ستبتلّ أكفّي!". غير أنّ النمر الشرس رمقه بحدّة فأسكته.

"وأنت يا بسّ النار، من المؤسف ألّا تكون مدرّبتك العظيمة معنا اليوم لترى أداءك بنفسها. عليك أن تسلك الطريق الذي يتخلّل غابة الصنوبر، وتجتاز منطقة الأشجار المقطوعة باتّجاه الغابة خلفها".

هزّ بسّ النار رأسه بحماسة شديدة وهو يتخيّل الطريق.

نظر النمر الشرس إلى المبتدئين بعينيه الباهتتين وختم حديثه قائلاً: "وتذكّروا أنّني أراقبكم جميعاً".

كان بسّ أدهم أوّل من انطلق مسرعاً باتّجاه صخور الأفاعي. سلك النمر الشرس طريقاً مختلفاً في الغابة، وترك بسّ رمادي وبسّ النار وحدهما في الغور يخمّنان من سيتبع النمرُ الشرس أوّلاً.

قال بسّ رمادي: "لا أعرف لماذا يعتقد أنّ صخور الأفاعي طريق سهلة! فالمكان يعجّ بالأفاعي ولذلك لا تأتيه الطيور والفئران!".

وافقه بسّ النار قائلاً: "هذا يعني أنّ بسّ أدهم سيمضي الوقت بأكمله وهو يحاول تجنّب لسعات الثعابين".

"آه سيكون بخير. فحتّى الأفاعي لن تتمكّن من التقاط بسّ أدهم لأنّه عصبيّ ودائم الحركة. يجدر بي الذهاب الآن. إلى اللقاء، أتمنّى لك صيداً موفّقاً!".

انطلق بسّ رمادي مسرعاً نحو الجدول. أمّا بسّ النار، فوقف قليلاً لاشتمام الهواء، ثمّ صعد إلى طرف الغور وتوجّه إلى غابة الصنوبر.

راوده شعور غريب وهو يسلك هذا الاتّجاه المؤدّي إلى منطقة ذوي الساقين التي نشأ فيها. اجتاز بحذر الطريق الضيّقة عبر غابة الصنوبر وهو ينظر من بين صفوف الأشجار المستقيمة إلى أرض الغابة المسطّحة مستخدماً حاسّتي البصر والشمّ لرصد أيّ فريسة.

لفتت نظره حركة، فوجد فأراً ينبش إبر الصنوبر على الأرض. تذكّر درسه الأوّل، فخفض جسده إلى وضعية المطاردة، ونقل وزنه إلى وركيه، فأصبح وقع أكفّه خفيفاً على الأرض. نجحت هذه التقنية تماماً، ذلك أنّ الفأر لم يكشف وجود بسّ النار حتّى قام بوثبته الأخيرة. التقطه بكفّ واحدة وقتله بسرعة، ثمّ دفنه لكي يتمكّن من أخذه معه في رحلة العودة.

توغّل بسّ النار أكثر في غابة الصنوبر، فرأى أثلاماً عميقة تخطّ الأرض في هذه المنطقة بسبب الوحش الذي يستخدمه ذوو الساقين لقطع الأشجار. فتح فمه وأخذ نفساً عميقاً، ولاحظ أنّ أنفاس الوحش اللاذعة لم تنبعث في الهواء هنا منذ مدّة.

تبع الأثلام العميقة وهو يقفز بينها. كانت شبه ممتلئة بمياه المطر، فأحسّ بالعطش. أراد التوقّف وأخذ بضع جرعات منها، لكنّه تردّد، وذلك لأنّ لعقة واحدة من تلك المياه الموحلة ستكون كافية لبقاء طعم أنفاس الوحش في فمه لأيّام.

قرّر الانتظار، فربّما يجد بركة ماء خلف غابة الصنوبر. تقدّم مسرعاً بين الأشجار وعبَر طريق ذوي الساقين عند حدود الغابة.

وجد نفسه مجدّداً بين الشجيرات الكثيفة في غابة السنديان. تابع التقدّم إلى أن عثر على بركة ولعق منها بضع جرعات من الماء العذب. فجأة، وخزه فراؤه وهو يعي أموراً أخرى، فقد عرف أصواتاً وروائح مألوفة من الموقع الذي كان يجلس ويراقب فيه على عمود السور القديم، وعرف فوراً هذا المكان. كانت هذه هي الغابة المحيطة بمنطقة ذوي الساقين، ولا شكّ أنّه أصبح قريباً جدّاً من منزله القديم.

استطاع بسّ النار أن يشتمّ روائح ذوي الساقين ويسمع أصواتهم الصاخبة كالغربان. كانت صادرة عن مجموعة منهم يلعبون في الغابة. ربض في مكانه وحدّق من خلال نبات الخنشار. كانت الأصوات بعيدة بما فيه الكفاية ليعرف أنّه بأمان. بعد ذلك غيّر اتّجاهه، واستدار حول مصدرها من دون أن يكشف نفسه.

بقي متيقّظاً، ليس إزاء ذوي الساقين فحسب، بل لأنّ النمر الشرس يراقبه عن كثب ربّما. ومع أنّه سمع طقطقة أغصان خلفه، إلّا أنّه لم يشتمّ رائحة جديدة في الهواء. هل هو مراقَب في هذه اللحظة يا ترى؟

لمح بسّ النار حركة من طرف عينه. ظنّ في البداية أنّه رأى فراء النمر الشرس البنّي الداكن، إلّا أنّه لمح بعد ذلك شيئاً أبيض. توقّف وجثم، ثمّ تنشّق بعمق. كانت الرائحة غير مألوفة. صحيح أنّها رائحة هرّ، لكنّه لا ينتمي إلى عشيرة الرعد. بدأ فراؤه يخزه وغرائز الهرّ المحارب تستيقظ فيه. سيتعيّن عليه طرد الدخيل من أراضي عشيرته!

راقب بسّ النار المخلوق وهو يتحرّك بين الشجيرات. استطاع رؤية شكله بوضوح وهو يمرّ بين نبات الخنشار، فانتظره إلى أن اقترب. انخفض أكثر، وراح ذيله يتحرّك إلى الأمام والخلف بوتيرة بطيئة. مع اقتراب الهرّ الأبيض والأسود، حرّك بسّ النار وركيه يميناً ويساراً استعداداً للقفز، وبعد لحظة، وثب.

قفز الهرّ الأبيض والأسود في الهواء مذعوراً وفرّ وهو يسابق الريح، فما كان من بسّ النار إلّا أن لحق به.

إنّه بسبوس أليف! فكّر بذلك وهو يسرع بين الأجمات ويشتمّ رائحة خوفه. في أرضي! كان يقترب بسرعة من الحيوان الفارّ الذي أبطأ من سرعته استعداداً ليقفز فوق جذع ضخم مكسوّ بالطحالب لشجرة مقطوعة. فقفز بسّ النار على ظهره بوثبة واحدة والدم يضجّ في أذنيه.

شعر بسّ النار بالهرّ وهو يكافح للتحرّر من مخالبه، وأطلق مواء مذعوراً ويائساً.

حرّره وتراجع مبتعداً، فانكمش الهرّ الأبيض والأسود عند أسفل الجذع وهو يرتجف، ثمّ نظر إليه. رفع بسّ النار أنفه بشيء من الاشمئزاز أمام استسلام الدخيل بهذه السهولة. بدا الهرّ السمين والناعم، بعينيه المستديرتين ورأسه الصغير، مختلفاً جدّاً عن القطط الرشيقة ذات الرؤوس الكبيرة التي يعيش معها حاليّاً. مع ذلك، ثمّة شيء مألوف لدى هذا الهرّ.

حدّق إليه بسّ النار أكثر واشتمّ رائحته بتركيز. لم يتعرّف فوراً على الرائحة، لكنّه حاول التذكّر.

فجأة عرفه.

ماء بصوت عالٍ: "زعتر!".

قال هذا الأخير وهو ما زال رابضاً: "ك..ك..كيف ع..ع..عرفت اسمي؟".

"هذا أنا!".

بدا الإرباك على البسبوس الأليف.

تابع بسّ النار: "لقد نشأنا معاً، كنت أعيش في الحديقة المجاورة!".

هتف زعتر غير مصدّق: "سمسم؟ أهذا أنت؟ هل تعيش مع القطط البرّية أم ذهبت إلى منزل جديد؟ لا بدّ أنّك من ذلك بما أنّك ما زلت حياً!".

"أصبحت أدعى بسّ النار الآن". ترك كتفيه يسترخيان وفراءَه البرتقالي ينساب بنعومة.

استرخى زعتر هو أيضاً وهزّ أذنيه وهو يقول بمرح: "بسّ النار؟ حسناً يا بسّ النار. يبدو أنّ أصحابك الجدد لا يطعمونك جيّداً. فأنت لم تكن هزيلاً هكذا في آخر مرّة رأيتك!".

"أنا لا أحتاج إلى ذوي الساقين لإطعامي، بل لديّ الغابة بأكملها لآكل منها".

"ذوو الساقين؟".

"أعني أصحاب المنزل، هكذا يسمّونهم في العشيرة".

بدت الحيرة على زعتر لبرهة، ثمّ تبدّلت لتتحوّل إلى دهشة تامة. "هل تعني أنّك تعيش حقّاً مع القطط البرّية؟".

"أجل!". صمت قليلاً ثمّ أضاف: "أتعرف، أصبحت رائحتك... مختلفة، غير مألوفة".

ردّد زعتر: "غير مألوفة؟". اشتمّ الهواء ثمّ أضاف: "أعتقد أنّك أصبحت معتاداً على رائحة تلك القطط البرّية".

هزّ بسّ النار رأسه كأنّه يصفّي ذهنه وقال: "لكنّنا نشأنا معاً وينبغي أن أعرف رائحتك مثلما أعرف رائحة أمّي". ثمّ تذكّر أنّ زعتر تجاوز عمر الستّة أشهر الآن، ولا عجب أنّه بدا ناعماً وممتلئاً، وغريب الرائحة أيضاً. فشهق قائلاً: "هل ذهبت إلى السكاكيني؟ أعني البيطري؟".

هزّ زعتر كتفيه الأسودين الممتلئين وماء متسائلاً: "وماذا في ذلك؟".

صمت بسّ النار. لقد كانت نجمة الصباح على حقّ.

سأله زعتر: "هيّا أخبرني، ما شكل الحياة في البراري؟ أهي كما ظننت؟".

فكّر بسّ النار للحظة في الليلة الماضية التي أمضاها في فراش مبتلّ. فكّر بصفراء الفئران، وتنظيف قذارة جمرة، وكيف حاول إرضاء قلب الأسد والنمر الشرس على السواء خلال التدريب. تذكّر المضايقات التي تعرّض لها بسبب كونه بسبوساً أليفاً، ثمّ تذكّر فرحة أوّل صيد له، وانطلاقه في الغابة وهو يطارد سنجاباً، والأمسيات الدافئة تحت النجوم وهو يتجاذب الألسنة مع أصدقائه.

أخيراً ماء ببساطة: "بتّ أعرف من أنا الآن".

أمال زعتر رأسه جانباً وحدّق إلى بسّ النار بحيرة تامّة. قال أخيراً: "عليّ العودة إلى البيت، فقد حان وقت الطعام".

"كن حذراً يا زعتر". اقترب بسّ النار ولعق صديقه القديم بحنان بين أذنيه. فلامسه زعتر بأنفه. "انتبه، فقد تصادف في المنطقة هررة أخرى لا تحبّ مثلي البسابيس الأليفة، أعني قطط المنازل".

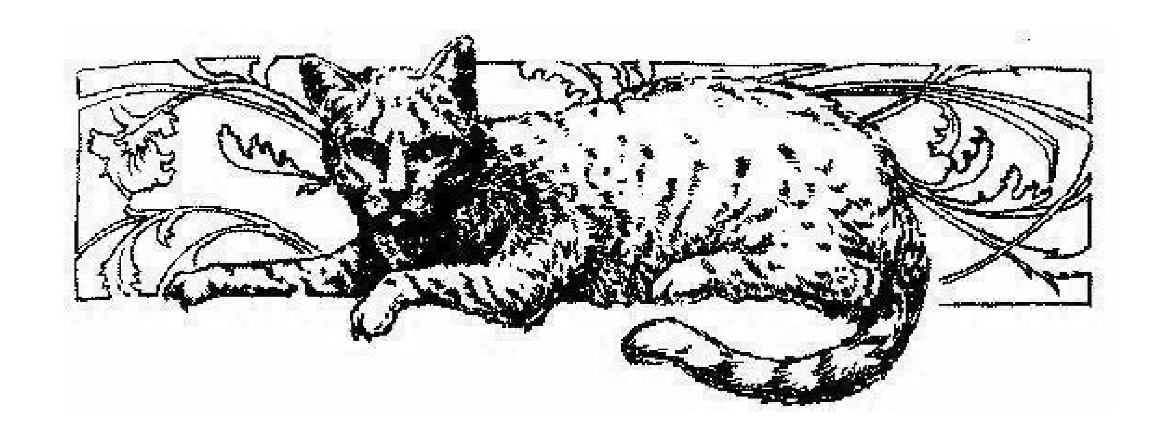
هزّ زعتر أذنيه بعصبية عندما سمع ذلك. نظر حوله بحذر ثمّ قفز من فوق الجذع وقال: "إلى اللقاء يا سمسم. سأخبر الجميع أنّك بخير!".

"إلى اللقاء يا زعتر. استمتع بغدائك!".

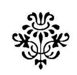
راقب طرف ذيل زعتر الأبيض وهو يختفي خلف إحدى الأشجار. في البعيد، سمع خشخشة طعام جافّ وهو يهتزّ في علبة وصوت أحد ذوي الساقين ينادي.

استدار بسّ النار رافعاً ذيله عالياً وبدأ رحلة العودة إلى بيته، وهو يشتمّ الهواء. حدّث نفسه قائلاً، سأعثر على حسّون أو اثنين هنا ثمّ أصطاد شيئاً في رحلة العودة عبر غابة الصنوبر. شعر أنّه يضجّ بالطاقة بعد لقائه بزعتر، وأدرك كم هو محظوظ بحياته بين قطط العشيرة.

نظر إلى الأغصان فوقه وبدأ يمشي في الغابة وقد استيقظت كلّ حواسه. ما عليه الآن سوى أن يثير إعجاب نجمة الصباح والنمر الشرس، فيكون نهاره ممتازاً.



الفصل 11



عاد بسّ النار حاملاً طائر صغنج بين أسنانه، وضعه أمام النمر الشرس الذي كان ينتظر في الغور.

قال المحارب: "أنت أوّل العائدين".

أجاب بسّ النار بسرعة: "نعم، لكن لديّ كثير من الطرائد لإحضارها. دفنتها...".

قال النمر الشرس: "أعرف جيّداً ما فعلتَه، فقد كنت أراقبك".

أعلنت حركة في الأعشاب عودة بسّ رمادي. كان يحمل سنجاباً صغيراً بفمه، وضعه إلى جانب الطائر. بصق وهو يقول: "ياه! السناجب كثيرة الفراء. سيتحتّم عليّ تنظيف أسناني من فراءها طوال المساء".

لم يلقِ النمر الشرس بالاً لثرثرة بسّ رمادي، بل قال: "تأخّر بسّ أدهم. سنعطيه بعض الوقت ثمّ نعود إلى المخيّم".

قال بسّ النار: "لكن ماذا لو تعرّض لعضّة ثعبان؟".

أجاب النمر الشرس: "سيكون هذا خطؤه، فلا مكان للأغبياء في عشيرة الرعد".

انتظروا بصمت بينما تبادل بسّ رمادي وبسّ النار نظرات القلق. جلس النمر الشرس بلا حراك شارداً في أفكاره على ما يبدو.

كان بسّ النار أوّل من اشتمّ رائحة بسّ أدهم وعرف بوصوله. فقفز واقفاً مع وصول الهرّ

الأسود إلى الفسحة وقد بدا عليه السرور بنفسه. تدلّت من فمه أفعى طويلة مرقّطة.

سأله بسّ النار: "بسّ أدهم! هل أنت بخير؟".

أمّا بسّ رمادي فاندفع ليبدي إعجابه بصيد بسّ أدهم: "ياه! هل لسعتك؟".

خرخر بسّ أدهم بصوت عالٍ: "كنت أسرع منها!". ثمّ نظر إلى النمر الشرس ولزم الصمت.

رمق النمر الشرس المبتدئين الثلاثة بنظرة باردة ثمّ اكتفى بالقول: "هيّا بنا، دعونا نجمع بقيّة صيدكم ونعود إلى المخيّم".

دخل المبتدئون الثلاثة المخيّم خلف النمر الشرس. كان صيدهم المثير للإعجاب يتدلّى من أفواههم، مع أنّ بسّ أدهم ظلّ يتعثّر طوال الطريق برأس الأفعى. مع خروجهم من نفق القندول ودخولهم المخيّم، خرجت مجموعة من الصغار من الحضانة لمشاهدتهم وهم يمرّون.

سمع بسّ النار أحدهم يقول: "انظروا! لقد عاد المبتدئون من الصيد!". فعرف صوت الصغير المخطّط الذي نهرته جمرة في اليوم الفائت. جلس بجانبه هرّ رمادي صغير كثيف الفراء لا يتجاوز عمره الشهرين. وكان معهما هرّان صغيران جدّاً أحدهما أسود والآخر بنّي مرقّط.

قال الرمادي: "أليس هذا هو البسبوس الأليف بسّ النار؟".

ماء الأسود: "بلى! انظر إلى فرائه البرتقالي!".

وقال البنّي: "يقال إنّه صيّاد ماهر وأنّه يشبه قلب الأسد بعض الشيء. هل تعتقدون أنّه ماهر مثله؟".

أجاب الهرّ المخطّط: "كم أتوق إلى بدء تدريبي. سأكون أفضل محارب عرفته عشيرة الرعد!".

رفع بسّ النار ذقنه وهو يشعر بالفخر أمام الإعجاب الذي بدا في تعليقات الصغار، وتبع صديقيه إلى وسط الفسحة.

ماء بسّ رمادي مجدّداً بينما كان الثلاثة يضعون صيدهم على الأرض لمشاركته مع القطط الأخرى: "أفعى!".

سأل بسّ أدهم وهو يشتمّ الجسم الطويل الممدّد بجانب كومة الطرائد: "ما الذي يجب أن أفعله بها؟".

سأله بسّ رمادي: "هل يمكنك أكل الأفاعي؟".

مازحه بسّ النار وهو يدفعه برأسه: "أنت لا تفكّر سوى بمعدتك!".

تمتم بسّ أدهم: "حسناً، أنا لا أرغب في أكلها. أعني أنّني وجدت طعمها كريهاً جدّاً وأنا أحملها إلى هنا".

اقترح عليه بسّ رمادي: "لنضعها على جذع الشجرة إذاً لكي يراها بسّ أغبر وبسّة الرمال عندما يعودان".

حمل كلّ منهم قطعة من صيدهم بالإضافة إلى الأفعى وذهبوا بها إلى الوكر. وضع بسّ رمادي الأفعى بعناية على الجذع بحيث يمكن رؤيتها من كلّ الزوايا، ثمّ تناولوا طعامهم. بعد ذلك جلسوا إلى جانب بعضهم لينظّف أحدهم الآخر ويتحدّثون.

قال بسّ النار: "أتساءل من الذي ستختاره نجمة الصباح للذهاب إلى الاجتماع، فغداً يكتمل القمر".

أجاب بسّ رمادي: "سبق أن ذهبت بسّة الرمال وبسّ أغبر مرّتين".

قال بسّ النار: "قد تختار أحدنا هذه المرّة. ففي النهاية، نحن نتدرّب منذ ثلاثة أشهر تقريباً".

قال بسّ أدهم: "لكنّ بسّة الرمال وبسّ أغبر ما زالا أكبر المبتدئين".

هزّ بسّ النار رأسه موافقاً وقال: "وهذا الاجتماع سيكون هامّاً لأنّها المرّة الأولى التي تلتقي فيها العشائر منذ اختفاء عشيرة الرياح. وما من هرّ يعرف ماذا ستقول عشيرة الظلال عن ذلك".

قاطعهم مواء النمر الشرس المنخفض. "أنت محقّ أيّها الشابّ". كان الهرّ المحارب قد اقترب منهم من دون أن يلاحظوا ذلك. أضاف: "بالمناسبة يا بسّ النار، نجمة الصباح تريد رؤيتك".

نظر إليه بسّ النار بشيء من القلق. لماذا ترغب نجمة الصباح في رؤيته؟

قال النمر الشرس: "هذا إن كان لديك الوقت".

قفز بسّ النار واقفاً وانطلق عبر الفسحة باتّجاه وكر نجمة الصباح.

كانت نجمة الصباح جالسة في الخارج تحرّك ذيلها بقلق إلى الأمام والخلف. عندما رأت بسّ النار وقفت ونظرت إليه، ثمّ ماءت بصوت منخفض: "قال لي النمر الشرس إنّه رآك تتحدّث مع هرّ من منطقة ذوي الساقين اليوم".

قال بسّ النار: "لكن...".

"قال إنّك بدأت تتعارك معه ثمّ انتهى بكما الأمر بتجاذب الألسنة".

أقرّ بسّ النار قائلاً وهو يشعر بفرائه يخزه في ردّ فعل دفاعي: "هذا صحيح، لكنّه كان صديقاً قديماً. فقد نشأنا معاً". صمت قليلاً وازدرد ريقه ثمّ أضاف: "عندما كنت بسبوساً أليفاً".

نظرت إليه نجمة الصباح مطوّلاً ثمّ سألته: "هل أنت مشتاق إلى حياتك القديمة يا بسّ النار؟ فكّر جيّداً الآن".

"كلّا". استغرب بسّ النار كيف تفكّر نجمة الصباح في ذلك. أخذ رأسه يدور. ماذا تحاول نجمة الصباح أن تجعله يقول؟

"هل تتمنّى ترك العشيرة؟".

صدمه سؤالها فأجابها على الفور: "بالطبع لا!".

لا يبدو أنّ نجمة الصباح لاحظت قوّة جوابه، لأنّها راحت تهزّ رأسها وبدا عليها فجأة التقدّم في السنّ والتعب. "اسمع يا بسّ النار، أنا لن أمنعك إن أردت الرحيل. ربّما توقّعت منك الكثير، وربّما تأثّر حكمي بحاجة العشيرة إلى محاربين جدد".

ذُعر بسّ النار وهو يفكّر باحتمال ترك العشيرة إلى الأبد. اعترض قائلاً: "لكنّ مكاني هنا! هذا هو بيتي".

"أريد أكثر من ذلك يا بسّ النار. أريد أن أتمكّن من الوثوق بولائك للعشيرة، لا سيّما الآن ونحن نواجه احتمال التعرّض لهجوم من عشيرة الظلال. لا مكان بيننا لأيّ هرّ ليس واثقاً ما إذا كان قلبه متعلّقاً بالماضي أم بالحاضر".

أخذ بسّ النار نفساً عميقاً واختار كلامه بعناية: "عندما رأيت زعتر اليوم – وهو هرّ المنزل الذي رآني النمر الشرس أتحدّث معه – أدركت ما ستكون عليه حياتي لو أنّني بقيت مع ذوي الساقين، وأحسست بالسعادة لأنّني قرّرت الرحيل عنهم. في الواقع، أحسست بالفخر". كان ينظر إلى عيني نجمة الصباح من دون أن يرفّ له جفن. "لقد جعلني لقائي بزعتر واثقاً أنّني اتّخذت القرار الصحيح. فحياة البسبوس الأليف السهلة والمريحة لم ترضني أبداً".

نظرت إليه نجمة الصباح جيّداً للحظة وضاقت عيناها. أخيراً هزّت رأسها قائلة: "حسن جدّاً، أنا أصدّقك".

خفض بسّ النار رأسه احتراماً وتنهّد مرتاحاً.

قالت نجمة الصباح بنبرة أقلّ جدّية: "تحدّثت اليوم مع جمرة، وهي تقدّرك كثيراً. إنّها عجوز حكيمة كما تعلم، وأعتقد أنّها لم تكن دائماً سيّئة المزاج. في الحقيقة، أظنّ أنّني أستطيع أن أحبّها مع الوقت".

شعر بسّ النار بفرح كبير وغير متوقّع وهو يسمع هذا الكلام. فربّما خلال رعايته لجمرة، تحوّل إعجابه بها إلى محبّة، على الرغم من سوء طباعها. أيّاً يكن السبب، فقد شعر بالسرور لأنّ نجمة الصباح أحبّتها هي الأخرى.

تابعت نجمة الصباح بهدوء: "لكن ثمّة شيء لديها يثير شكوكي. ستبقى مع عشيرة الرعد حاليّاً لكنّها ستظلّ أسيرة وستعتني إناث الحضانة بها. أمّا أنت فعليك التركيز على تدريبك".

هزّ بسّ النار رأسه موافقاً وانتظر أن تصرفه نجمة الصباح، لكنّها لم تكن قد أنهت كلامها بعد. "بسّ النار، مع أنّك أسأت التصرّف اليوم عندما تكلّمت مع هرّ منزل، لكنّ النمر الشرس أعجب فعلاً بمهاراتك في الصيد. قال لي في الواقع إنّكم جميعاً أبليتم حسناً، وأنا مسرورة بالتقدّم الذي أحرزتموه. سترافقوننا إلى الاجتماع أنتم الثلاثة".

بالكاد استطاع بسّ النار تمالك نفسه، إذ اجتاحت الحماسة جسده. الاجتماع! "وماذا عن بسّة الرمال وبسّ أغبر؟".

"سيبقيان هنا ويحرسان المخيّم. والآن بإمكانك الانصراف". حرّكت ذيلها الطويل لتصرفه، وعادت تنظّف فراءها.

بدت الدهشة على بسّ رمادي وبسّ أدهم عندما عاد إليهما بسّ النار وهو يقفز مسروراً. فقد كانا ينتظران عودته بقلق بجانب جذع الشجرة. جلس بسّ النار ونظر إلى صديقيه.

سأله بسّ رمادي: "حسناً؟ ماذا قالت؟".

انفجر بسّ أدهم قائلاً: "أخبرنا النمر الشرس أنّك كنت تتجاذب الألسنة مع بسبوس أليف هذا الصباح. هل سبّب لك ذلك المشاكل؟".

أقرّ بسّ النار بأسف: "كلّا، مع أنّ هذا الأمر لم يعجب نجمة الصباح. فقد ظنّت أنّني أرغب في ترك عشيرة الرعد".

سأله بسّ أدهم: "أنت لست راغباً في الرحيل عنّا، أليس كذلك؟".

أجاب: "بالطبع لا!".

لعق بسّ النار صديقه الرمادي بمحبّة وقال: "صحيح، هذا لن يعجبك. فأنت تحتاج إليّ لكي أصطاد لك الفئران! لأنّك لا تصطاد هذه الأيّام سوى السناجب المسنّة والمكسوّة بالفراء!".

ابتعد بسّ رمادي لتجنّب ضربة بسّ النار، ووقف على قائمتيه الخلفيتين لردّ اعتباره. غير أنّ بسّ النار كان شديد الحماسة لإضاعة الوقت في اللعب، فتابع يقول: "احزرا ماذا قالت أيضاً!".

هبط بسّ رمادي فوراً على أكفّه الأربع وهو يسأل: "ماذا؟".

"سوف نحضر الاجتماع!".

أطلق بسّ رمادي مواء فرح وقفز على جذع الشجرة. فارتطمت إحدى قائمتيه الخلفيتين بالأفعى التي طارت لتحطّ على رأس بسّ أدهم وتلتفّ حول عنقه.

ذُعر بسّ أدهم بفعل المفاجأة ثمّ التفت إلى بسّ رمادي وهسّ على نحو مضحك: "انتبه!"، ثمّ دفع الأفعى عنه وأسقطها على الأرض.

قال له بسّ النار ساخراً: "هل خفت أن تلسعك؟".

هزّ بسّ أدهم شاربه وأجاب: "هل تسخر منّي؟". ثمّ قفز على بسّ النار وأسقطه بسهوله على ظهره.

نزل بسّ رمادي عن جذع الشجرة وراح يشدّ ذيل بسّ أدهم. فاستدار هذا الأخير ووجّه إلى بسّ رمادي دفعة خفيفة بكفّه الأمامية. في أثناء ذلك، قفز بسّ النار واقفاً وانقضّ عليهما هما الاثنين بحيث طار بسّ رمادي وسقط على مسافة من الجذع. تقلّب الثلاثة في التراب وتدحرجوا على الأرض. أخيراً، ابتعدوا عن بعضهم وجلسوا يلهثون بجانب جذع الشجرة.

سأل بسّ رمادي: "هل سيرافقنا بسّ أغبر وبسّة الرمال أيضاً؟".

أجاب بسّ النار من دون أن يتمكّن من إخفاء نبرة النصر في صوته: "كلّا! سيبقيان هنا ويحرسان المخيّم".

رجاه بسّ رمادي قائلاً: "آه، دعني أخبرهما بنفسي! كم أتوق لرؤية وجهيهما حين يعرفان!".

وافقه بسّ النار: "وأنا أيضاً! فأنا لا أصدّق أنّنا ذاهبون عوضاً عنهما! لا سيّما بعدما رآني النمر الشرس مع زعتر اليوم!".

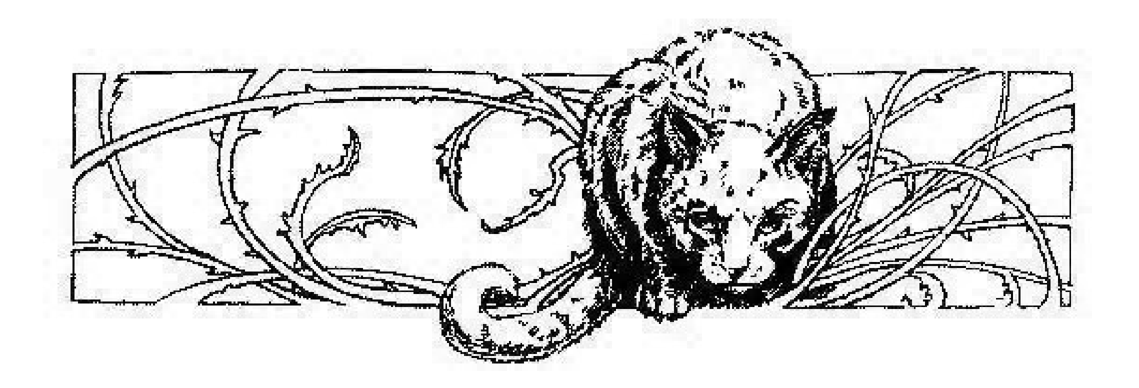
قال بسّ رمادي: "كانت هذه مصادفة سيّئة. فجميعنا اصطدنا الكثير من الطرائد خلال الاختبار، وأظنّ أنّ هذا ما حسم المسألة".

قال بسّ أدهم: "كيف سيكون هذا الاجتماع يا ترى؟".

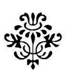
أجاب بسّ رمادي بثقة: "سيكون رائعاً. أنا واثق أنّ كلّ المحاربين العظماء سيحضرون. نمس وفراء الصوّان...".

لكنّ بسّ النار لم يعد يصغي إليهما، بل أخذ يفكّر بالنمر الشرس وبزعتر. كان بسّ رمادي على حقّ. فمن سوء حظّه أنّ المحارب العظيم كان يراقبه عندما التقى بصديق طفولته. لماذا لم يكن يراقب بسّ رمادي أو بسّ أدهم عوضاً عنه؟ في الواقع، سوء حظّه هو الذي جعل النمر الشرس يرسله إلى مكان قريب من منطقة ذوي الساقين في الأساس.

فجأة، راودته أفكار غريبة. لماذا أرسله النمر الشرس إلى مقربة من مسكنه القديم؟ هل أراد اختباره يا ترى؟ ألا يثق المحارب البنّي بولائه لعشيرة الرعد؟



الفصل 12



حدّق بسّ النار من فوق منحدر مكسوّ بالشجيرات. كان بسّ رمادي وبسّ أدهم رابضَين بقربه، وبجانبهما مجموعة من مسنّي عشيرة الرعد وإناثها ومحاربيها ينتظرون بين الأعشاب إشارة من نجمة الصباح.

لم يكن بسّ النار قد أتى إلى هذا المكان منذ رحلته الأولى إليه مع قلب الأسد والنمر الشرس. بدت له تلك الفسحة التي تنتهي عند منحدر قوي مختلفة الآن. فخضرة الغابة الغنية أصبحت باهتة بفعل ضوء البدر البارد، بينما ومضت أوراق الشجر بلون فضّي. وفي الأسفل، ارتفعت أشجار السنديان التي تحدّد الزاوية التي تلتقي عندها أراضي العشائر.

كان الهواء عابقاً بروائح دافئة منبعثة من قطط العشائر الأخرى. رآهم بسّ النار بوضوح في ضوء القمر يتجوّلون في الأسفل في الفسحة المكسوّة بالعشب والممتدّة بين أشجار السنديان الأربع. في وسط الفسحة، برزت صخرة مسنّنة من أرض الغابة وبدت أشبه بسنّ مكسورة.

هسّ بسّ أدهم بصوت خافت: "انظرا إلى كلّ تلك القطط هناك في الأسفل!".

ردّ عليه بسّ رمادي هامساً: "ها هو النجم الأعوج! إنّه قائد عشيرة النهر".

سأله بسّ النار وهو يدفعه برأسه بنفاد صبر: "أين؟".

"إنّه ذلك الهرّ ذو اللون الفاتح الواقف بجانب الصخرة العظيمة".

تبع بسّ النار إشارة بسّ رمادي ورأى هرّاً ضخماً يفوق حجمه حجم قلب الأسد حتّى، يجلس في وسط الفسحة. لمع فراؤه الباهت في ضوء القمر. وحتّى من هذه المسافة، بدت على وجهه المسنّ آثار شظف العيش، كما بدا فمه أعوج كما لو أنّه تعرّض لكسر ولم تلتحم العظام كما

ينبغي.

قال بسّ رمادي: "هل رأيتما بسّة الرمال كيف بصقت عندما تمنّيت لها أمسية هادئة؟".

"وهل توقّعتَ غير ذلك؟".

قاطعهما بسّ أدهم بمواء مكتوم. "انظرا! لقد وصل النجم نمرود زعيم عشيرة الظلال".

نظر بسّ النار إلى الهرّ البنّي المخطّط. كان فراؤه طويلاً على نحو غير مألوف، ووجهه عريضاً ومسطّحاً. أحاطت به هالة من الثبات والثقة في الطريقة التي جلس بها وحدّق حوله جعلت بسّ النار يشعر بوخز عدم ارتياح.

تمتم بسّ النار: "يبدو خبيثاً".

وافقه بسّ رمادي: "أجل، فهو معروف بين العشائر أنّه لا يحتمل الحمقى. كما أنّه تولّى زعامة عشيرته منذ مدّة قصيرة لا تتجاوز أربعة أشهر بعد وفاة أبيه النجم الأشعث".

سأله بسّ النار: "ما هو شكل زعيم عشيرة الرياح؟".

"النجم المذنّب؟ لم تسبق لي رؤيته قطّ، لكنّني أعرف أنّه أسود وأبيض ويملك ذيلاً طويلاً جدّاً".

سأل بسّ أدهم: "هل تراه الآن؟".

حدّق بسّ رمادي إلى حشد القطط في الأسفل وقال: "كلّا!".

سأله بسّ النار: "وهل تشتمّ رائحة قطط من عشيرة الرياح؟".

هزّ بسّ رمادي رأسه نافياً. "كلّا".

تردّد مواء قلب الأسد المنخفض بجانبهم: "ربّما تأخّرت قطط عشيرة الرياح وحسب".

سأله بسّ رمادي: "لكن ماذا إن لم تحضر مطلقاً؟".

أجابه قلب الأسد بصوت خافت: "هس! علينا أن نصبر، فنحن نمرّ بأوقات عصيبة. اهدؤوا الآن بانتظار إشارة نجمة الصباح بالتحرّك".

بينما كان يتحدّث، وقفت نجمة الصباح ورفعت ذيلها عالياً ثمّ حرّكته يميناً ويساراً. فوثب قلب بسّ النار عندما نهضت قطط عشيرة الرعد في وقت واحد وانطلقت بين الشجيرات باتّجاه مكان الاجتماع. أخذ يجري إلى جانبها وهو يشعر بالهواء يهبّ على أذنيه بينما راحت أكفّه تخزه ترقّباً.

توقّفت قطط عشيرة الرعد غريزياً عند طرف الفسحة، خارج حدود أشجار السنديان.

اشتمّت نجمة الصباح الهواء ثمّ هزّت رأسها إلى الأسفل وتقدّمت المجموعة خلفها.

شعر بسّ النار بالحماسة. فقد بدت القطط الأخرى أكثر قوّة عن كثب وهي تتجوّل حول الصخرة العظيمة. مرّ بجانبه هرّ محارب أبيض، فنظر إليه بسّ النار وبسّ أدهم برهبة.

تمتم بسّ أدهم: "انظر إلى أكفّه!".

نظر بسّ النار إلى الأسفل ولاحظ أنّ أكفّ هذا الهرّ الضخم كانت سوداء كالفحم.

قال بسّ رمادي: "لا بدّ أنّه الكفّ الأسود، النائب الجديد لعشيرة الظلال".

اقترب الكفّ الأسود من النجم نمرود وجلس إلى جانبه. فاكتفى زعيم عشيرة الظلال بهزّ إحدى أذنيه لكنّه لم يقل شيئاً.

سأل بسّ أدهم الرعب الأبيض: "متى يبدأ الاجتماع؟".

أجابه: "اصبر يا بسّ أدهم. فالسماء صافية الليلة ولدينا كلّ الوقت".

مال قلب الأسد نحوهما وأضاف: "نحن المحاربون نحبّ تمضية بعض الوقت في التغنّي بأمجادنا، بينما يروي كبار السنّ حكايات عن قديم الزمان قبل أن يأتي ذوو الساقين إلى هنا". نظر إليه المبتدئون الثلاثة ورأوا شاربه يهتزّ بمكر.

توجّهت كلّ من فراء الكستناء، وعوراء، وشمشوم نحو مجموعة من القطط المسنّة التي كانت جالسة تحت إحدى أشجار السنديان. واقترب الرعب الأبيض وقلب الأسد من محاربين آخرَين لا يعرفهما بسّ النار. فاشتمّ الهواء وعرف فيهما رائحة عشيرة النهر.

ارتفع صوت نجمة الصباح خلف المبتدئين الثلاثة وحذّرتهم قائلة: "لا تضيعوا وقتكم الليلة، فهذه فرصة جيّدة للتعرّف على أعدائكم. أصغوا إليهم وتذكّروا أشكالهم وسلوكهم. فهذا الاجتماع هو فرصة لتعلّم الكثير".

حذّرهم النمر الشرس: "وقلّلوا من الكلام. لا تبوحوا بشيء يمكن أن يُستخدم ضدّنا بعد مغيب القمر".

نظر بسّ النار إلى عيني النمر الشرس ووعده بعجلة: "لا تقلق، فنحن لن نبوح بشيء!". كان لا يزال مجروحاً من عدم ثقة النمر الشرس بولائه.

هزّ المحاربان رأسيهما وانصرفا تاركَين المبتدئين بمفردهم. نظروا إلى بعضهم وسأل بسّ النار: "ماذا سنفعل الآن؟".

أجاب بسّ أدهم: "ما أمرونا به، نصغي".

أضاف بسّ رمادي: "ولا نتكلّم كثيراً".

هزّ بسّ النار رأسه بجدّية وقال: "أريد أن أعرف إلى أين ذهب النمر الشرس".

قال بسّ رمادي: "وأنا سأذهب لأبحث عن قلب الأسد. هل سترافقني يا بسّ أدهم؟".

أجاب هذا الأخير: "لا شكراً، بل سأبحث عن المبتدئين الآخرين".

قال بسّ النار: "حسناً، نلتقي لاحقاً". وذهب في الاتّجاه الذي سلكه النمر الشرس.

تبع رائحة النمر الشرس بسهولة ووجده جالساً في وسط مجموعة من المحاربين الكبار خلف الصخرة العظيمة يتكلّم.

كان يروي لهم حكاية سمعها بسّ النار مرّات عديدة في المخيّم. راح النمر الشرس يصف معركته الأخيرة ضدّ مجموعة قطط من عشيرة النهر خرجت للصيد. "صارعتُهم مثل هرّ من عشيرة الأسود. حاول ثلاثة محاربين إمساكي لكنّني ألقيتهم بعيداً. وقاتلتهم إلى أن سقط اثنان منهم مغشيّاً عليهما وفرّ الآخر في الغابة مثل صغير يبحث باكياً عن أمّه".

هذه المرّة لم يذكر النمر الشرس أنّه قتل قلب السنديان انتقاماً لموت ذيل الأرجوان، فظنّ أنّه لا يريد إثارة استياء محاربي عشيرة النهر.

أصغى بسّ النار بتهذيب إلى أن انتهت القصّة، لكنّ رائحة مألوفة شتّتت انتباهه. ما إن فرغ النمر الشرس من قصّته حتّى استدار بسّ النار وتسلّل مبتعداً باتّجاه الرائحة الحلوة التي كانت منبعثة من مجموعة من القطط في الجوار.

وجد بسّ رمادي جالساً بين تلك القطط، لكن لم تكن تلك الرائحة التي لحق بها. فأمام بسّ رمادي، جلست الورقة الرقطاء بين هرّين من عشيرة النهر. نظر إليها بسّ النار بخجل وجلس إلى جانب صديقه.

قال لبسّ رمادي: "لم نشتمّ حتّى الآن أثراً لعشيرة الرياح".

أجاب صديقه: "لم يبدأ الاجتماع بعد، قد يصلون قريباً. انظر، هذا شرشور، الهرّ المداوي الجديد في عشيرة الظلال كما يبدو". وأشار برأسه إلى قطّ صغير رمادي وأبيض في وسط المجموعة.

أشار بسّ النار: "عرفتُ الآن لماذا يسمّونه شرشور". كان أنف الهرّ المداوي رطباً عند طرفه ومشقّقاً حول الأطراف.

أجاب بسّ رمادي مزمجراً: "تماماً. لا أفهم كيف يعيّنونه هرّاً مداوياً مع أنّه عاجز عن علاج زكامه!".

كان شرشور يخبر القطط عن عشبة استخدمتها القطط المداوية في القدم لعلاج السعال لدى الصغار. تذمّر بصوت عالي النبرة: "منذ أن أتى ذوو الساقين وملؤوا المكان بالأرض الصلبة والأزهار الغريبة، اختفت الأعشاب وأصبحت الهرر الصغيرة تموت عبثاً بسبب البرد".

اجتمعت القطط حوله وماءت معبّرة عن استيائها.

قالت قطّة سوداء من عشيرة النهر: "ما كان ذلك ليحدث مطلقاً في زمن عشائر القطط العظيمة".

وافقها هرّ فضّي مخطّط: "بالفعل. لو تجرّأ أحد من ذوي الساقين على دخول أراضي القطط العظيمة لقتلته فوراً. ولو أنّ عشيرة النمور ما زالت تعيش في هذه الغابة، لما تمكّن ذوو الساقين من بناء منازلهم على هذه المسافة من أرضنا".

بعد ذلك سمع بسّ النار مواء الورقة الرقطاء الهادئ: "لكن لو أنّ عشيرة النمور ما زالت تعيش في هذه الغابات، لما تمكنّا من العيش هنا أساساً".

ماء صوت ناعم بجانبهم: "من هم النمور؟". نظر بسّ النار إلى مصدر الصوت ليجد هرّاً صغيراً مخطّطاً ينتمي إلى إحدى العشائر الأخرى، وكان جالساً إلى جانبه.

شرح له بسّ رمادي بهدوء: "عشيرة النمور هي إحدى عشائر القطط العظيمة التي كانت تتجوّل في الغابة. وهي هررة ليلية كبيرة كالأحصنة، ذات فراء مخطّط. وثمّة أيضاً عشيرة الأسود. إنّها...". تردّد بسّ رمادي وقطّب جبينه محاولاً التذكّر.

قال الهرّ الصغير: "آه! لقد سمعت عنها. إنّها كبيرة مثل قطط عشيرة النمور، ذات فراء أصفر وعرف ذهبي كأشعّة الشمس".

هزّ بسّ رمادي رأسه موافقاً. "وثمّة عشيرة أخرى، عشيرة القطط المرقّطة أو شيء من هذا القبيل...".

ماء صوت من خلفهم: "أظنّ أنّك تقصد عشيرة الفهود يا بسّ رمادي".

"قلب الأسد!". قام بسّ رمادي بتحيّة مدرّبه بلمسة حنونة من أنفه.

هزّ قلب الأسد رأسه متظاهراً باليأس: "ألا تعرفون تاريخكم أيّها الشباب؟ عشيرة الفهود أسرع أنواع القطط، وهي ضخمة وذهبية، تتخلّل فراءها بقع سوداء. أنتم تدينون لعشيرة الفهود بالسرعة ومهارات الصيد التي تتمتّعون بها الآن".

سأل الهرّ الصغير: "ندين لها؟ ولماذا؟".

حدّق قلب الأسد إلى التلميذ الصغير وأجابه: "تملك القطط اليوم أثراً من كلّ القطط العظيمة. فلولا أجدادنا عشيرة النمور، لما كنّا صيّادين ليليين، أمّا حبّنا لدفء الشمس فورثناه عن عشيرة الأسود". صمت قليلاً ثمّ سأله: "أنت مبتدئ لدى عشيرة الظلال، أليس كذلك؟ كم شهراً بلغت؟".

حدّق الهرّ الصغير بإرباك إلى الأرض. أخيراً أجاب من دون أن ينظر إلى عيني قلب الأسد: "س...ستّة أشهر".

تمتم قلب الأسد: "لكنّك تبدو أصغر من ذلك". كانت نبرته لطيفة لكنّ نظرته فضولية وجادّة.

أجابه الهرّ بتململ: "أمّي أيضاً كانت صغيرة الحجم". خفض رأسه وتراجع إلى الخلف ثمّ اختفى بين القطط وهو يهزّ ذيله البنّي الفاتح.

التفت قلب الأسد إلى بسّ النار وبسّ رمادي. "حسناً، قد يكون صغيراً لكنّه فضولي على الأقلّ. فقط لو أنّكما تُظهران بعض الاهتمام بالقصص التي يرويها الكبار!".

قال بسّ النار وبسّ رمادي وهما يتبادلان نظرات الإحراج: "نحن آسفان يا قلب الأسد".

تذمّر قلب الأسد بنبرة ودودة: "كفى أنتما الاثنان! أتمنّى في المرّة القادمة أن تقرّر نجمة الصباح إحضار مبتدئين يقدّرون ما يسمعونه". ثمّ زمجر بمرح وأبعدهما من المجموعة.

خرخر بسّ رمادي وهما يبتعدان: "هيّا بنا، تعال لنرى ما يفعله بسّ أدهم".

كان بسّ أدهم في وسط مجموعة من المبتدئين الذين يطلبون منه أن يخبرهم عن معركته مع عشيرة النهر.

قالت له هرّة بيضاء وسوداء جميلة: "هيّا يا بسّ أدهم، أخبرنا بما جرى!".

حرّك بسّ أدهم أكفّه بخجل وهزّ رأسه رافضاً.

ألحّت عليه هرّة أخرى: "هيّا يا بسّ أدهم!".

نظر بسّ أدهم حوله ورأى بسّ النار وبسّ رمادي عند أطراف المجموعة. هزّ بسّ النار رأسه مشجّعاً، فحرّك بسّ أدهم ذيله بتجاوب وبدأ يروي قصّته.

تردّد في البداية، لكن بينما كان يحكي، اختفت الرجفة من صوته واقترب منه جمهوره وقد اتّسعت أعينهم دهشة.

"كان الفراء يطير في كلّ اتّجاه. لوّثت الدماء أوراق أجمات العلّيق وبدت حمراء زاهية على الأوراق الخضراء. كنت أقاتل محارباً ضخماً، وعندما ألقيته فوق الأجمات، ارتجّت الأرض وسمعت صرخة محارب. كان قلب السنديان! ركض ذيل الأرجوان من أمامي والدماء تسيل من فمه وتلوّث فراءه المشعّث. صاح قائلاً: لقد مات قلب السنديان! ثمّ اندفع لمساعدة النمر الشرس وهو يقاتل محارباً آخر".

همس بسّ رمادي في أذن بسّ النار بإعجاب: "من كان يظنّ أنّ بسّ أدهم ماهر إلى هذا الحدّ في رواية القصص؟".

لكنّ بسّ النار كان يفكّر في أمر آخر. ماذا قال بسّ أدهم للتوّ؟ أنّ ذيل الأرجوان قتل قلب السنديان؟ لكن بحسب رواية النمر الشرس، قلب السنديان هو من قتل ذيل الأرجوان ولذلك

قتله النمر الشرس انتقاماً له.

همس بسّ النار في أذن بسّ رمادي: "إن كان ذيل الأرجوان هو من قتل قلب السنديان، فمن الذي قتل ذيل الأرجوان؟".

ردّد بسّ رمادي كلامه بشرود: "من فعل ماذا؟". لم يكن يصغي تماماً إلى بسّ النار.

هزّ بسّ النار رأسه لتصفية ذهنه، وفكّر أنّ بسّ أدهم مخطئ بلا ريب. لا بدّ أنّه كان يعني النمر الشرس.

كان بسّ أدهم يختم قصّته: "أخيراً، جرّ ذيل الأرجوان الهرّ من ذيله وأبعده عن النمر الشرس، وكما لو أنّه يملك قوّة كلّ عشيرة النمور، ألقاه بعيداً بين الشجيرات".

لمح بسّ النار ظلّاً يتحرّك. فألقى نظرة حوله ورأى النمر الشرس واقفاً على مسافة قصيرة. كان المحارب يراقب بسّ أدهم بنظرة بالغة القسوة. واصل بسّ أدهم الإجابة عن أسئلة جمهوره المتحمّس غير مدرك لوجود مدرّبه.

"ما كانت كلمات قلب السنديان الأخيرة؟".

"هل صحيح أنّ قلب السنديان لم يخسر معركة من قبل؟".

أجاب بسّ أدهم على الفور بصوت عالٍ وصافٍ وبعينين برّاقتين. لكن عندما نظر بسّ النار مجدّداً إلى النمر الشرس، رأى نظرة رعب في عينيه قبل أن يكتسح الغضب وجهه. من الواضح أنّ النمر الشرس لم يكن مستمتعاً برواية بسّ أدهم على الإطلاق.

كان بسّ النار على وشك أن يقول شيئاً لبسّ رمادي عندما ارتفع مواء عالٍ في إشارة إلى كلّ القطط لالتزام الهدوء. فشعر بسّ النار بالارتياح لأنّ صديقه صمت أخيراً واستدار النمر الشرس مبتعداً.

رفع بسّ النار رأسه بحثاً عن مصدر المواء، فرأى ثلاثة قطط جالسة على الصخرة العظيمة. بدت القطط مجرّد أشكال سوداء على خلفية السماء المضاءة بنور القمر؛ نجمة الصباح والنجم نمرود والنجم الأعوج.

كان زعماء العشائر على وشك بدء الاجتماع. لكن أين زعيم عشيرة الرياح؟

همس بسّ النار: "هل يعقل أن يبدؤوا الاجتماع من دون النجمّ المذنّب؟".

تمتم بسّ رمادي: "لا أدري".

همس مبتدئ من عشيرة النهر يقف إلى جانب بسّ النار: "هل لاحظتم أنّه لا يوجد بيننا هرّ واحد من عشيرة الرياح؟".

شعر بسّ النار أنّ أحاديث مشابهة تدور بين كلّ المجتمعين. ومع تجمّع القطط الأخرى تحت الصخرة العظيمة، سرت الهمسات القلقة بينهم.

هتف صوت قائلاً: "لا يمكننا أن نبدأ، أين ممثّلو عشيرة الرياح؟ علينا أن ننتظر حتّى تحضر كلّ العشائر".

على قمّة الصخرة، تقدّمت نجمة الصباح خطوة، ومض فراؤها الرمادي بلون أبيض تقريباً تحت ضوء القمر. قالت بصوت واضح: "أهلاً بكم جميعاً. صحيح أنّ عشيرة الرياح لم تحضر بعد، لكنّ النجم نمرود يودّ الكلام على أيّ حال".

تقدّم النجم نمرود من دون أن يحدث أيّ صوت ووقف بجانب نجمة الصباح. نظر إلى الحشد لبضع دقائق بعينين برتقاليتين ملتهبتين. أخيراً أخذ نفساً عميقاً وقال: "يا أصدقائي، لقد أتيت الليلة لأحدّثكم عن حاجات عشيرة الظلال...".

لكنّ أصواتاً ملحّة علت من الأسفل وقاطعته.

صاح أحدهم: "أين هو النجم المذنّب؟".

وهتف آخر: "أين محاربو عشيرة الرياح؟".

مدّد النجم نمرود جسده حتّى بلغ أعلى ارتفاع له ثمّ هزّ ذيله يميناً ويساراً وزمجر بصوت مليء بالتهديد: "بصفتي زعيم عشيرة الظلال، لي الحقّ في مخاطبتكم هنا!". صمت الحاضرون على الرغم من التوتّر الذي سيطر على الأجواء، واشتمّ بسّ النار من حوله رائحة خوف حادّة.

هتف النجم نمرود مجدّداً: "جميعنا نعلم أنّ أوقات الشدّة التي نمرّ بها في فصل الثلوج وتأخّر فصل الزهر سبّبت ندرة في الطرائد على أراضينا. لكنّنا نعرف أيضاً أنّ عشيرة الرياح، وعشيرة النهر، وعشيرة الرعد خسرت عديداً من الهررة الصغيرة في الطقس الجليدي الذي أتى متأخّراً هذا العام. لكنّ عشيرة الظلال لم تخسر صغارها، فنحن معتادون على رياح الشمال الباردة، وصغارنا يتمتّعون ببنية أقوى من صغاركم منذ ولادتهم. لهذا السبب، لدينا عدد أكبر من الأفواه لإطعامه، والقليل من الفرائس لاصطيادها".

خيّم الصمت على الحاضرين وهم يصغون بتوتّر.

"احتياجات عشيرة الظلال بسيطة. لكي نعيش، علينا توسيع أراضي الصيد التي نملكها. لهذا السبب، أنا أصرّ على أن تسمحوا لمحاربي عشيرة الظلال بالصيد في أراضيكم".

سرت همهمات الصدمة بين الحشد.

ارتفع صوت النمر الشرس غاضباً: "تريدون مشاركتنا أراضينا؟".

هتفت أنثى بنّية من عشيرة النهر: "هذا طلب غير مسبوق! فالعشائر لم تتشارك حقوق الصيد يوماً!".

قال النجم نمرود من على الصخرة العالية: "وهل تُعاقَب عشيرة الظلال لأنّ صغارها كثر؟ هل تريدوننا أن نتفرّج على أولادنا وهم يموتون جوعاً؟ يجب عليكم أن تشاركونا بما تملكون".

صاح شمشوم بغضب من آخر الحشد: "يجب!".

كرّر النجم نمرود: "أجل. لقد رفضت عشيرة الرياح أن تفهم ذلك، فاضطررنا في النهاية إلى إجبارها على الخروج من أرضها".

راحت القطط المحتشدة تزمجر غاضبة، لكنّ صيحة النجم نمرود طغت على أصواتها. "وإن اضطررنا، سنخرجكم جميعاً من أراضيكم لكي نطعم صغارنا الجائعين".

خيّم الصمت فوراً. رأى بسّ النار من الجهة الأخرى من الفسحة مبتدئاً من عشيرة النهر يحاول أن يقول شيئاً بصوت خافت، لكنّ أحد الكبار أسكته فوراً.

فرح النجم نمرود لأنّه حظي بانتباه الجميع، فتابع يقول: "كلّ عام يُفسد ذوي الساقين مساحة أكبر من أرضنا. وينبغي على الأقلّ أن تبقى عشيرة واحدة قوية إن أرادت كلّ العشائر البقاء. في حين أنّكم تكافحون للعيش، فإنّ عشيرة الظلال في ازدهار دائم، وقد يأتي وقت تحتاجون فيه إلينا لحمايتكم".

هسّ النمر الشرس: "هل تشكّك في قوّتنا؟". لمعت عيناه الباهتتان بتهديد صريح لزعيم عشيرة الظلال، وبدا التوتّر على كتفيه القويتين المتصلّبتين.

تجاهل النجم نمرود تحدّي المحارب وأضاف: "أنا لا أطلب منكم جواباً الآن. اذهبوا وفكّروا بكلامي، لكن تذكّروا: إمّا أن تشاركونا فرائسكم أو أن تخرجوا من أرضكم وتعانوا التشرّد والجوع".

تبادل المحاربون والمسنّون والمبتدئون نظرات عدم التصديق. وخلال الصمت المتوتّر الذي أعقب هذا الكلام، تقدّم النجم الأعوج وقال بهدوء وهو ينظر إلى عشيرته: "لقد وافقتُ على التنازل لعشيرة الظلال عن بعض حقوق الصيد في النهر الذي يجري في أرضنا".

ساد شعور الذعر والمذلّة بين قطط عشيرة النهر عند سماع كلام زعيمها.

صاح هرّ ذو فراء فضّي مرقّط ببقع رمادية: "لكن لم يستشرنا أحد!".

شرح النجم الأعوج بصوت مثقل بالاستسلام: "لقد شعرت أنّ هذا الحلّ هو الأفضل لعشيرتنا، لا بل لكلّ العشائر. فالنهر مليء بالسمك، ومن الأفضل تقاسم الفرائس عوضاً عن إراقة الدماء ونحن نتقاتل عليها".

سأل شمشوم بصوت خشن: "وماذا عن عشيرة الرعد؟ نجمة الصباح؟ هل وافقت أنت أيضاً على هذا الطلب المشين؟".

نظرت نجمة الصباح بثبات إلى عيني الهرّ المسنّ. "لم أعقد أيّ اتّفاق مع النجم نمرود

باستثناء أنّني سأناقش عرضه مع أعضاء عشيرتي بعد الاجتماع".

تمتم بسّ رمادي في أذن بسّ النار: "حسناً، هذا معقول. سنريهم أنّنا لسنا ضعفاء مثل قطط عشيرة النهر ببطونها الصفراء".

تكلّم النجم نمرود مجدّداً، وبدا صوته متكبّراً وقوياً بعد استسلام النجم الأعوج: "سأخبركم أيضاً بأمر مهمّ من أجل سلامة صغاركم. ثمّة قطّة من عشيرة الظلال تشرّدت ورفضت اتّباع قانون المحاربين، لذلك طردناها من مخيّمنا، لكنّنا لا نعرف أين هي الآن. صحيح أنّها تبدو عجوزاً جرباء، لكنّ عضّتها كعضّة نمر".

اقشعرّ جسم بسّ النار. هل يمكن أن تكون جمرة هي المقصودة؟ رفع أذنيه بفضول لسماع المزيد.

"إنّها خطرة، وأنا أحذّركم ألّا تقدّموا لها المأوى. و..." صمت النجم نمرود لإضفاء مزيد من الجدّية على كلامه: "... إلى أن يتمّ القبض عليها وقتلها، أحثّكم على مراقبة صغاركم جيّداً".

أدرك بسّ النار من الزمجرة العصبية التي تردّدت في حناجر قطط عشيرة الرعد أنّهم فكّروا هم أيضاً بجمرة. فما أنّ الهرّة الجريئة لم تفعل شيئاً لاستدرار عطفهم، أدرك بسّ النار أنّ قطط عشيرته لن تحتاج إلى كثير من التحريض لتجقد عليها، حتّى لو أتى التحريض من عدوّهم اللدود النجم نمرود.

بدأ محاربو عشيرة الظلال يشقّون طريقهم خارج حشد القطط. قفز النجم نمرود عن الصخرة وأحاط به محاربوه فوراً ثمّ رافقوه مبتعدين عن الأشجار الأربع في رحلة العودة إلى أرض عشيرة الظلال. أمّا بقيّة قطط العشيرة، فتبعتهم مسرعة، بمن فيها الهرّ المخطّط صغير الحجم الذي تكلّم معه قلب الأسد منذ قليل. لكن عندما انضمّ ذلك الهرّ إلى بقيّة مبتدئي عشيرة الظلال، لم يعد يبدو صغيراً جدّاً، بل بدوا جميعاً ضئيلي الحجم ويعانون من قلّة التغذية، أقرب إلى هررة بسنّ ثلاثة أو أربعة أشهر منهم إلى مبتدئين فعليين.

سأل بسّ رمادي بصوت خافت: "ما رأيك بكلّ هذا؟".

تدخّل بسّ أدهم قبل أن يتمكّن بسّ النار من الإجابة. سأل بصوت مذعور وقد انتصب فراؤه خوفاً واتّسعت عيناه أكثر من أيّ وقت مضى: "ماذا سيحدث الآن؟".

لم يجبه بسّ النار. كان مسنّو عشيرة الرعد مجتمعين في الجوار، فحاول الإصغاء لما يقولون.

قال شمشوم: "لا بدّ أنّه كان يتحدّث عن جمرة".

تمتمت النمرة الشقراء بوجوم: "في الواقع، سبق أن صاحت في وجه أحد صغار زهرة الذهب منذ يومين". كانت النمرة الشقراء الأنثى الأكبر سنّاً في الحضانة وكانت معتادة على حماية كلّ الصغار بشراسة.

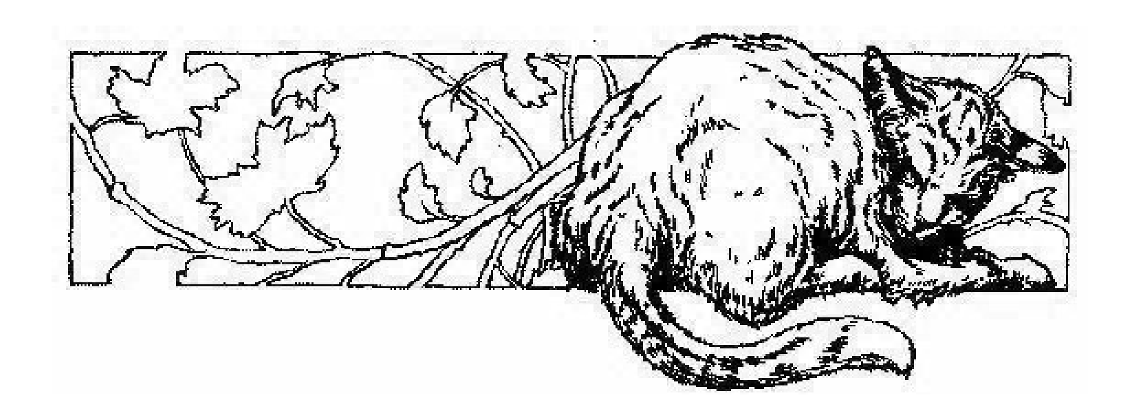
ولولت عوراء التي بدت للحظة أنّها لم تعد تعاني من أيّ صعوبة في سماع كلّ ما يقال: "وتركناها خلفنا والمخيّم بلا حراسة تقريباً".

همس النمر الأسود: "حاولتُ إقناعكم أنّها تشكّل خطراً علينا. على نجمة الصباح أن تتعقّل الآن وتتخلّص منها قبل أن تؤذي أيّاً من صغاركم!".

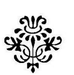
اقترب النمر الشرس بخطى واسعة من المجموعة وماء بصوت غاضب: "علينا العودة إلى المخيّم حالاً لتلقين تلك الجرباء درساً لن تنساه!".

لم ينتظر بسّ النار لسماع المزيد، فقد كان رأسه يدور بالأفكار. على الرغم من ولائه لعشيرته، إلّا أنّه لم يصدّق أنّ جمرة تشكّل خطراً على الصغار. من شدة خوفه على الهرّة العجوز وكثرة الأسئلة التي لا يمكن لأحد سواها الإجابة عنها، انطلق مسرعاً من دون أن يقول شيئاً لبسّ رمادي وبسّ أدهم.

تسلّق سفح التلّ وانطلق يجري في الغابة. هل كان مخطئاً حيال جمرة؟ إن حذّرها من الخطر الذي يُحدق بها، هل يخاطر بموقعه في عشيرة الرعد؟ أيّاً تكن المشاكل التي يعرّض نفسه لها، عليه معرفة الحقيقة منها قبل عودة بقيّة القطط إلى المخيّم.



الفصل 13



وصل بسّ النار إلى حافة الوادي ونظر إلى المخيّم في الأسفل. كان يلهث وكانت أكفّه رطبة بسبب الندى. اشتمّ الهواء وعرف أنّه بمفرده. ما زال لديه الوقت للتحدّث إلى جمرة قبل عودة الآخرين من الاجتماع. هبط بهدوء السفح الصخري وتسلّل عبر نفق القندول من دون أن يلاحظه أحد.

كان المخيّم ساكناً وهادئاً باستثناء أصوات أنفاس القطط النائمة. مشى بسّ النار مسرعاً على أطراف الفسحة إلى أن وصل إلى المكان الذي تنام فيه جمرة. كانت الهرّة المداوية العجوز مكوّرة على فراش الطحالب الخاصّ بها.

همس بإلحاح: "جمرة، جمرة! استيقظي، فالأمر هامّ!".

فتحت جمرة عينيها البرتقاليتين اللتين أخذتا تلمعان في ضوء القمر. ماءت بصوت خافت: "لم أكن نائمة". بدت هادئة ويقظة. "هل أتيت من الاجتماع مباشرة إليّ؟ هذا يعني أنّك سمعت". رفّت عينيها ببطء ونظرت بعيداً. "إذاً، لقد وفى النجم نمرود بوعده".

سألها بسّ النار بحيرة تامّة: "أيّ وعد؟". بدا له أنّ جمرة تعرف ما يجري أكثر منه بكثير.

أجابت بجفاف: "وعدني زعيم عشيرة الظلال النبيل بإخراجي من أراضي كلّ العشائر. ماذا قال عنّي؟".

"حذّرنا أنّ صغارنا سيكونون في خطر ما دمنا نأوي هرّة عشيرة الظلال الشريدة. لم يذكرك بالاسم، لكنّ عشيرة الرعد خمّنت أنّه يتحدّث عنك. عليك الرحيل حالاً قبل وصول الآخرين، فأنت في خطر!".

خفضت جمرة أذنيها وهزّت ذيلها غاضبة. "هل تعني أنّهم صدّقوا النجم نمرود؟".

أجابها بسّ النار بإلحاح: "أجل! يقول النمر الأسود إنّك خطرة، وبقيّة القطط خائفة منك. أمّا النمر الشرس فقرّر العودة و... لا أدري... أعتقد أنّه يجدر بك الذهاب من هنا قبل وصولهم!".

سمع بسّ النار من بعيد مواء القطط الغاضبة، فقاومت جمرة تصلّب مفاصلها وحاولت الوقوف على أقدامها. ساعدها بسّ النار بدفعة من رأسه الذي كان يدور بالأسئلة، ولم يستطع منع نفسه من سؤالها: "ما الذي كان يعنيه النجم نمرود عندما أوصانا بالانتباه جيّداً إلى صغارنا؟ هل يمكنك حقّاً فعل شيء كهذا؟".

"فعل ماذا؟".

"إيذاء صغارنا".

اتّسع أنف جمرة التي رمقته متسائلة: "وهل تظنّ ذلك؟".

نظر إليها بسّ النار بثبات وأجاب: "كلّا، أنا لا أصدّق أنّك قادرة على إيذاء هرّ صغير، لكن ماذا كان النجم نمرود يقصد من ذلك؟".

كانت أصوات القطط تقترب، ومعها روائح العدوانية والغضب. أخذت جمرة تنظر بذعر يميناً ويساراً.

حثّها بسّ النار قائلاً: "اذهبي!". فقد كانت سلامتها أهمّ من فضوله.

بيد أنّ جمرة بقيت حيث هي تحدّق إليه. فجأة، بدا الهدوء في عينيها الواسعتين وقالت: "بسّ النار، أنت تصدّق أنّني بريئة وأنا ممتنّة لذلك. وإن صدّقتني فهذا يعني أنّ قططاً أخرى ستفعل. أنا واثقة أنّ نجمة الصباح ستصغي إليّ وأنا أدافع عن نفسي، لكنّني لا أستطيع الهرب إلى الأبد، فقد أصبحت هرمة جدّاً. سأبقى هنا وأواجه قرار عشيرتك". تنهّدت ثمّ جلست على وركيها النحيلَين.

"لكن ماذا عن النمر الشرس؟ ماذا لو...".

"إنّه عنيد ويدرك السلطة التي يتمتّع بها على بقيّة قطط العشيرة، فهم يخشونه. لكن حتّى هو سينصاع لإرادة نجمة الصباح".

عرف بسّ النار من حفيف الأعشاب خلف حدود المخيّم أنّ القطط وصلت تقريباً إلى المدخل.

هسّت جمرة مُظهرة أسنانها المسودّة: "اذهب يا بسّ النار. لا تورّط نفسك في المشاكل ببقائك معي الآن، فما من شيء يمكنك فعله من أجلي. ثق بزعيمة عشيرتك ودعها تقرّر مصيري".

أدرك بسّ النار أنّ جمرة اتّخذت قراراها. فلامس فراءها بأنفه، ثمّ ابتعد بصمت واختبأ في الظلال ليشاهد ما يجري.

دخلت القطط من النفق، تتقدّمها نجمة الصباح ويتبعها قلب الأسد. تبعتهما مباشرة بياض الثلج وغصن الصفصاف. اندفعت بياض الثلج تجري مباشرة إلى الحضانة، وفراء ذيلها مقشعرّ خوفاً. دخل النمر الشرس والنمر الأسود بخطوات واسعة إلى الفسحة، جنباً إلى جنب، وبدا عليهما التجهّم، ثمّ توافد الباقون، وخلفهم بسّ أدهم وبسّ رمادي. ما إن رأى بسّ النار صديقيه حتّى انضمّ إليهما.

همس بسّ رمادي عندما وصل بسّ النار إلى جانبه: "ذهبت لتحذير جمرة، أليس كذلك؟".

أقرّ بسّ النار: "أجل، لكنّها رفضت الرحيل، فهي تثق بأنّ نجمة الصباح ستكون عادلة معها. هل لاحظ أحد غيابي؟".

أجاب بسّ أدهم: "نحن فقط".

بدأت القطط التي مكثت في المخيّم تستيقظ تباعاً. لا شكّ أنّها اشتمّت رائحة العداء وسمعت التوتّر في أصوات القطط العائدة لأنّها أتت جميعاً وهي تجري إلى الفسحة رافعة أذيالها عالياً.

سأل محارب مخطّط يدعى البرق الخاطف: "ماذا جرى؟".

أجاب ذيّال بصوت عالٍ لتسمعه كلّ القطط: "طلب النجم نمرود حقوق صيد لعشيرته في أراضينا!".

أضافت غصن الصفصاف: "وحذّرنا من هرّة شريدة ستؤذي صغارنا! لا شكّ أنّها جمرة!".

ارتفع مواء الغضب والاستياء من الحشد.

صعدت نجمة الصباح إلى الصخرة العالية وأمرتهم بالصمت. تلقائيّاً، اجتمعت القطط أمامها.

سُمعت فجأة صيحة عالية، فاستدارت الرؤوس باتّجاه الشجرة المقطوعة التي ينام عندها المسنّون. كان النمر الشرس والنمر الأسود يجرّان جمرة بعنف من فراشها. راحت تصيح غاضبة وهما يدفعانها إلى الفسحة ويلقيان بها أمام الصخرة العالية. شعر بسّ النار أنّ كلّ عضلات جسمه تتوتّر. ومن دون تفكير، جثم استعداداً ليقفز على الهرّين اللذين يضطهدان جمرة.

زمجر بسّ رمادي في أذنه: "انتظر يا بسّ النار، دع نجمة الصباح تتولّى الأمر".

نزلت نجمة الصباح عن الصخرة وسألت المحاربين وهي ترمقهما بحدّة: "ماذا يجري؟ أنا لم أصدر أيّ أمر بمهاجمة أسيرتنا".

أفلت النمر الشرس والنمر الأسود جمرة على الفور، فربضت على التراب وهي تهسّ وتبصق.

خرجت بياض الثلج من الحضانة ثمّ شقّت طريقها بين الحشد ووقفت أمامهم. ماءت وهي تلهث: "لقد عدنا في الوقت المناسب، الصغار بخير!".

أجابتها نجمة الصباح بنبرة حادّة: "بالطبع هم بخير!".

فوجئت بياض الثلج بجواب نجمة الصباح، وسألتها وقد اتّسعت عيناها الزرقاوان دهشة: "لكنّك... ستطردين جمرة، أليس كذلك؟".

صاح النمر الأسود مظهراً مخالبه: "تطردها؟ بل سنقتلها حالاً!".

رمقت نجمة الصباح بعينيها الزرقاوين الثاقبتين وجه النمر الأسود الغاضب وسألته بهدوء بارد: "وماذا فعلَت؟".

أمسك بسّ النار أنفاسه.

بدأ النمر الأسود يقول: "لقد كنتِ في الاجتماع! قال النجم نمرود إنّها...".

قاطعته نجمة الصباح بصوت هادئ لكنّه مليء بالتهديد: "قال النجم نمرود ثمّة هرّة شريدة في مكان ما في الغابة، لكنّه لم يذكر جمرة بالاسم، والصغار بخير. عليكم أن تعرفوا أنّه ما دامت جمرة عندنا، فلن تتعرّض لأيّ أذى".

قوبل كلام نجمة الصباح بصمت تامّ، بينما تنهّد بسّ النار بارتياح.

نظرت جمرة إلى نجمة الصباح وزمّت عينيها باحترام. "سأرحل الآن إن أردتِ يا نجمة الصباح".

أجابتها نجمة الصباح: "لا ضرورة لذلك، فأنت لم ترتكبي أيّ خطأ. ستكونين بأمان هنا". رفعت زعيمة عشيرة الرعد رأسها ونظرت إلى القطط المحتشدة حول جمرة ثمّ قالت: "لقد حان الوقت لمناقشة الخطر الحقيقي على عشيرتنا، ألا وهو النجم نمرود. لقد بدأنا أساساً بالاستعداد لمواجهة هجوم من عشيرة الظلال. وسنواصل هذه الاستعدادات ونراقب حدودنا أكثر. عشيرة الرياح رحلت. كما أنّ عشيرة النهر منحت محاربي عشيرة الظلال حقوق صيد في أراضيها. والآن تقف عشيرة الرعد بمفردها في وجه النجم نمرود".

سرت همهمات بين القطط وشعر بسّ النار بوخز في جسده وهو ينتظر بترقّب.

قال النمر الشرس: "إذاً نحن لن نوافق على مطالب النجم نمرود؟".

أجابته نجمة الصباح: "لم يسبق أن تقاسمت العشائر حقوق الصيد، بل تمكّنت دائماً من إعالة نفسها من أراضيها، وما من سبب ليتغيّر ذلك". فهزّ النمر الشرس رأسه باستحسان.

سأل شمشوم بصوت مرتعش: "لكن هل يمكننا الدفاع عن أنفسنا ضدّ هجوم من عشيرة الظلال؟ عشيرة الرياح لم تنجح في ذلك! في حين أنّ عشيرة النهر لم تتكبّد عناء المحاولة!".

نظرت نجمة الصباح بثبات إلى عينيه المتعبتين. "علينا المحاولة. لن نتخلّى عن أراضينا من دون قتال".

أخذت القطط في كلّ أرجاء الفسحة تهزّ رؤوسها موافقة.

أعلنت نجمة الصباح قائلة: "سأذهب غداً إلى حجر القمر. هناك سيمدّني محاربو عشيرة النجوم بالقوّة التي أحتاج إليها لأقود عشيرة الرعد في هذه الأوقات العصيبة. اخلدوا إلى الراحة الآن، إذ ينتظرنا كثير من العمل غداً عند شروق الشمس. والآن، أرغب في التحدّث مع قلب الأسد". من دون أن تضيف أيّ كلمة، استدارت ودخلت إلى وكرها.

لاحظ بسّ النار نظرة الاستغراب التي طغت على وجود بعض القطط عندما ذكرت نجمة الصباح حجر القمر. وسرعان ما توزّعت القطط في مجموعات وراحت تموء بأصوات خافتة ومليئة بالحماسة.

سأل بسّ النار بسّ رمادي: "ما هو حجر القمر؟".

همس بسّ رمادي: "إنّها صخرة تحت الأرض تلمع في الظلام". كان صوته مليئاً بالرهبة. "يتعيّن على كلّ زعماء العشائر تمضية ليلة واحدة عند حجر القمر بعد أن يتمّ اختيارهم. هناك، تتشارك أرواح عشيرة النجوم معهم".

"وبماذا تتشارك معهم؟".

عبس بسّ رمادي ثمّ أقرّ قائلاً: "لا أدري. كلّ ما أعرفه أنّ الزعماء الجدد ينامون بجانب الحجر، فتراودهم أحلام خاصّة. بعد ذلك يُمنحون تسعة أرواح ويكتسبون اسم نجم".

راقب بسّ النار جمرة وهي تعرج عائدة إلى فراشها في الظلّ. يبدو أنّ معاملة النمر الشرس القاسية أزّمت إصابتها القديمة. وبينما كان عائداً إلى وكر المبتدئين، قرّر أن يطلب من الورقة الرقطاء مزيداً من بذور الخشخاش في الصباح.

سأله بسّ أغبر بلهفة وهو يخرج رأسه من الوكر: "إذاً، ماذا حدث؟". يبدو أنّه نسي كم كان يستاء من لهفة المبتدئين الجدد لسماع ما جرى في الاجتماع.

أجاب بسّ رمادي: "كما قال النمر الذيّال. طالب النجم نمرود بحقوق صيد...".

جلست بسّة الرمال وبسّ أغبر يصغيان، بينما كان بسّ النار يراقب المخيّم. رأى نجمة الصباح وقلب الأسد جالسَين أمام وكرها يتحدّثان بجدّية.

لمح بعد ذلك بسّ أدهم عند مدخل وكر المحاربين، بينما وقف النمر الشرس إلى جانبه. رأى كيف انخفضت أذنا صديقه وانكمش مبتعداً بسبب كلام النمر الشرس القاسي. كان المحارب

الأسمر واقفاً أمامه، وهو بضعف حجمه تقريباً، وعيناه وأسنانه تلمع في ضوء القمر. ما الذي كان يقوله لبسّ الأدهم؟ فكّر بسّ النار بالتسلّل لمسافة أقرب واستراق السمع، لكنّ بسّ أدهم تراجع ثمّ استدار وأخذ يجري عبر الفسحة.

ألقى بسّ النار التحيّة على بسّ أدهم عندما وصل إلى وكر المبتدئين، لكن لا يبدو أنّ هذا الأخير لاحظه. عوضاً عن ذلك، دخل إلى الوكر من دون أن ينبس ببنت شفة.

نهض بسّ النار ليلحق به، لكنّه رأى قلب الأسد آتياً.

اقترب نائب عشيرة الرعد من المبتدئين وقال: "حسناً، يبدو أنّ بسّ النار وبسّ رمادي وبسّ أدهم سيبلغان مرحلة هامّة أخرى في تدريبهم".

بدت الحماسة على وجه بسّ رمادي وهو يسأل: "ماذا تعني؟".

"ترغب نجمة الصباح أن ترافقوها في رحلتها إلى حجر القمر!". لم تفت قلب الأسد نظرة الخيبة على وجهَي بسّ أغبر وبسّة الرمال، لذلك أضاف: "لا تقلقا أنتما الاثنان، ستقومان بالرحلة قريباً. فعشيرة الرعد تحتاج حاليّاً إلى قوّتكما ومهارتكما في المخيّم. وأنا أيضاً سأمكث هنا".

نظر بسّ النار إلى زعيمته. كانت تنتقل من مجموعة محاربين إلى أخرى وتعطيهم الأوامر. لماذا اختارته لهذه الرحلة يا ترى؟

تابع قلب الأسد: "تريدكم أن تأخذوا الآن قسطاً من الراحة. لكن اذهبوا أوّلاً إلى الورقة الرقطاء لتعطيكم الأعشاب التي تحتاجون إليها خلال الرحلة. فالطريق طويل، وأنتم بحاجة إلى شيء يمنحكم القوّة ويخفّف من شهيّتكم. فالوقت لن يكون كافياً للصيد".

هزّ بسّ رمادي رأسه موافقاً فأعاد بسّ النار انتباهه إلى قلب الأسد وهزّ رأسه هو الآخر.

سألهما قلب الأسد: "أين بسّ أدهم؟".

أجاب بسّ النار: "سبق وخلد إلى النوم".

"حسناً، اتركاه ينام وأحضرا الأعشاب له. ناموا جيّداً، لأنّكم ستنطلقون مع طلوع الفجر". حرّك ذيله وعاد نحو وكر نجمة الصباح.

قالت بسّة الرمال: "حسناً إذاً، من الأفضل لكما أن تذهبا لرؤية الورقة الرقطاء".

بحث بسّ النار عن نبرة لاذعة في صوتها، لكنّه لم يجد شيئاً. فالوقت ليس مناسباً للغيرة الآن، بل يبدو أنّ كلّ قطط العشيرة اتّحدت ضدّ تهديد عشيرة الظلال.

أسرع بسّ النار وبسّ رمادي إلى وكر الورقة الرقطاء. كان نفق الخنشار مظلماً، وحتّى ضوء البدر لم يستطع اختراق الغطاء النباتي الكثيف.

يبدو أنّ الورقة الرقطاء كانت تتوقّع مجيئهما عندما دخلا إلى الفسحة المضيئة أمام وكرها، إذ قالت: "أتيتما لأخذ أعشاب للسفر".

أجابها بسّ النار: "أجل من فضلك. وأعتقد أنّ جمرة تحتاج إلى مزيد من بذور الخشخاش، يبدو أنّ جراحها تؤلمها".

"سآخذ إليها القليل بعد ذهابكما. أعشاب السفر جاهزة".

أشارت إلى كومة من لفائف ورق الشجر المجهّزة بعناية. "حضّرت ما يكفي لكم أنتم الثلاثة. الأوراق الخضراء الداكنة ستمنعكم من الإحساس بالجوع خلال الرحلة، أمّا الأعشاب الأخرى فستمنحكم القوّة. كلوها كلّها قبل أن ترحلوا. صحيح أنّها ليست لذيذة بقدر الفرائس الطازجة، لكنّ طعمها لن يدوم طويلاً".

قال بسّ النار: "شكراً لك، ثمّ انحنى وحمل إحدى اللفائف. بينما كان يخفض رأسه، اقتربت الورقة الرقطاء ولامست خدّها بأنفه. فتنشّق بسّ النار رائحتها الدافئة والحلوة وخرخر شاكراً.

حمل بسّ رمادي بقيّة الأعشاب واستدار الصديقان عائدَين عبر النفق.

تناهى إليهما صوت الورقة الرقطاء قائلة: "رحلة موفّقة! رافقتكم السلامة".

وصلا إلى مدخل وكرهما ووضعا اللفائف على الأرض.

تمتم بسّ رمادي: "حسناً، أتمنّى ألّا يكون طعم هذه الأعشاب مقزّزاً جدّاً!".

"لا بدّ أنّ الطريق طويلة إلى حجر القمر، إذ لم يسبق أن أعطونا أعشاباً من قبل. هل تعرف أين يقع؟".

"خارج أرض العشيرة، في مكان يسمّى الأحجار العالية. يقع في أعماق الأرض، في كهف نسمّيه فم الأرض".

دُهش بسّ النار لأنّ بسّ رمادي يعرف الكثير عن هذا المكان الغامض، فسأله: "هل ذهبت إلى هناك من قبل؟".

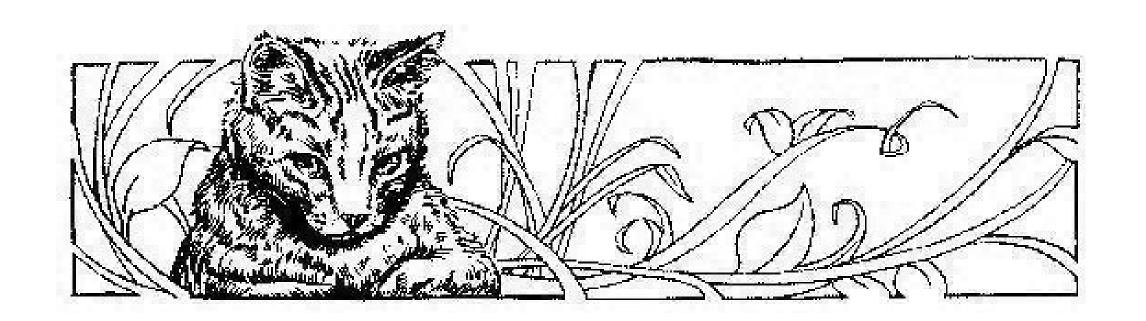
"كلّا، لكن كلّ المبتدئين يقومون بهذه الرحلة قبل أن يصبحوا محاربين".

لمعت عينا بسّ النار حماسة لفكرة أن يصبح محارباً، واستقام تلقائيّاً في وقفته.

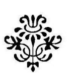
حذّره بسّ رمادي كما لو أنّه قرأ أفكاره: "لا تطلق العنان لخيالك، فما زال علينا إنهاء تدريبنا".

نظر بسّ النار إلى الأعلى عبر مظلّة الأغصان وتأمّل النجوم التي ترصّع سماء الليل. كان القمر قد بدأ ينخفض، فقال: "علينا أن نأخذ قسطاً من النوم". لكنّه لم يعتقد أنّه سيتمكّن من

النوم وهو يفكّر في مغامرة الغد. اجتماع الليلة ورحلة الغد إلى حجر القمر، كم تبدو حياة البسبوس الأليف بعيدة في هذه اللحظة!



الفصل 14



شعر بسّ النار أنّ البرد ينخر عظامه مع اشتداد الظلام حوله. لم يستطع أن يسمع شيئاً، في حين امتلأ أنفه برائحة الأرض الرطبة.

فجأة، ومضت أمامه كرة من الضوء الساطع. فخفض رأسه وحاول أن يحمي عينيه من الضوء الباهر. شعّ الضوء، ولمع ببرود مثل نجم، ثمّ انطفأ واختفى كما ظهر. تبدّد الظلام ووجد بسّ النار نفسه في الغابة. فشعر بالارتياح عندما اشتمّ الروائح المألوفة. تنشّق رائحة العشب الأخضر الرطب وانساب الهدوء عبر جسده.

من دون سابق إنذار، انبعث صوت مخيف من الأشجار. فاقشعرّ جسد بسّ النار. كان الصوت صادراً عن قطط مذعورة تجري بين الشجيرات أمامه. عرف بسّ النار قطط عشيرة الرعد من فرائها وهي تفرّ أمامه، فجمد في مكانه عاجزاً عن الحراك. بعد ذلك، ظهرت قطط عظيمة. كانت قططاً محاربة ذات أجسام ضخمة وداكنة وأعين تلمع بوحشية. اندفعت نحوه وهي تهزّ الأرض بأكفّها الضخمة، وقد استلّت مخالبها. ومن الظلال، تناهت إلى بسّ النار صرخة عالية ويائسة مليئة بالحزن والغضب. بسّ رمادي!

استيقظ بسّ النار مذعوراً. كان حلمه قد اختفى مخلّفاً طنيناً في أذنيه، في حين انتصب فراؤه من شدّة الخوف. فتح عينيه ليرى وجه النمر الشرس وهو يطلّ على الوكر، فقفز بسّ النار على أقدامه مجفلاً.

سأله النمر الشرس: "هل من خطب يا بسّ النار؟".

تمتم بسّ النار: "إنّه مجرّد حلم".

ألقى عليه النمر الشرس نظرة فضول ثمّ قال بصوت خشن: "أيقِظ الآخرين، سننطلق بعد قليل".

خارج الوكر، أطلّ فجر جديد وتلألأت حبّات الندى على أوراق الخنشار. سيكون يوماً دافئاً عندما تشرق الشمس، لكنّ رطوبة الصباح الباكر ذكّرت بسّ النار أنّ فصل الرياح بات قريباً.

أكل بسّ النار وبسّ رمادي وبسّ أدهم بسرعة الأعشاب التي أعطتهم إيّاها الورقة الرقطاء. وبينما جلس النمر الشرس ونجمة الصباح يراقبانهم، وقد أصبحا جاهزَين للانطلاق، كانت بقيّة قطط المخيّم غارقة في النوم.

قال بسّ رمادي متذمّراً: "ياه! كنت أعرف أنّها ستكون مُرّة. لماذا لم نأكل فأراً سميناً عوضاً عنها؟".

أجابت نجمة الصباح: "هذه الأعشاب ستمنعكم من الإحساس بالجوع لوقت أطول، كما أنّها ستمنحكم القوّة. فأمامنا رحلة طويلة".

سألها بسّ النار: "هل أكلتِ أعشابك؟".

أجابته نجمة الصباح: "لا يمكنني أن أتناول أيّ طعام إن كنت ذاهبة لمشاركة الأحلام مع عشيرة النجوم عند حجر القمر هذه الليلة".

أحسّ بسّ النار بوخز في أكفّه عندما سمع كلامها. كان متحرّقاً لبدء الرحلة. فمع بزوغ الفجر مرفقاً بالأصوات المألوفة، تبدّد الخوف الذي أحسّ به في الحلم، ولم يبقَ منه سوى ذكرى الضوء الساطع. لذلك جدّد كلام نجمة الصباح حماسته.

شقّت القطط الخمسة طريقها عبر نفق القندول إلى خارج المخيّم.

كان قلب الأسد عائداً مع دورية. ماء قائلاً: "رافقتكم السلامة".

هزّت نجمة الصباح رأسها مجيبة: "أعرف أنّني أستطيع الاعتماد عليك للحفاظ على أمن المخيّم".

نظر قلب الأسد إلى بسّ رمادي وخفض رأسه قائلاً له: "تذكّر أنّك أصبحت محارباً تقريباً. لا تنس ما علّمتك إيّاه".

نظر بسّ رمادي إلى قلب الأسد بمحبّة وأجابه وهو يمرّر رأسه على جسد الهرّ الذهبي المخطّط: "سأتذكّر ذلك دائماً يا قلب الأسد".

عادوا عبر الطريق المؤدّي إلى الأشجار الأربع. كان هذا هو الطريق الأسرع لعبور أراضي عشيرة الرياح، ذلك أنّ الأحجار العالية تقع خلفها.

بينما كان بسّ النار يهبط السفح المؤدّي إلى الصخرة العظيمة، استطاع أن يشتمّ روائح اجتماع الليلة الماضية. تبع الآخرين عبر الفسحة العشبية وصعوداً عبر المنحدر من الجهة الأخرى لدخول أراضي عشيرة الرياح. أصبح السفح العشبي أكثر انحداراً وهم يصعدون، كما

أصبح صخرياً أكثر بحيث اضطرت القطط إلى القفز من صخرة إلى أخرى على سفح جُرف وعر.

توقّف بسّ النار عندما وصلوا إلى القمّة. أمامهم، امتدّت الأرض منبسطة في سهل واسع. تموّج العشب ومالت الأشجار إثر هبوب الهواء في نسمات متتابعة. كانت الأرض صخرية تخلّلتها صخور عارية وبارزة هنا وهناك.

ما زال الهواء عابقاً بروائح عشيرة الرياح لكنّها أصبحت حادّة، وطغت عليها روائح حديثة العهد ومنذرة بالخطر للآثار التي تركها محاربو عشيرة الظلال.

قالت نجمة الصباح: "تملك كلّ العشائر حقّ العبور بسلام إلى حجر القمر، لكن يبدو أنّ عشيرة الظلال لم تعد تحترم قانون المحاربين، لذلك كونوا حذرين، واحرصوا على عدم الصيد خارج أراضينا. فنحن سنتّبع قانون المحاربين حتّى لو خرقته عشيرة الظلال".

بدؤوا بعبور السهل مع ارتفاع الشمس في السماء، سالكين دروباً بين نبات الخلنج. كان بسّ رمادي قد أصبح معتاداً على العيش تحت ظلال الأشجار. فمن دون ظلّها، يصبح فراءه الناري ثقيلاً وحارّاً ويحترق ظهره. لذلك سُرّ بالنسيم المتواصل الذي يهبّ من الغابة خلفه.

فجأة توقّف النمر الشرس وهسّ قائلاً: "انتبهوا! أنا أشتمّ رائحة دورية لعشيرة الظلال".

رفع بسّ النار والآخرين أنوفهم واشتمّوا بوضوح رائحة محاربي عشيرة الظلال في الهواء.

ماءت نجمة الصباح قائلة: "إنّهم بعكس اتّجاه الرياح ولن يعرفوا بوجودنا إن واصلنا المسير، لكن علينا أن نسرع. فلو سبقونا، سيكشفون أمرنا. أساساً، أصبحت حدود أراضي عشيرة الرياح قريبة".

حثّوا خطاهم وهم يقفزون فوق الصخور ويشقّون طريقهم بين نباتات الخلنج برائحتها الحلوة. مع كلّ خطوة، كان بسّ النار يشتمّ الهواء وينظر إلى الخلف تحسّباً من دورية عشيرة الظلال، لكنّ رائحتهم تلاشت تدريجيّاً. ففكّر بارتياح، لا بدّ أنّهم عادوا أدراجهم.

أخيراً وصلوا إلى أطراف الهضاب. تغيّر المشهد تماماً، ولم يعد يمكن التعرّف عليه بعد الخراب الذي أحدثه فيه ذوو الساقين. تخلّلت المروجَ الخضراء والذهبية طرقٌ ترابية، وانتشرت غابات صغيرة في المنطقة، بينما توزّعت أعشاش ذوي الساقين هنا وهناك في أرجاء الحقول. في البعيد، رأى بسّ النار درباً رمادياً واسعاً ومألوفاً، وحمل النسيم رائحة لاذعة لسعت حلقه.

سأل صديقَه بسّ رمادي: "أليس هذا هو درب الرعد؟".

أجاب بسّ رمادي: "بلى، فهو يمتدّ من أراضي عشيرة الظلال. هل ترى الأحجار العالية خلفه؟".

نظر بسّ النار إلى الأفق ليرى أنّ الأرض ترتفع بحدّة في تلال وعرة وجرداء. "إذاً هل سيتعيّن علينا عبور درب الرعد؟".

ماء بسّ رمادي: "نعم". كان صوته قوياً وواثقاً لا بل مرحاً تقريباً، وهو يواجه هذه الرحلة الصعبة.

قالت نجمة الصباح: "هيّا!". ثمّ قفزت إلى الأمام وأضافت: "سنصل مع طلوع القمر إن استمرّينا بالسير".

تبعها بسّ النار مع الآخرين وهبطوا التلّ مبتعدين عن أراضي عشيرة الرياح ليدخلوا أراضي ذوي الساقين الخصبة.

واصلت القطط طريقها على مقربة من الأسيجة النباتية. استطاع بسّ النار أن يشتمّ رائحة طرائد بين الشجيرات مرّة أو مرّتين، لكنّ أعشاب الورقة الرقطاء نجحت في إخماد شهيّته. كانت الشمس لا تزال حارّة على ظهره، حتّى في ظلال الأسيجة.

انعطفوا حول أحد أعشاش ذوي الساقين. كان يقع على مساحة واسعة من الأرض الحجرية الصلبة والبيضاء، وتتوزّع حوله أعشاش أصغر حجماً. تسلّلت القطط خلف السياج المحيط بالأرض الحجرية البيضاء، ففاجأهم نباح وزمجرة عاليين، الأمر الذي جعلهم يستديرون فوراً على أعقابهم.

كلاب! أحسّ بسّ النار أنّ قلبه يتوقّف. قوّس ظهره وانتصب فراؤه من أنفه إلى ذيله.

حدّق النمر الشرس من خلال السياج وهسّ قائلاً: "لا بأس، إنّهما مقيّدان!".

نظر بسّ النار إلى الكلبين الهائجَين على بعد عشرة أذيال بالكاد. كانا لا يشبهان إطلاقاً الكلاب الأليفة المدلّلة التي تعيش في حدائق ذوي الساقين. إذ حدّق إليه هذان المخلوقان بشراسة ووحشيّة، وراحا يشدّان قيودهما ويقفان على سيقانهما الخلفية. أخذا يزمجران وينبحان مكشّرَين عن أنيابهما الحادّة، إلى أن أسكتتهما صرخة لأحد ذوي الساقين من الداخل. هكذا، تابعت القطط طريقها.

كانت الشمس قد بدأت تنخفض في السماء عندما وصلوا إلى درب الرعد. فأشارت إليهم نجمة الصباح ليتوقّفوا وينتظروا إلى جانب أحد الأسيجة. أحسّ بسّ النار بحرقة في عينيه وحلقه بسبب الدخان وهو يشاهد الوحوش الضخمة تندفع من أمامه ذهاباً وإياباً.

قال النمر الشرس: "سنجتاز الطريق واحداً تلو الآخر. بسّ أدهم، أنت أوّلاً".

قاطعته نجمة الصباح: "كلّا أيّها النمر الشرس، أنا سأعبر أوّلاً. لا تنسَ أنّها المرّة الأولى التي يعبر فيها المبتدئون هذا الطريق، لذا دعهم يشاهدون كيف يقومون بذلك".

حدّق بسّ النار إلى زعيمة عشيرته وهي تقترب من طرف الطريق وتنظر يميناً ويساراً. انتظرت بهدوء بينما أخذ الوحوش يمرّون من أمامها ويشعّثون فراءها. وعندما توقّف زئيرها الذي يصمّ الآذان للحظة، أسرعت نجمة الصباح تعبر الطريق إلى الجانب الآخر.

ماء النمر الشرس: "هيّا يا بسّ أدهم، فقد رأيتَ الآن كيفيّة العبور".

لاحظ بسّ النار كيف اتّسعت عينا بسّ أدهم خوفاً. وعرف ما يشعر به صديقه، فقد كان يشتمّ أساساً رائحة خوفه هو نفسه. تقدّم الهرّ الصغير الأسود إلى طرف الطريق، الذي كان هادئاً، لكنّه تردّد في عبوره.

هسّ النمر الشرس من جانب السياج: "انطلق!". رأى بسّ النار عضلات بسّ أدهم وهي تتقلّص استعداداً للجري. بعد ذلك بدأت الأرض ترتجف تحت أكفّه. فقد أتى أحد الوحوش مسرعاً من بعيد ومرّ من أمامهم. انكمش الهرّ الأسود على نفسه للحظة ثمّ تقدّم للانضمام إلى نجمة الصباح. فجأة، أتى وحش من الاتّجاه الآخر وأثار التراب في الموضع الذي تركه بسّ أدهم قبل لحظة. فارتجف بسّ النار وأخذ نفساً عميقاً ليهدّئ من روعه.

كان بسّ رمادي محظوظاً. فقد ساد هدوء تامّ عبَر خلاله بأمان، قبل أن يحين دور بسّ النار.

زمجر النمر الشرس: "هيّا تقدّم". حوّل بسّ النار نظره من النمر الشرس إلى درب الرعد، ثمّ مشى مبتعداً عن السياج. انتظر عند طرف الطريق مثلما فعلت نجمة الصباح. كان ثمّة وحش مندفع باتّجاهه، فنظر إليه بسّ النار وهو يقترب. حدّث نفسه قائلاً، بعد مروره، وانتظر. فجأة غاص قلبه عندما أدرك أنّ الوحش انحرف عن الطريق وبدأ يسير على العشب. كان متّجهاً نحوه مباشرة! رأى اثنين من ذوي الساقين واقفَين عند فتحة في جانبه. فقفز إلى الخلف واستلّ مخالبه، بينما شعّثته الرياح التي أحدثها الوحش وهو يمرّ على بعد شارب منه. جثم فوق التراب وهو يرتجف، وحدّق إليه وهو يعود إلى الطريق ويختفي في البعيد. على الرغم من الدم الذي يضجّ في أذنيه، أدرك أنّ درب الرعد هدأ مجدّداً، فعبره مسرعاً كما لم يفعل في حياته.

قال بسّ رمادي بينما كان صديقه مندفعاً نحوه بأقصى سرعته، حتّى إنّه أوشك أن يسقطه أرضاً: "ظننت أنّه قُضيَ عليك!".

شهق بسّ النار قائلاً: "وأنا كذلك!". حاول أن يكفّ عن الارتجاف، وعندما التفت إلى الخلف، شاهد النمر الشرس وهو ينطلق نحوهم.

قال عندما وصل إليهم: "تبّاً لذوي الساقين!".

سألت نجمة الصباح بسّ النار: "هل تريد أن تستريح قبل أن نواصل طريقنا؟".

نظر بسّ النار إلى الأعلى ورأى أنّ الشمس انخفضت في السماء فأجابها: "كلّا، أنا بخير". في الواقع، كان قد ابتعد بجنون من طريق الوحش ويشعر بالألم في أكفّه.

واصلت القطط تقدّمها خلف نجمة الصباح. كانت الأرض أدكن لوناً في هذا الجانب من درب الرعد والعشب أكثر خشونة تحت أقدامهم. مع اقترابهم من أسفل الأحجار العالية، اختفى العشب مخلّفاً أرضاً صخرية عارية تتخلّلها بقع من نباتات الخلنج. من هذه المنطقة، بدأت الأرض ترتفع نحو السماء. فبرزت صخور وعرة من سفوحها وبدت برتقالية تحت أشعّة الشمس.

توقّفت نجمة الصباح مرّة أخرى. اختارت صخرة دافئة لتجلس عليها وكانت عريضة

ومسطّحة تتّسع للقطط الخمسة.

ماءت قائلة وهي تميل رأسها نحو المنحدر المعتم أمامهم: "انظروا، هذا هو فم الأرض".

حدّق بسّ النار إلى الأعلى. بهرته أشعّة شمس المغيب، وكان الظلام يكتنف المنحدر.

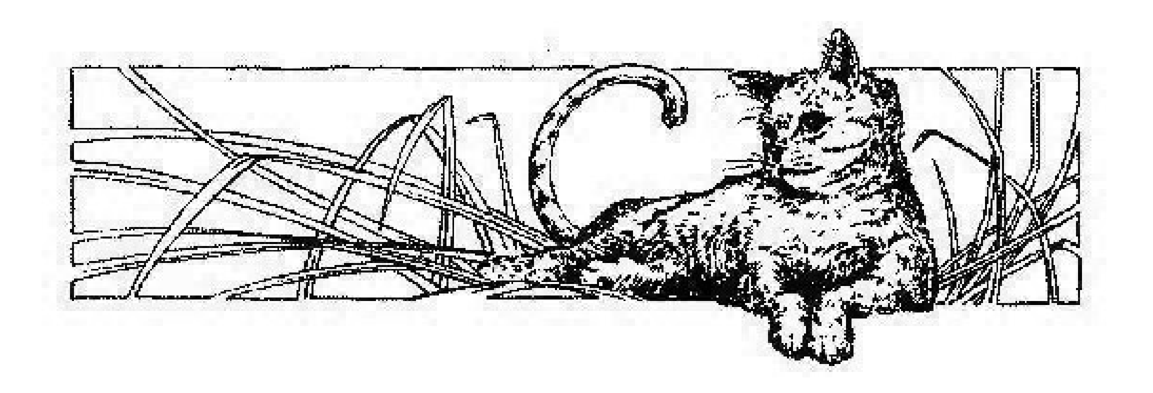
انتظرت القطط بصمت. تدريجيّاً، مع انخفاض الشمس خلف الأحجار العالية، بدأ بسّ النار يرى مدخل الكهف، وكان عبارة عن فتحة سوداء مربّعة تحت قنطرة حجرية.

ماءت نجمة الصباح: "سننتظر هنا إلى أن يرتفع القمر أكثر. يمكنكم الصيد إن كنتم تشعرون بالجوع وأخذ قسط من الراحة بعد ذلك".

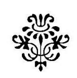
شعر بسّ النار بالسرور لفرصة تناول طعام، فقد كان يتضوّر جوعاً. ومن الواضح أنّ بسّ رمادي جائع هو الآخر، لأنّه قفز في أجمة من نباتات الخلنج متتبّعاً رائحة فريسة واضحة في الهواء. تبعه بسّ النار وبسّ أدهم، بينما انطلق النمر الشرس بالاتّجاه المعاكس. أمّا نجمة الصباح فلازمت مكانها. جلست بصمت وسكون تحدّق إلى فم الأرض من دون أن يرفّ لها جفن.

جمع المبتدئون الثلاثة كثيراً من الطرائد، ثمّ التهموها مع النمر الشرس عند سفح التلّ الصخري. لكن على الرغم من صيدهم السهل، لم ينبس أحد منهم ببنت شفة، وبقي التوتّر والترقّب يسودان الأجواء.

بعد ذلك، استراحت القطط إلى جانب زعيمتها إلى أن بردت الصخرة تحت أجسادها وامتدّت الظلال السوداء الباردة من كلّ اتّجاه. عندئذٍ قالت نجمة الصباح: "هيّا بنا، لقد حان الوقت".



الفصل 15



وقفت نجمة الصباح وبدأت تتقدّم من فم الأرض. مشى النمر الشرس إلى جانبها وواكبها خطوة خطوة.

نادى بسّ رمادي: "هيّا بنا يا بسّ أدهم!". كان بسّ أدهم لا يزال جالساً على الصخرة يحدّق إلى الصخور في الأعلى. عندما ناداه بسّ رمادي، وقف وبدأ يتبعهم ببطء. لاحظ بسّ النار أنّ صديقه لم يقل شيئاً طوال الرحلة. أهو خائف من عشيرة الظلال، أم ثمّة ما يقلقه؟

استغرقت القطط بضع دقائق للوصول إلى فم الأرض. وقف بسّ النار عند الفتحة وحدّق إلى الداخل، غير أنّ الظلام الذي يخيّم خلف القنطرة الحجرية كان دامساً أكثر من أيّ ليلة عرفها. حدّق إلى الداخل محاولاً أن يعرف إلى أين يؤدّي النفق، لكنّه لم ير شيئاً.

إلى جانبه، وقف بسّ أدهم وبسّ رمادي وأمالا رأسيهما بعصبية نحو المدخل. حتّى النمر الشرس بدا غير مرتاح للفجوة المظلمة، إذ سأل قائلاً: "كيف سنجد طريقنا في هذا الظلام؟".

أجابته نجمة الصباح: "ستجد طريقك، ما عليك سوى أن تتبع رائحتي. بسّ أدهم وبسّ رمادي، أنتما ستمكثان في الخارج للحراسة. أمّا أنت يا بسّ النار، فسترافقني أنا والنمر الشرس إلى حجر القمر".

أحسّ بسّ النار بموجة من الحماسة. يا له من شرف عظيم! استرق نظرة جانبية إلى النمر الشرس، فرأى المحارب جالساً وقد رفع ذقنه بجرأة، لكنّ بسّ النار اشتمّ رائحة خوف طفيفة منبعثة منه، وازدادت هذه الرائحة قوّة مع دخول نجمة الصباح في الظلام.

هزّ النمر الشرس رأسه الضخم وتبع نجمة الصباح. وبعد أن ألقى بسّ النار نظرة سريعة على رفيقيه، تبعهما.

داخل الكهف، لم يستطع رؤية شيء. بدا لهم الظلام الدامس غريباً، لكنّه فوجئ عندما أدرك أنّه لا يشعر بالخوف، ذلك أنّ لهفته لمعرفة ما ينتظره في الداخل كانت أقوى.

تخلّل الهواء البارد والرطب فراءه الكثيف ليصل إلى عظامه ويصلّب عضلاته. حتّى في أبرد الليالي لم يشعر بهذا البرد القارس. هذه الأرض لم تعرف يوماً دفء الشمس، هذا ما فكّر فيه وهو يدوس على الصخر الأملس كالجليد تحت قوائمه. أخذ الهواء البارد يملأ رئتيه مع كلّ نفس، إلى أن أحسّ بشيء من الدوار.

تبع نجمة الصباح والنمر الشرس في الظلام، معتمداً على الرائحة والإحساس لإيجاد طريقه. كانوا يسيرون عبر نفق منحدِر وملتوٍ. احتكّ شارب بسّ النار بجدار الكهف، وبواسطته أدرك أين يسير ومن أين ينعطف. وكان أنفه يخبره أنّ نجمة الصباح والنمر الشرس على مسافة ذيل واحد منه.

تابعوا المسير وتساءل بسّ النار عن المسافة التي قطعوها. فجأة ارتعش شاربه، وأحسّ أنّ الهواء أصبح أكثر عذوبة من ذي قبل. اشتمّ الهواء مجدّداً وشعر بالارتياح لرائحة العالم المألوف الذي تركه في الأعلى. فقد اشتمّ رائحة الخثّ والطرائد والخلنج. لا شكّ أنّه ثمّة فجوة ما في سقف النفق، فماء متسائلاً: "أين نحن؟".

أتى صوت نجمة الصباح الهادئ: "لقد دخلنا كهف حجر القمر. انتظرا هنا، سيبلغ القمر وسط السماء قريباً".

طوى بسّ النار قائمتيه الخلفيتين تحته على الأرض الباردة وانتظر. كان لا يزال يسمع أنفاس نجمة الصباح الثابتة وأنفاس النمر الشرس الأكثر سرعة والمشوبة برائحة الخوف.

فجأة، أضيء الكهف بوميض مبهر أكثر من ضوء شمس المغيب. كان بسّ النار قد فتح عينيه تماماً ليتبيّن ما حوله في ظلام النفق الدامس. فأغمضهما بسرعة أمام الضوء الأبيض البارد، ثمّ فتحهما قليلاً وحسب وحدّق أمامه.

رأى صخرة لامعة تتلألأ كأنّها مصنوعة من قطرات لا تحصى من الندى. حجر القمر! نظر حوله. في الضوء البارد المنعكس من سطح الحجر، رأى جدراناً معتمة لكهف عالي السقف. وفي الوسط، ارتفع حجر القمر عن الأرض ثلاثة أذيال.

كانت نجمة الصباح تحدّق إلى الأعلى، وبدا فراؤها أبيض تحت وميض حجر القمر. حتّى فراء النمر الشرس الداكن توهّج بلون فضّي. تبع بسّ النار نظر نجمة الصباح، فرأى في السقف فتحة تكشف مثلّثاً ضيّقاً من سماء الليل. من خلالها، ألقى القمر ضوءه على حجر القمر وجعله يتوهّج مثل نجم مضيء.

إلى جانبه، اشتمّ بسّ النار رائحة الخوف المنبعثة بقوّة من النمر الشرس إلى أن أصبحت طاغية، ففوجئ بذلك. هل يرى المحارب شيئاً آخر هنا، شيئاً خطراً؟ لمح حركة، ومرّ فراء من أمامه، ثمّ سمع وقع أكفّ النمر الشرس وهو يفرّ عائداً إلى المدخل.

"بسّ النار؟". أتى صوت نجمة الصباح خافتاً وهادئاً.

أجابها بعصبية: "أنا ما زلت هنا". ما الذي أخاف النمر الشرس؟

ماء بسّ النار مجدّداً عندما لم يسمع جواباً: "نجمة الصباح؟". كان قلبه ينبض بسرعة والدماء تضجّ في أذنيه.

تمتمت نجمة الصباح بصوت هادئ طمأنه قليلاً: "لا بأس أيّها المحارب الشابّ، لا تخف. أعتقد أنّ قوّة حجر القمر فاجأت النمر الشرس. ففي الأعلى، النمر الشرس محارب قويّ ولا يخشى شيئاً. أمّا هنا في الأسفل، حيث تتكلّم أرواح عشيرة النجوم، يحتاج الهرّ إلى نوع آخر من القوّة. بماذا تشعر يا بسّ النار؟".

اشتمّ بسّ النار الهواء بعمق وأجبر جسده على الاسترخاء، ثمّ أقرّ قائلاً: "لا أشعر سوى بالفضول".

"هذا جيّد".

نظر بسّ النار مجدّداً إلى حجر القمر. كانت عيناه قد بدأتا تعتادان على ضوئه الذي لم يعد يبهره. عوضاً عن ذلك، أراحه ذلك الضوء. هزّ ذيله وهو يتذكّر حلمه. تلك هي كرة الضوء البرّاقة التي رآها!

بذهول، رأى بسّ النار كيف اقتربت نجمة الصباح من الحجر واستلقت إلى جانبه. قرّبت رأسها من الحجر ولامسته بأنفها. فلمعت عيناها الزرقاوان بفعل الضوء المنعكس للحظة قبل أن تغمضهما. أخيراً، أسندت رأسها على كفّيها الأماميين وارتعش جفناها، بينما كانت أكفّها تتحرّك قليلاً من وقت إلى آخر. أهي نائمة؟ تذكّر بسّ النار كلام بسّ رمادي: على الزعماء الجدد أن يناموا بجانب الحجر، وفي نومهم يشاهدون أحلاماً خاصّة.

انتظر بصمت. لم يكن البرد قارساً هنا، لكنّه ظلّ يرتعش. لم يعرف كم مضى من الوقت، لكن فجأة توقّف وميض الصخرة وغرق الكهف مجدّداً في الظلام. نظر بسّ النار إلى فتحة سقف الكهف. كان القمر قد تجاوزها ولم يعد مرئيّاً، ولم يظهر منها سوى عدد من النجوم الصغيرة التي تومض في الظلام.

بالكاد استطاع أن يميّز فراء زعيمته البارد وهي ممدّدة بجانب حجر القمر. أراد مناداتها، لكنّه لم يجرؤ على كسر الصمت.

بعد مرور مزيد من الوقت، كلّمته قائلة: "بسّ النار؟ أما زلت هنا؟". بدا صوتها بعيداً ومضطرباً.

سمع بسّ النار خطوات نجمة الصباح وهي تقترب، فأجابها: "أجل يا نجمة الصباح".

همست قائلة: "أسرِع، علينا العودة إلى المخيّم".

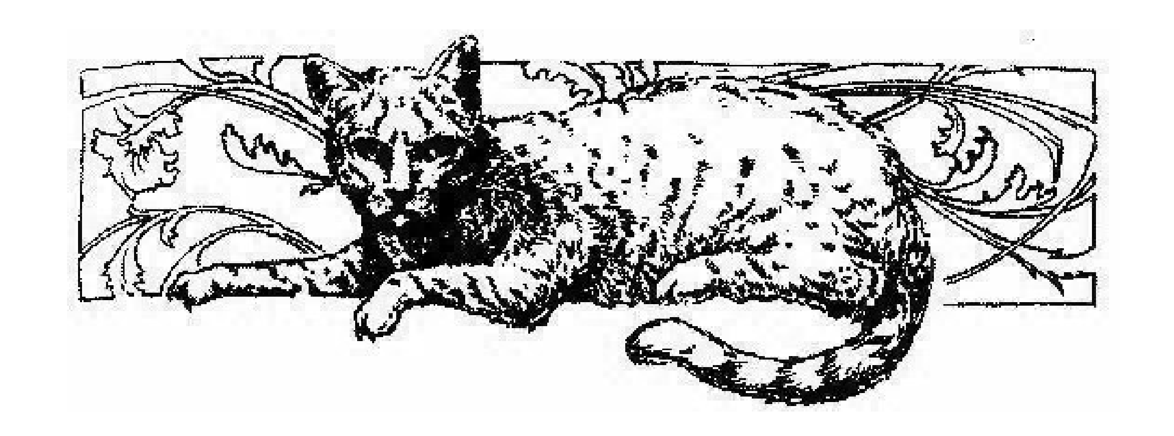
أحسّ بفرائها يحتكّ به وهي تمرّ من أمامه، فانطلق خلفها وقد فوجئ بالسرعة التي اندفعت بها عبر الظلام. تبع رائحتها من دون أن يرى شيئاً، وتقدّما صعوداً عبر النفق إلى أن أوصلته بأمان إلى العالم الخارجي.

كان النمر الشرس جالساً عند الفتحة بجانب بسّ رمادي وبسّ أدهم عندما خرجت نجمة الصباح وبسّ النار من الكهف. بدا تعبيره بارداً وفراؤه مشعّثاً بعض الشيء، لكنّه جلس بوقار وبلا حراك.

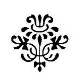
حيّته نجمة الصباح من دون أن تذكر شيئاً عن هربه من أعماق الكهف. فاسترخى النمر الشرس وسألها: "ماذا عرفتِ؟".

ماءت بإيجاز: "علينا العودة إلى المخيّم فوراً".

رأى بسّ النار نظرة يأس في عيني زعيمته، وعادت إلى ذاكرته تفاصيل حلمه المرعبة: القطط الهاربة، المحاربون ذوي الأجساد الضخمة والداكنة، وصرخة اليأس التي تصمّ الآذان. حاول تجاهل إحساس الخوف البارد الذي تملّكه، وتبع نجمة الصباح وهي تهبط مسرعة مع الآخرين المنحدر المظلم مبتعدة عن فم الأرض. هل يمكن أن يكون كابوسه على وشك التحقّق؟



الفصل 16



عادوا أدراجهم من الطريق التي أتوا منها. كان القمر قد اختفى خلف طبقة من السحب. فخيّم الظلام، لكنّ درب الرعد كان هادئاً على الأقلّ، والوحش الوحيد الذي سمعوا صوته كان لا يزال بعيداً. عبرت القطط الدرب معاً، ثمّ شقّت طريقها عبر السياج من الجهة الأخرى.

أحسّ بسّ النار بعضلاته تتصلّب من شدّة التعب وهم يسرعون. ظلّت نجمة الصباح تحثّ خطاها، موجّهة أنفها إلى الأمام ورافعة ذيلها عالياً. تقدّم النمر الشرس إلى جانبها، بينما تبعهما بسّ النار مع بسّ رمادي على بعد خطوات، لكنّ بسّ أدهم بدأ يتباطأ.

زمجر النمر الشرس من خلف كتفه: "أسرع يا بسّ أدهم!".

أجفل بسّ أدهم وقفز إلى الأمام إلى أن لحق ببسّ النار وبسّ رمادي.

سأله بسّ النار: "هل أنت بخير؟".

أجابه لاهثاً من دون أن ينظر إلى عينيه: "أجل، لكنّني متعب قليلاً".

هبطوا إلى خندق عميق ثمّ صعدوا إلى الطرف الآخر.

سأله بسّ النار محاولاً ألّا يبدو فضولياً: "ماذا قال النمر الشرس عندما خرج من الكهف؟".

أجابه بسّ رمادي: "أراد أن يتحقّق من أنّنا ما زلنا نحرس المدخل، لماذا؟".

تردّد بسّ النار وهو يسأل: "هل اشتممت رائحة غريبة فيه؟".

ماء بسّ رمادي متفاجئاً: "فقط رائحة ذلك الكهف القديم الرطب".

قال بسّ أدهم: "بدا متوتّراً بعض الشيء".

قال بسّ رمادي وهو ينظر إلى الهرّ الأسود: "ليس هو وحده!".

سأله بسّ أدهم: "ماذا تعني؟".

همس بسّ رمادي: "أعني أنّ فراء عنقك يقشعرّ كلّما رأيتَه هذه الأيّام. كدت تفرّ هارباً عندما خرج من الكهف".

احتجّ بسّ أدهم: "لقد فاجأني وحسب. عليك أن تقرّ أنّ فم الأرض كان مخيفاً بعض الشيء".

وافقه بسّ رمادي: "أفترض ذلك".

تسلّلت القطط من تحت سياج إلى حقل ذرة بدا فضّياً في ضوء القمر، وتبعت الخندق الذي يمتدّ حوله.

سأله بسّ رمادي: "إذاً، كيف جرت الأمور في الداخل؟ هل رأيت حجر القمر؟".

أحسّ بسّ النار بارتعاش في فرائه عندما تذكّر. "أجل، رأيته. كان رائعاً!".

ألقى عليه صديقه الرمادي نظرة إعجاب وقال: "إذاً هذا صحيح! الصخرة تلمع حقّاً تحت الأرض".

لم يجبه، بل أغمض عينيه للحظة مستمتعاً بصورة حجر القمر التي سلبت عقله. ثمّ تلاحقت صور من حلمه في رأسه دفعته إلى فتح عينيه. كانت نجمة الصباح على حقّ، عليهم العودة إلى المخيّم بأسرع ما يمكن.

أمامهم، قفز النمر الشرس ونجمة الصباح عن سياج وأصبحا خارج حقل الذرة. تبعهما المبتدئون الثلاثة، متسلّلين من تحت السياج إلى طريق ترابي. كان ذاك هو الطريق الذي سيقودهم عبر وكر ذوي الساقين والكلبين. نظر بسّ النار إلى الأعلى ورأى نجمة الصباح والنمر الشرس يسيران بنشاط جنباً إلى جنب أمام خلفية السماء المصبوغة باللون الأحمر. ستشرق الشمس قريباً.

قال لصديقيه: "انظرا!". قفز أمام المحاربَين هرّ لا يعرفه.

هسّ بسّ رمادي: "هذا هرّ شريد!". ثمّ أسرع الثلاثة إلى الأمام.

كان الهرّ الغريب أبيض وأسود اللون، أقصر قامة من المحاربين، لكنّه قويّ العضلات.

قالت نجمة الصباح للمبتدئين وهم يلحقون بها: "هذا بربر، يعيش هنا بجوار وكر ذوي الساقين".

ماء الهرّ قائلاً: "مرحباً! مضت بضع أشهر لم أرَ فيها أحداً من عشيرتكم. كيف حالك يا نجمة الصباح؟".

أجابت: "أنا بخير، شكراً. وأنت يا بربر؟ كيف حال الصيد منذ أن مررنا بك آخر مرّة؟".

أجابها وقد لمعت عيناه بمودّة: "ليس سيّئاً. فمن حسنات ذوي الساقين أنّ الجرذان تكثر بجوارهم. تبدون على عجلة من أمركم، هل كلّ شيء على ما يرام؟".

نظر النمر الشرس إلى بربر وهدرت زمجرة في أعماق صدره. فأدرك بسّ النار أنّ المحارب مرتاب من فضول الهرّ الشريد.

أجابته نجمة الصباح بأدب: "لا أحبّ الابتعاد عن عشيرتي طويلاً".

أجابها بربر بلطف: "أنت كعادتك يا نجمة الصباح، متعلّقة بعشيرتك كما تتعلّق أمّ بصغارها".

سأله النمر الشرس: "ماذا تريد يا بربر؟".

ألقى عليه بربر نظرة عتب وقال: "أردت تحذيركم أنّه ثمّة كلبان هنا، ومن الآمَن لكم العودة إلى حقل الذرة عوضاً عن المرور في هذا الفناء".

أجابه النمر الشرس بنفاد صبر: "نحن على علم بأمر الكلبين، فقد سبق ورأيناهما...".

قاطعته نجمة الصباح: "نحن ممتنّون لك على تحذيرنا. شكراً لك يا بربر. إلى اللقاء...".

هزّ بربر ذيله وماء وهو يقفز على الطريق: "رافقتكم السلامة".

أمرتهم نجمة الصباح قائلة: "هيّا بنا". شقّت طريقها بين الأعشاب الطويلة الفاصلة بين الطريق والسياج عائدة إلى حقل الذرة. فتبعها المبتدئون الثلاثة، لكنّ النمر الشرس تردّد.

ماء متسائلاً: "هل تثقين بكلام هرّ شريد؟".

توقّفت نجمة الصباح والتفتت تسأله: "وهل تفضّل مواجهة الكلبين؟".

أشار النمر الشرس: "لكنّهما كانا مقيّدَين عندما مررنا من هنا سابقاً".

"وربّما فُكّت قيودهما الآن. سنسلك هذا الطريق". خفضت رأسها للمرور من تحت السياج إلى الحقل. فتبعها بسّ النار ومن خلفه بسّ رمادي وبسّ أدهم وأخيراً النمر الشرس.

كانت الشمس قد أطلّت من الأفق. فلمعت الأسيجة بالندى واعدة بيوم دافئ آخر.

سارت القطط على طرف الخندق. نظر بسّ النار إلى قعره العميق وسفوحه المنحدرة والمليئة بالأشواك. اشتمّ رائحة طرائد وشعر بشيء مألوف في الرائحة المشوبة بالمرارة، لكنّه لم

يكن قد اشتمّها منذ مدّة طويلة.

سُمعت صرخة قوية فاستدار بسّ النار ليرى بسّ أدهم وهو يكافح وينشب مخالبه في الأرض. كان ثمّة ما يمسك بساقه ويشدّه إلى أسفل الخندق.

صرخ النمر الشرس: "جرذان! لقد دفع بنا بربر إلى فخّ!".

قبل أن تأتي القطط الخمسة بأيّ حركة، وجدت نفسها مطوّقة بجرذان بنّية ضخمة تتدافع من الخندق وهي تصدر صريراً عالياً. رأى بسّ النار أسنانها الأمامية الحادّة وهي تلمع في ضوء الفجر.

فجأة قفز أحدها على كتف بسّ النار، فأحسّ بألم مبرح عندما غرز الجرذ أسنانه في لحمه، ثمّ أطبق جرذ آخر فكّه القويّ على ساقه.

أخذ بسّ النار يلوّح بأطرافه بجنون ويحاول التحرّر. كان يعرف أنّ الجرذان ليست قوية مثله، لكنّها كثيرة. وأدرك من الصيحات والهسيس أنّ الآخرين يتعرّضون للاعتداء هم أيضاً.

أنشب بسّ النار مخالبه بشراسة في أحد الجرذان الذي تعلّق بساقه. فأفلته، غير أنّ جرذاً آخر انقضّ على ذيله. فقاتل الجرذان المهاجِمة بسرعة البرق، مستمدّاً الطاقة من خوفه وغضبه. التفت إلى الخلف وأطبق فكّه على الجرذ الذي كان يعضّ كتفيه. شعر بعظام عنق الجرذ تتحطّم بين أسنانه، قبل أن يتراخى جسده ويسقط على التراب.

شهق بسّ النار ألماً عندما صعد جرذ آخر على ظهره وعضّه. رأى من زاوية عينه وميضاً من الفراء الأبيض. فارتبك للحظة ثمّ أحسّ أنّه ثمّة من ينزع الجرذ عنه. استدار ورأى بربر يلقي الحيوان القارض في الخندق.

من دون تردّد، نظر بربر حوله وأسرع إلى نجمة الصباح. كانت تتلوّى على الأرض وقد غطّتها الجرذان. كالبرق، أنشب الهرّ الشريد أسنانه في ظهر أحدها ونزعه بسرعة خبير. ألقاه على الأرض ثمّ قبض على آخر، بينما كانت نجمة الصباح تحاول التملّص منها.

أسرع بسّ النار إلى بسّ رمادي الذي كان يتعرّض لاعتداء من جهتين من قبل جرذين صغيرين. انقضّ على الأقرب بينهما وعاجله بعضّة قاتلة. فاستدار بسّ رمادي وسمّر الجرذ الآخر بمخالبه، ثمّ أمسكه بأسنانه وألقاه في الخندق بأقصى قوّته، فلم يرجع.

صاح النمر الشرس: "إنّها تهرب!".

بالفعل، كانت الجرذان الأخرى تفرّ إلى الخندق الآمن. سمع بسّ النار وقع الأكفّ الصغيرة وهي تختفي بين أعشاب القرّاص. كانت العضّات التي أصيب بها في كتفه وساقه الخلفية تؤلمه بحدّة. لعق فراءه بحذر، واختلط طعم الدماء الحادّ برائحة الجرذان.

نظر بسّ النار حوله بحثاً عن بسّ أدهم. فرأى بسّ رمادي واقفاً عند حافة الخندق يموء مشجّعاً لبسّ أدهم الذي كان يحاول أن يصعد إلى الأعلى، وقد تلوّث فراؤه بالوحل وأصيب

بعضّات الجرذان. رأى بسّ النار جرذاً صغيراً ما زال متعلّقاً بذيله، فانقضّ عليه وقتله بسرعة بينما ساعد بسّ رمادي صديقه على تسلّق حافة الخندق.

بحث بسّ النار عن نجمة الصباح. فرأى أوّلاً بربر واقفاً عند أعلى الخندق يحدّق إلى الأعماق تحسّباً من خروج مزيد من الجرذان. وكانت نجمة الصباح ممدّدة على الأرض بجواره. ذُعر واندفع إلى جانب زعيمة عشيرته، ليجد فراء عنقها الرمادي الكثيف مبلّلاً بالدماء. ماء قائلاً: "نجمة الصباح؟".

غير أنّ نجمة الصباح لم تجبه.

علت زمجرة غاضبة جعلت بسّ النار ينظر إلى الأعلى.

كان النمر الشرس قد انقضّ على بربر وسمّره على الأرض. صاح قائلاً: "لقد أوقعتنا في فخّ!".

قال بربر وهو يكافح للوقوف مثيراً التراب من حوله: "لم أكن أعرف بوجود جرذان هنا!".

هسّ النمر الشرس: "ولماذا أرسلتنا إذاً عبر هذا الطريق؟".

"بسبب الكلبين!".

"كان الكلبان مقيّدين عندما مررنا من هنا سابقاً!".

أجاب بربر وهو يلهث ويئزّ تحت ثقل أكفّ النمر الشرس الضخمة: "ذوو الساقين يفكّون قيودهما ليلاً ليحرسا وكرهم".

صاح بسّ النار: "أيّها النمر الشرس! نجمة الصباح جريحة!".

ترك النمر الشرس بربر فوراً، فنهض هذا الأخير ونفض التراب عن فرائه. أمّا المحارب الضخم فاندفع إلى جانب نجمة الصباح وأخذ يشتمّ جراحها.

سأله بسّ النار: "هل يمكننا فعل شيء؟".

ماء النمر الشرس بمهابة وهو يتراجع إلى الخلف: "لقد أصبحَت لدى عشيرة النجوم الآن".

فتح بسّ النار عينيه مذهولاً. هل يعني النمر الشرس أنّ نجمة الصباح ماتت؟ ارتعش فراؤه وهو ينظر إلى زعيمته. أهذا ما حذّرتها منه الأرواح عند حجر القمر؟

انضمّ إليهم بسّ رمادي وبسّ أدهم ووقفا إلى جانب زعيمتهما وقد أسكتتهما الصدمة. أمّا بربر فبقي بعيداً وأمال رأسه ليرى ماذا يجري.

كانت عينا نجمة الصباح مفتوحتين لكنّهما جامدتين، بينما استلقى جسدها الرمادي بلا

حراك، حتّى إنّه لم يبدُ عليها أنّها تتنفّس.

همس بسّ أدهم متسائلاً: "هل ماتت؟".

أجاب النمر الشرس: "لا أدري، علينا أن ننتظر ونرى".

انتظرت القطط الخمسة بصمت بينما بدأت الشمس ترتفع في السماء. وجد بسّ النار نفسه يدعو بصمت لنجاة زعيمته وعودتها إليهم.

تحرّكت نجمة الصباح وانتفض طرف ذيلها وهي ترفع رأسها.

ماء بسّ النار بصوت مرتجف: "نجمة الصباح؟".

أجابت نجمة الصباح: "لا بأس، ما زلت هنا. خسرت روحاً، لكنّها لم تكن التاسعة".

أحسّ بسّ النار بفرحة عارمة ونظر إلى النمر الشرس متوقّعاً أن يرى الارتياح على وجهه، لكنّ وجه المحارب الشرس كان خالياً من أيّ تعبير.

ماء النمر الشرس بصوت آمر: "حسناً. بسّ أدهم، اذهب وأحضِر خيوط العنكبوت لجراح نجمة الصباح. بسّ رمادي، أحضِر بعض الآذريون أو ذيل الفرس". وبينما انطلق المبتدئان مسرعَين، أضاف: "أمّا أنت يا بربر فأعتقد أنّه يجدر بك الانصراف".

نظر بسّ النار إلى الهرّ الشريد الذي قاتل ببسالة لمساعدتهم. أراد أن يشكره، لكنّه لم يجرؤ أمام نظرات النمر الشرس القاسية. عوضاً عن الكلام، هزّ رأسه شاكراً، ويبدو أنّ بربر فهم لأنّه هزّ رأسه هو الآخر ورحل بصمت.

كانت نجمة الصباح لا تزال ممدّدة على الطريق الترابي. سألت بصوت مبحوح: "هل الجميع بخير؟".

هزّ النمر الشرس رأسه.

عاد بسّ أدهم وهو يركض وقد لفّ على كفّه الأمامية اليسرى كرة سميكة من خيوط العنكبوت. ماء قائلاً: "ها هي".

سأل بسّ النار النمر الشرس: "هل أضعها على جراحها؟ أخبرتني جمرة كيف أفعل ذلك".

وافق النمر الشرس قائلاً: "حسن جدّاً". ابتعد ليحدّق مجدّداً إلى الخندق ورفع أذنيه لالتقاط أصوات الفئران.

أخذ بسّ النار بعض خيوط العنكبوت عن كفّ بسّ أدهم وبدأ يضغطها جيّداً على جراح نجمة الصباح.

تقلّص جسدها ألماً وتمتمت بصوت مشدود: "لولا النمر الشرس لالتهمتني تلك الفئران

حية".

همس بسّ النار وهو يأخذ مزيداً من خيوط العنكبوت من بسّ أدهم: "لم يكن النمر الشرس هو الذي أنقذك، بل بربر".

فوجئت نجمة الصباح وسألت: "بربر؟ أهو هنا؟".

أجابها بسّ النار بصوت خافت: "أرسله النمر الشرس بعيداً، فهو يعتقد أنّ بربر أوقعنا في فخّ".

سألته نجمة الصباح: "وماذا تعتقد أنت؟".

لم يرفع بسّ النار نظره، بل ركّز على ضغط آخر قبضة من خيوط العنكبوت على الجرح. أجاب أخيراً: "بربر هرّ شريد، ماذا سيكسب من دفعنا إلى فخّ ليأتي وينقذنا منه؟".

خفضت نجمة الصباح رأسها وأغمضت عينيها.

عاد بسّ رمادي حاملاً بعضاً من نبات ذيل الفرس. فمضغ بسّ النار الأوراق وبصق عصارتها على جروح نجمة الصباح. كان يعرف أنّها ستوقف الالتهاب، لكنّه تمنّى لو أنّ الورقة الرقطاء كانت معه، نظراً إلى خبرتها في المداواة.

أعلن النمر الشرس وهو يقترب: "سنستريح هنا حتّى تتحسّن نجمة الصباح".

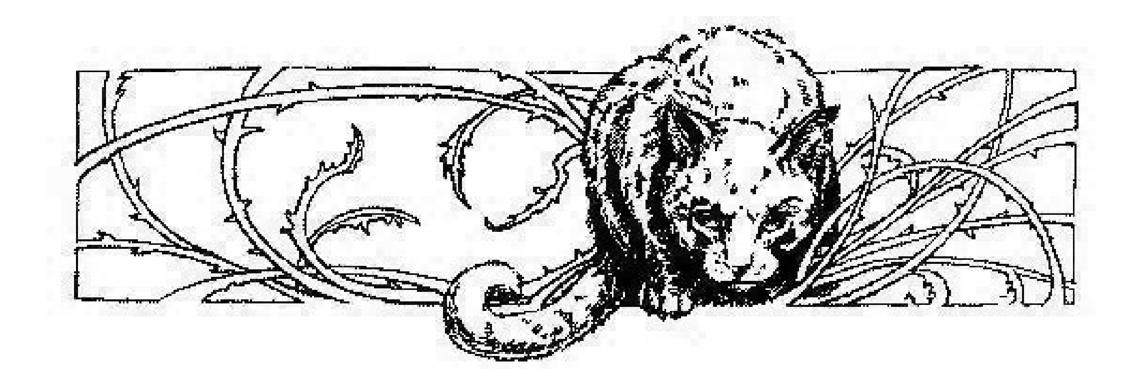
غير أنّ نجمة الصباح رفضت قائلة: "بل نعود إلى المخيّم". ضاقت عيناها ألماً وكافحت للوقوف مضيفة: "فلنواصل المسير".

أخذت زعيمة عشيرة الرعد تتقدّم وهي تعرج على أطراف الحقل، ومشى النمر الشرس إلى جانبها بوجه متجهّم بسبب أفكار غامضة. فتبادل المبتدئون نظرات قلقة ثمّ تبعوهما. سمع بسّ النار النمر الشرس وهو يهمس: "مضى زمن طويل منذ أن خسرتِ روحاً يا نجمة الصباح. كم خسرتِ حتّى الآن؟".

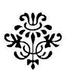
فوجئ بسّ النار رغماً عنه بفضول النمر الشرس الصريح.

أجابت نجمة الصباح بصوت خافت: "كانت تلك روحي الخامسة".

حاول بسّ النار أن يسمع المزيد، لكنّ النمر الشرس لم يضف شيئاً، فتابع السير بشرود.



الفصل 17



بلغت الشمس وسط السماء وبدأت تنخفض عندما وصلت القطط إلى أراضي عشيرة الرياح. كان الصمت الثقيل الذي خيّم عليهم خير دليل على أنّ ألم جراحهم بعد معركتهم مع الجرذان لم يتلاشَ بعد. أحسّ بسّ النار أنّ الخدوش والعضّات تملأ جسمه. لاحظ أنّ بسّ رمادي يعرج ويقفز أحياناً على ثلاثة قوائم لحماية قائمته الخلفية الجريحة، لكنّ نجمة الصباح هي التي أثارت قلقه. فقد أصبحت مشيتها أبطأ، لكنّها رفضت التوقّف والاستراحة. عرف بسّ النار من نظرتها الكئيبة المليئة بالألم كم كانت ترغب في الوصول إلى مخيّم عشيرة الرعد.

ماءت وهي تصرّ على أسنانها بينما كان النمر الشرس يشتمّ الهواء: "لا تخشَ محاربي عشيرة الظلال، فأنت لن تجدهم هنا اليوم".

تساءل بسّ النار من أين عرفت.

تابعوا طريقهم بحذر وهبطوا السفح الصخري المؤدّي إلى الأشجار الأربع، ثمّ سلكوا الطريق المألوفة التي تقود إلى المخيّم. كان الوقت قد بلغ ساعة متأخّرة من بعد الظهيرة، بحيث بدأ بسّ النار يفكّر بشوق في فراشه ويتوق إلى وجبة دسمة.

تمتم بسّ رمادي في أذنه وهم يعبرون أراضي عشيرة الرعد: "ما زلت أشتمّ رائحة عشيرة الظلال".

قال بسّ النار: "ربّما كان النسيم يحملها من أراضي عشيرة الرياح". اشتمّ الرائحة هو الآخر، وارتجف شاربه.

توقّف بسّ أدهم فجأة وماء بصوت خافت: "هل تسمعون؟".

رفع بسّ النار أذنيه. لم يسمع في البداية سوى أصوات الغابة المألوفة؛ حفيف أوراق الشجر، وهديل حمامة. فجأة، سرت برودة في جسده. فقد تناهى إليه من بعيد مواء قطط شرسة وصيحات قطط صغيرة مذعورة.

صاحت نجمة الصباح: "أسرعوا! هذا ما حذّرتني منه عشيرة النجوم. مخيّمنا يتعرّض للهجوم!". حاولت أن تقفز وتجري، لكنّها تعثّرت. فأجبرت نفسها على الوقوف وتابعت وهي تعرج.

تقدّم النمر الشرس وبسّ النار جنباً إلى جنب. تبعهما بسّ رمادي وبسّ أدهم وقد نفشا فراء ذيليهما. نسي بسّ النار ألمه وهو يجري باتّجاه المخيّم، فكلّ همّه أصبح الآن حماية العشيرة.

أخذت أصوات المعركة تعلو وهم يقتربون من مدخل المخيّم، بينما ملأت رائحة عشيرة الظلال خياشيمهم. كان خلف النمر الشرس تماماً عندما عبرت القطط النفق إلى الفسحة.

وجدوا أنفسهم أمام قتال عنيف وشرس يدور بين قطط عشيرة الرعد ومحاربي عشيرة الظلال. لم يرَ بسّ النار الصغار، وأمل أن يكونوا في مخبأ أمين في الحضانة. كما خمّن أن يكون كبار السنّ الضعاف قد اختبؤوا في الجذع المجوّف للشجرة المقطوعة.

كانت كلّ زاوية من زوايا المخيّم تضجّ بالقتال. رأى بسّ النار بياض الثلج وزهرة الذهب تُنشبان مخالبهما وأنيابهما في هرّ رمادي ضخم. وحتّى أنثى الحضانة الشابّة المخطّطة عين الزمرّد كانت تحارب، مع أنّها على وشك الإنجاب. كان النمر الأسود يتعارك بقسوة مع محارب أسود آخر، في حين اشتبك ثلاثة من المسنّين، شمشوم وكشكول وعوراء، ببسالة مع هرّ بنّي يقاتل بضعف سرعتهم وشراستهم.

انضمّت القطط العائدة إلى المعركة. فانقضّ بسّ النار على محاربة مخطّطة أكبر حجماً منه بكثير وغرز أسنانه عميقاً في ساقها. صاحت ألماً واستدارت إليه، ثمّ استلّت مخالبها الحادّة وأطبقت أسنانها على عنقه. راح يتلوّى ليتجنّب العضّة، ولمّا عجزت عن مواكبة سرعته، تمكّن من الإمساك بها من الخلف وإلقائها على التراب. ثبّتها بقائمتيه الخلفيتين القويتين، فراحت تصارع وتكافح إلى أن تملّصت منه وهربت عبر الشجيرات الكثيفة المحيطة بالمخيّم.

التفت بسّ النار ورأى أنّ نجمة الصباح وصلت. على الرغم من إصاباتها، كانت تتعارك مع هرّ مخطّط آخر. لم يكن بسّ النار قد رآها تقاتل من قبل. لكن حتّى وهي جريحة، بدت خصماً قوياً. كافحت ضحيّتها للفرار، لكنّها أمسكت بخصمها بإحكام وهاجمته بمخالبها بشراسة بحيث عرف بسّ النار أنّ ندوب المعركة ستلازمه لأشهر عديدة.

فجأة رأى هرّاً أبيض من عشيرة الظلال يجرّ بأكفّه السوداء هرّة مسنّة من عشيرة الرعد بعيداً عن الحضانة. فتذكّر بسّ النار تلك الأكفّ السوداء غير المعتادة التي رآها في الاجتماع. إنّه الكفّ الأسود! عاجل نائب عشيرة الظلال الهرةَ العجوز بضربة قاضية، وكانت تحرس الصغار، ثمّ أدخل كفّه الضخم بين نباتات العلّيق التي تحيط بالحضانة. فأخذ الصغار يصيحون ويموؤون بعد أن أصبحوا بلا حراسة في غياب أمّهاتهم اللواتي يشاركن في القتال.

استعدّ بسّ النار ليسرع إلى الحضانة، لكنّ مخلباً حادّاً غُرز في جنبه، فاستدار ليرى هرّة

بنّية هزيلة تنقضّ عليه. عندما ألقاها أرضاً، حاول مناداة قطط عشيرته الآخرين لإخبارهم أنّ الصغار في خطر. قاوم هجوم القطّة البنّية بكلّ قواه محاولاً الإفلات منها، والتفت إلى الخلف لإلقاء نظرة على وكر العلّيق.

كان الكفّ الأسود قد أمسك بصغيرين ويحاول الوصول إلى ثالث.

لم يستطع بسّ النار رؤية المزيد لأنّ الهرّة البنّية خدشت بطنه بمخالب قائمتيها الخلفيتين. كافح بسّ النار للوقوف على أقدامه وخفض جسده كأنّه مهزوم. فقد نجحت هذه الخطّة من قبل، وهذا ما حدث الآن أيضاً. فعندما أمسكت به الهرّة ظنّاً منها أنّها انتصرت، وبدأت تغرز أسنانها في عنقه، قفز إلى الأعلى بقوّة وألقى بها بعيداً. استدار بعد ذلك وانقضّ على المحاربة في لمح البصر. هذه المرّة، لم يُظهر أيّ رحمة، بل غرز أسنانه عميقاً في كتفها. بعد هذه العضّة، فرّت الهرّة وهي تعوي بين الشجيرات.

قفز بسّ النار واندفع إلى الحضانة، ثمّ أقحم رأسه في المدخل. غير أنّه لم يجد الكفّ الأسود هناك. في الداخل، رأى جمرة منحنية فوق الصغار المذعورين. كان فراؤها الرمادي ملوّثاً بالدماء وإحدى عينيها متورّمة. نظرت إلى بسّ النار وهي تهسّ بشراسة، وعندما أدركت من يكون، ماءت قائلة: "إنّهم بخير، سأحميهم".

نظر إليها بسّ النار وهي تهدّئ من روع الصغار الخائفين، فتذكّر فوراً تحذير النجم نمرود من هرّة عشيرة الظلال الشريدة. لكنّه لا يملك الوقت للتفكير في ذلك الآن، بل هو مضطر للوثوق بجمرة. هزّ رأسه بسرعة وانطلق عائداً إلى ساحة المعركة.

لم يكن قد تبقّى سوى بضع قطط من عشيرة الظلال في المخيّم. كان بسّ أدهم وبسّ رمادي يقاتلان جنباً إلى جنب هرّاً أسود، إلى أن هرب وهو يموء عالياً واختفى بين الأجمات. أمّا الرعب الأبيض والنمر الأسود فطاردا آخر هرّين دخيلَين وأخرجاهما من المخيّم مع بضع خدوش وعضّات إضافية.

جلس بسّ النار منهكاً وحدّق إلى أرجاء المخيّم. كان الخراب يعمّ المكان. تناثرت الدماء في أرجاء الفسحة واختلطت كتل الفراء بالتراب. وكان السياج النباتي المحيط بالمخيّم مفتوحاً في المكان الذي اندفع منه الغزاة.

تجمّعت قطط عشيرة الرعد واحداً تلو الآخر تحت الصخرة العالية، وأتى بسّ رمادي للجلوس إلى جانبه، وجسده يعلو ويهبط مع سرعة أنفاسه، في حين سال الدم من أذنه المشقوقة. انضمّ إليهما بسّ أدهم وبدأ يلعق جرحاً في ذيله. اندفعت الإناث إلى الحضانة للتحقّق من سلامة الصغار. فلاحظ بسّ النار أنّه ينتظر عودتهنّ بتوتّر، لا سيّما وقد حجبت القطط الأخرى الرؤية. استرخى عندما تناهى إليه مواء وخرخرات فرح من وكر العلّيق.

عادت بياض الثلج ومرّت بين حشد القطط تتبعها جمرة. ثمّ تقدّمت الأنثى البيضاء وتكلّمت معهم. "صغارنا جميعاً بخير، وهذا بفضل جمرة. فقد قتل أحد محاربي عشيرة الظلال هرّتنا الشجاعة الذيل الوردي، وحاول سرقة الصغار من وكرهم، لكنّ جمرة تصدّت له وأبعدته".

أضاف بسّ النار: "ولم يكن أيّ محارب". فقد أصرّاً على أن تعرف العشيرة كم يدينون لجمرة. "لقد رأيته، كان الكفّ الأسود".

ماءت عين الزمرّد: "نائب عشيرة الظلال؟". كانت الهرّة قد قاتلت بضراوة لحماية صغارها الذين لم يولدوا بعد.

حدثت حركة عند أطراف المجموعة مع اقتراب نجمة الصباح من المبتدئين، وعرف بسّ النار من تعبير وجهها أنّه ثمّة خطب ما.

تمتمت: "الورقة الرقطاء تعالج الآن قلب الأسد، فقد أصيب في المعركة وتبدو إصابته سيّئة". التفتت إلى الظلّ عند الجهة الأخرى من الصخرة العالية. هناك تمدّد المحارب بفرائه الذهبي المغبرّ بلا حراك.

خرجت من حنجرة بسّ رمادي صرخة عالية وهو يندفع نحو قلب الأسد. فابتعدت الورقة الرقطاء التي كانت منحنية فوق نائب عشيرة الرعد لتسمح للمبتدئ الشابّ بتجاذب الألسنة مرّة أخيرة مع مدرّبه. وبينما تردّدت أصداء صرخة بسّ رمادي في أرجاء الفسحة، اقشعرّ جسد بسّ النار وسرت فيه رعشة باردة. إنّها الصرخة التي سمعها في الحلم. للحظة دار رأسه، لكنّه سرعان ما انتفض، إذ عليه أن يبقى متماسكاً من أجل بسّ رمادي.

نظر بسّ النار إلى نجمة الصباح التي هزّت رأسها إلى الأسفل، فذهب لينضمّ إلى صديقه بجانب الصخرة العالية. توقّف للحظة قرب الورقة الرقطاء.

بدت منهكة وحزينة. ماءت بصوت خافت: "لم يعد بإمكاني مساعدة قلب الأسد، إنّه على وشك الانضمام إلى عشيرة النجوم". استندت إلى بسّ النار فشعر بالارتياح لملمس فرائها الدافئ.

جلست القطط الأخرى بصمت، بينما بدأت الشمس تغيب ببطء خلف الأشجار. أخيراً نهض بسّ رمادي وصاح قائلاً: "لقد رحل!". ثمّ ربض مجدّداً بجانب جثّة قلب الأسد، وأسند رأسه على كفّيه الأماميّين. فتقدّمت بقيّة قطط العشيرة بصمت لتقدّم الوداع الأخير لنائبها المحبوب.

انضمّ إليهم بسّ النار. لعق عنق قلب الأسد وتمتم قائلاً: "شكراً لك على حكمتك، فقد علّمتني الكثير". ثمّ جلس إلى جانب بسّ رمادي وبدأ يلعق أذني صديقه بلطف.

انتظرت نجمة الصباح إلى أن رحلت بقيّة القطط قبل أن تقترب بهدوء، لكن لم يبد على بسّ رمادي أنّه لاحظ حتّى وجود زعيمته. نظر بسّ النار إلى نجمة الصباح وهي تودّع صديقها القديم.

همست قائلة: "آه، ماذا سأفعل بدونك يا قلب الأسد؟". ثمّ ذهبت وهي تعرج إلى وكرها، وربضت في الخارج تحدّق إلى البعيد بشرود، حتّى إنّها لم تحاول أن تنظّف فراءها الدامي. كانت المرّة الأولى التي يراها فيها بسّ النار مهزومة بهذا الشكل، فأحسّ برعشة باردة تسري في جسده.

جلس مع بسّ رمادي وقلب الأسد إلى أن ارتفع القمر عالياً في السماء. انضمّ إليهما بسّ

أدهم وجلسا معاً يؤنسان صديقهما الحزين. أتى النمر الشرس وتجاذب الألسنة بسرعة مع قلب الأسد. انتظر بسّ النار لسماع الكلام الذي سيقوله النمر الشرس لصديقه المحارب، لكنّه بقي صامتاً وهو يلعق الفراء الملوّث بالدماء. وما حيّره هو أنّ نظر الهرّ المخطّط الداكن بدا مركّزاً على بسّ أدهم وليس على القتيل.

أخذت الورقة الرقطاء تتنقّل بخفّة في أرجاء المخيّم، تداوي الجرحى والمذعورين. راقبها بسّ النار وهي تقترب من نجمة الصباح مرّتين، لكن في كلّ مرّة كانت زعيمة القبيلة ترسلها للاهتمام بالآخرين. فقط عندما انتهت الورقة الرقطاء من الاهتمام بجراح القطط الأخرى سمحت لها نجمة الصباح بعلاج العضّات والخدوش التي أصيبت بها.

عندما انتهت، استدارت الورقة الرقطاء وعادت إلى وكرها. عندئذٍ وقفت نجمة الصباح وتسلّقت ببطء الصخرة العالية. ويبدو أنّ قطط العشيرة كانت بانتظارها. فما أن استقرّت في مكانها المعتاد حتّى بدؤوا يتجمّعون في الفسحة في الأسفل، بصمت غير مألوف ووجوه حزينة.

نهض بسّ النار وبسّ أدهم وانضمّا إليهم تاركَين بسّ رمادي مع جثّة قلب الأسد. كان المبتدئ الرمادي ما زال ممدّداً وأنفه مدسوس في الفراء الذهبي البارد لقلب الأسد. فعرف بسّ النار أنّ نجمة الصباح ستعذر بسّ رمادي على غيابه عن هذا الاجتماع.

ماءت نجمة الصباح عندما وقف بسّ النار بجانب بسّ أدهم: "أوشك القمر على بلوغ وسط السماء ومن واجبي مجدّداً، وخلال مدّة قصيرة جدّاً، أن أعيّن نائباً آخر لعشيرة الرعد". كان صوتها متعباً ومتهدّجاً.

انتقل نظر بسّ النار من محارب إلى آخر. كان الجميع ينظرون بترقّب إلى النمر الشرس. وحتّى الرعب الأبيض التفت لينظر إلى الهرّ الأسمر. ومن تعبير وجهه الجريء والطريقة التي هزّ بها شاربه ترقّباً، بدا أنّ النمر الشرس يوافقهم.

أخذت نجمة الصباح نفساً عميقاً وتابعت: "أقول هذا الكلام أمام جثّة قلب الأسد، لكي تسمع روحه وتوافق على خياري". تردّدت ثمّ تابعت: "أنا لم أنس كيف قام هرّ بالانتقام لموت ذيل الأرجوان وأعاد جثّته إلينا. وعشيرة الرعد تحتاج إلى هذا الولاء الخالص أكثر من أيّ وقت مضى". صمتت مجدّداً، ثمّ ماءت بالاسم بصوت عالٍ وواضح: "النمر الشرس هو من سيكون النائب الجديد لعشيرة الرعد".

ارتفع مواء استحسان، وصدرت أعلى الأصوات عن النمر الأسود والنمر الذيّال. جلس الرعب الأبيض بهدوء مغمضاً عينيه ولفّ ذيله حوله. كان يهزّ رأسه ببطء واستحسان.

رفع النمر الشرس رأسه بفخر، وعيناه شبه مغمضتين وهو يصغي إلى هتاف العشيرة. بعد ذلك، مشى بين القطط وتقبّل التهاني بهزّة رأس بسيطة، ثمّ قفز إلى الصخرة العالية ليقف إلى جانب نجمة الصباح. قال بصوت عالٍ: "عشيرة الرعد، يشرّفني قبول منصب نائب العشيرة. أنا لم أتوقّع أبداً أن أبلغ هذه المرتبة العالية، لكنّني سأخدمكم بأفضل ما يمكن مسترشداً بروح قلب الأسد". ثمّ خفض رأسه بجدّية وتأمّل الحشد بعينيه الصفراوين الكبيرتين، قبل أن يقفز عن

الصخرة.

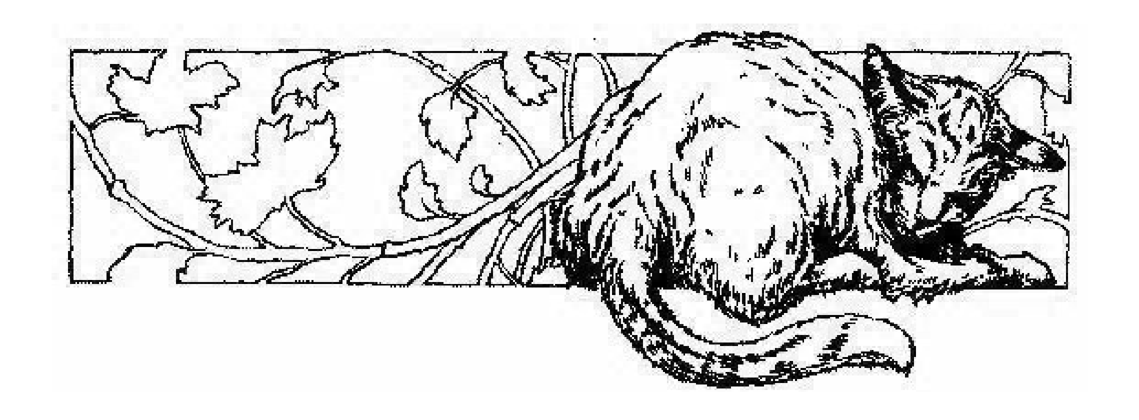
سمع بسّ النار صديقه بسّ أدهم يتمتم في سرّه: "آه، كلّا!". فالتفت لينظر بفضول إلى صديقه.

خفض بسّ أدهم رأسه وتمتم: "ما كان يجدر بها اختياره!".

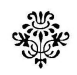
تساءل بسّ النار هامساً: "هل تتحدّث عن النمر الشرس؟".

قال بسّ أدهم: "لقد أراد أن يصبح نائباً منذ أن تولّى أمر ذيل الأرجوان...". صمت فجأة.

كرّر بسّ النار: "تولّى أمر ذيل الأرجوان؟". فجأة، عصفت التساؤلات برأسه. ما الذي يعرفه بسّ أدهم؟ هل كانت قصّة المعركة التي خاضوها مع عشيرة النهر صحيحة مثلما رواها في الاجتماع ؟ هل النمر الشرس هو المسؤول عن موت ذيل الأرجوان؟



الفصل 18



"هل كنت تخبر بسّ النار كيف حميتُ ذيل الأرجوان؟".

أحسّ بسّ النار برعشة باردة تسري في عنقه.

أُجفل بسّ أدهم واتّسعت عيناه خوفاً. وقف النمر الشرس بطوله الفارع وكشّر عن أنيابه مهدّداً.

قفز بسّ النار وواجه النائب الجديد. فكّر بسرعة ثمّ ماء قائلاً: "كان يقول إنّه يتمنى لو كنتَ هنا لتدافع عن قلب الأسد أيضاً، هذا كلّ شيء".

نقل النمر الشرس نظره بينهما ثمّ ابتعد بصمت. أمّا بسّ أدهم فامتلأت عيناه الخضراوان بالذعر وبدأ يرتجف.

ماء بسّ النار خائفاً: "بسّ أدهم!".

لكنّ بسّ أدهم لم ينظر إليه حتّى. بل عاد حانياً رأسه ليربض إلى جانب بسّ رمادي، ويضغط جسده الهزيل الأسود إلى فراء بسّ رمادي الكثيف كأنّه شعر فجأة بالبرد.

نظر بسّ النار حائراً إلى صديقيه الجالسَين إلى جانب جثّة قلب الأسد. وحينما لم يجد شيئاً آخر يفعله، اقترب وجلس إلى جانبهما استعداداً للسهر معهما.

عندما بدأ القمر ينخفض في السماء، أتت قطط أخرى لتسهر معهم. كانت نجمة الصباح آخر من وصل، بعد أن هدأ المخيّم وساده السكون. لم تقل شيئاً، بل جلست على مسافة منهم تحدّق إلى نائبها الميت وقد طغى الحزن على وجهها بحيث اضطر بسّ النار إلى أن يشيح بنظره

بعيداً.

عند الفجر، أتت مجموعة من المسنّين لأخذ جثّة قلب الأسد إلى مكان الدفن، وتبعهم بسّ رمادي للمساعدة على نبش الحفرة التي سيرقد فيها المحارب العظيم.

تثاءب بسّ النار وتمطّى. أحسّ بالبرد ينخر عظامه. فقد أوشك فصل الرياح أن يحلّ، وكانت الغابة مغلّفة بالضباب، لكن من فوق الأوراق لمح بسّ النار سماء الصباح الوردية. راقب بسّ رمادي وهو يختفي مع المسنّين خلف الشجيرات المبلّلة بالندى.

قفز بسّ أدهم وأسرع عائداً إلى وكر المبتدئين، فتبعه بسّ النار ببطء. عندما وصل، وجد الهرّ الأسود مكوّراً وقد دسّ أنفه تحت ذيله كأنّه نائم.

كان بسّ النار منهكاً جدّاً ليتكلّم. فتكوّر في فراشه واستغرق في نوم طويل.

"استيقظ!".

سمع بسّ النار صوت بسّ أغبر وهو ينادي من مدخل الوكر. فتح عينيه ليجد أنّ بسّ أدهم استيقظ أساساً وجلس مستقيماً ورافعاً أذنيه. كان بسّ رمادي واقفاً إلى جانبه. فوجئ برؤية الهرّ الرمادي المألوف، لأنّه لم يسمع صديقه يعود بعد دفن قلب الأسد.

هسّ بسّ أغبر قائلاً لهم: "لقد دعتنا نجمة الصباح إلى اجتماع آخر"، ثمّ ابتعد بين نباتات الخنشار.

خرج المبتدئون الثلاثة من الوكر الدافئ. كانت الشمس قد تجاوزت وسط السماء وبدا الهواء أبرد من ذي قبل. ارتعش بسّ النار وزمجرت معدته جوعاً. لم يعد يذكر آخر مرّة أكل فيها، فتساءل ما إذا كان سيحصل على فرصة للصيد هذا اليوم.

أسرع المبتدئون الثلاثة للانضمام إلى الحشد المجتمع تحت الصخرة العالية.

كان النمر الشرس يتحدّث من مكانه إلى جانب نجمة الصباح: "خلال المعركة، خسرت زعيمتنا روحاً أخرى. والآن بعدما بقيت لها أربع أرواح من أرواحها التسع، سأعيّن لها حارساً ليلازمها باستمرار. ولا يُسمح لأيّ هرّ بالاقتراب منها في غياب الحرّاس". توقّف نظر عينيه العنبريتين على بسّ أدهم قبل أن يعود إلى بقيّة الحشد. تابع يقول: "النمر الأسود والنمر الذيّال، ستكونان حارسَي نجمة الصباح"، وركّز نظره على المحاربين.

هزّ النمر الأسود والنمر الذيّال رأسيهما باعتزاز، وتطاولا في جلستهما.

تكلّمت نجمة الصباح الآن. بدا صوتها لطيفاً وهادئاً بعد مواء نائبها الآمِر. "شكراً لك أيّها النمر الشرس على ولائك. لكن على العشيرة أن تفهم أنّني ما زلت هنا من أجلها، ولا ينبغي لأيّ هرّ أن يتردّد في المجيء إليّ. يسرّني التكلّم مع أيّ كان في وجود الحارسَين أو غيابهما". انحرف نظرها باتّجاه النمر الشرس للحظة وجيزة ثمّ تابعت: "فكما ينصّ قانون المحاربين، أمن العشيرة أهمّ

من أمن أحد أعضائها". صمتت ثمّ توقّف نظر عينيها الزرقاوين للحظة على بسّ النار. "والآن، أودّ أن أدعو جمرة للانضمام إلى عشيرة الرعد".

ارتفع مواء دهشة من الحاضرين. نظرت نجمة الصباح إلى بياض الثلج التي هزّت رأسها موافقة. وراقبت الإناث ما يجري بصمت.

تابعت نجمة الصباح: "ما فعلَته في الليلة الماضية يُثبت أنّها شجاعة ومخلصة. إن أرادت، سنرحّب بها كفرد في هذه العشيرة يتمتّع بكامل الحقوق".

نظرت جمرة من مكانها عند أطراف الحشد إلى زعيمة العشيرة وتمتمت: "يشرّفني ذلك يا نجمة الصباح، وأنا أقبل عرضك".

ماءت نجمة الصباح بصوت حازم كما لو أنّ المسألة منتهية: "هذا جيّد".

خرخر بسّ النار مسروراً ووكز بسّ رمادي. فوجئ عندما أدرك كم يعني له إظهار نجمة الصباح مدى ثقتها في جمرة علناً.

عادت نجمة الصباح تتكلّم مجدّداً: "في الليلة الفائتة نجحنا في الدفاع عن أنفسنا ضدّ عشيرة الظلال، لكنّها ما زالت تشكّل تهديداً كبيراً لنا. ستستمرّ أعمال الترميم التي بدأناها هذا الصباح، وستخضع حدودنا للمراقبة باستمرار. لا يجب علينا أن نفترض مطلقاً أنّ الحرب انتهت".

وقف النمر الشرس ورفع ذيله عالياً، ثمّ حدّق إلى القطط المجتمعة. زمجر قائلاً: "شنّت عشيرة الظلال هجومها بينما كنّا بعيدين عن المخيّم. وقد اختارت الوقت المناسب. كيف عرفت أنّ المخيّم يفتقر إلى الدفاع في تلك اللحظة؟ هل لديهم أعين في مخيّمنا؟".

جمد بسّ النار وتملّكه الذعر عندما ركّز النمر الشرس نظرته الباردة على بسّ أدهم. تبعت بعض القطط نظر النائب الجديد وحدّقت بحيرة إلى المبتدئ الأسود. أمّا بسّ أدهم فنظر إلى الأرض وراح ينقّل أكفّه بعصبية.

تابع النمر الشرس: "ما زال لدينا بعض الوقت قبل الغروب، وعلينا التركيز على إعادة بناء المخيّم. في هذه الأثناء، إن شككتم بشيء أو بأيّ أحد أخبروني، وكونوا واثقين أنّ كلّ ما تقولونه سيبقى سرّاً". هزّ رأسه لصرف العشيرة ثمّ التفت ليتحدّث بصوت منخفض مع نجمة الصباح.

تفرّقت القطط وبدأت تنشط في مختلف أنحاء المخيّم، تقيّم الأضرار وتؤلّف فرق عمل.

قال بسّ النار: "بسّ أدهم!". كان لا يزال مصدوماً من تلميح النمر الشرس إلى أنّ تلميذه أقدم على خيانة العشيرة. غير أنّ بسّ أدهم كان قد ابتعد أساساً. رآه بسّ النار وهو يعرض نفسه لمساعدة الذيل الأبتر والرعب الأبيض، قبل أن ينطلق لجمع الأغصان من أجل ترميم فجوات السياج المحيط بالمخيّم. من الواضح أنّ بسّ أدهم لا يريد الكلام.

قال بسّ رمادي: "فلنذهب لمساعدته". كان صوته سطحياً ومنهكاً وعيناه حازمتين.

أجاب بسّ النار: "اذهب أنت، سأمكث هنا للحظة. أريد الاطمئنان على جمرة بعد معركتها مع الكفّ الأسود".

بحث عن جمرة في فراشها إلى جانب الشجرة المقطوعة. كانت ممدّدة في الظلّ ونظرها شارد.

خرخرت عندما رأته: "بسّ النار، يسرّني مجيئك".

"أردت الاطمئنان عليك".

ماءت جمرة مجيبة بصوت مشوب بنبرتها القديمة: "العادات القديمة أكثر دواماً من الروائح القديمة، أليس كذلك؟".

أقرّ قائلاً: "أظنّ ذلك. كيف حالك؟".

"إصابة ساقي القديمة تؤلمني مجدّداً، لكنّني بخير".

سألها من دون أن يتمكّن من إخفاء إعجابه: "كيف تمكّنت من قتال الكفّ الأسود؟".

"صحيح أنّ الكفّ الأسود قوي، لكنّه ليس محارباً ذكياً. قتالك كان أصعب".

حاول بسّ النار أن يجد نظرة مرح في عيني الهرّة العجوز، لكن عبثاً.

تابعت قائلة: "أنا أعرفه منذ أن كان هرّاً صغيراً، وهو لم يتغيّر؛ جسد قوي لكن من دون دماغ".

جلس بسّ النار إلى جانبها. "لم أفاجأ عندما طلبت منك نجمة الصباح الانضمام إلى العشيرة. فقد أثبتِّ بالتأكيد ولاءك ليلة أمس".

هزّت جمرة ذيلها مجيبة: "ربّما لو كنت هرّة وفية بحقّ لقاتلتُ إلى جانب العشيرة التي نشأتُ فيها".

"لكن في هذه الحالة، سأقاتل دفاعاً عن ذوي الساقين!".

نظرت إليه بإعجاب وقالت: "أنت محقّ أيّها الشابّ، لكن لطالما كنت مفكّراً".

اعتصر قلب بسّ النار حزناً وهو يذكر أنّ قلب الأسد كان يردّد هذا الكلام هو أيضاً. سألها: "هل تفتقدين إلى عشيرة الظلال؟".

رفّت جمرة ببطء وقالت: "أنا أفتقد إلى عشيرة الظلال القديمة، كما اعتدنا أن نكون".

"قبل أن يصبح النجم نمرود زعيماً؟".

أقرّت بهدوء: "أجل، فقد غيّر العشيرة". صدر عنها أزيز وهي تضحك مضيفة: "لطالما كان يعرف كيف يلقي خطاباً جيّداً. فهو قادر على جعلك تصدّق أنّ الفأر أرنب، إن أراد ذلك. ربّما لهذا السبب كنت عمياء عن أخطائه". شردت القطّة العجوز تائهة في أفكارها.

فجأة تذكّر بسّ النار ما عرفه في الاجتماع الذي بدا كما لو أنّه عُقد قبل أشهر: "أنا متأكّد أنّك لن تحزري من هو الهرّ المداوي الجديد لعشيرة الظلال".

يبدو أنّ كلامه أعاد جمرة إلى الواقع. فماءت متسائلة: "لا تقل لي شرشور".

"بلى!".

هزّت جمرة رأسها قائلة: "لكنّه عاجز حتّى عن علاج زكامه!".

"هذا ما قاله بسّ رمادي!". وأخذا يخرخران معاً بمرح. أخيراً وقف بسّ النار قائلاً: "سأدعك ترتاحين الآن. ناديني إن احتجت شيئاً آخر اليوم".

رفعت جمرة رأسها قائلة: "قبل أن تذهب يا بسّ النار، سمعت أنّك تعاركت مع جرذان. هل امتصّوا دماء منك؟".

"أنا بخير، فقد عالجت الورقة الرقطاء جروحي بالآذريون".

"في بعض الأحيان، لا تكفي هذه النبتة لعلاج عضّات الجرذان. اذهب وابحث عن بقعة من نبات الثوم البرّي وتدحرج فوقها. أعتقد أنّني رأيت بعضاً منها على مقربة من مدخل المخيّم. فهذه النباتات ستخلّصك من بقايا سموم الجرذان". أضافت بجفاف: "مع أنّ أصدقاءك في الوكر لن يشكروني على نصيحتي!".

خرخر بسّ النار: "أمّا أنا فسأكون ممتنّاً. شكراً لك يا جمرة!".

"انتبه لنفسك أيّها الشابّ". نظرت إليه جمرة للحظة، ثمّ أسندت ذقنها إلى كفّيها الأماميتين وأغمضت عينيها.

انزلق بسّ النار من تحت الأغصان المحيطة بفراش جمرة وتوجّه إلى نفق القندول، بحثاً عن الثوم البرّي. كانت الشمس قد بدأت تغرب واستطاع سماع الإناث المنشغلات بإعداد الصغار للنوم.

"إلى أين تظنّ نفسك ذاهباً؟". أتى الصوت من الظلال. إنّه صوت النمر الأسود.

"قالت لي جمرة أن أذهب و...".

هسّ المحارب: "أنت لا تتلقّ أوامرك من تلك الشريدة، اذهب وساعد في أعمال الترميم. لن يُسمح لأيّ هرّ بمغادرة المخيّم الليلة!". ولوّح بذيله يميناً ويساراً.

خفض بسّ النار رأسه بإذعان وقال: "حسناً أيّها النمر الأسود". ثمّ استدار وتمتم في سرّه: "النمر النكد!". توجّه بعد ذلك إلى حدود المخيّم ورأى بسّ رمادي وبسّ أدهم منشغلَين بسدّ ثغرة كبيرة في السياج النباتي.

سأله بسّ رمادي: "كيف حال جمرة؟".

"بخير. قالت إنّ الثوم البرّي مفيد لعضّات الجرذان. فذهبت لإيجاده، لكنّ النمر الأسود أمرني بالبقاء في المخيّم".

ماء بسّ رمادي: "الثوم البرّي؟ أودّ تجربته، فساقي ما زالت تؤلمني".

قال بسّ النار: "يمكنني التسلّل وإحضار بعض منه". كان مستاء من معاملة النمر الأسود الفظّة ويودّ اغتنام فرصة لتحدّيه. "لن يلاحظ أحد إن تسلّلت من هذه الثغرة، فالأمر لن يستغرق منّي أكثر من قفزتين".

عبس بسّ أدهم لكنّ بسّ رمادي هزّ رأسه وهمس: "سنغطّي على غيابك".

لامسه بسّ النار بأنفه بامتنان، ثمّ قفز من فجوة السياج.

عندما أصبح خارج المخيّم، توجّه إلى بقعة الثوم البرّي، متتبّعاً بسهولة رائحته الحادّة. كان القمر قد بدأ يرتفع في السماء البنفسجية مع غروب الشمس في الأفق. هبّ نسيم بارد وشعّث فراء بسّ النار. فجأة، اشتمّ رائحة هرّ حملها الهواء. اشتمّ مرّة أخرى بعناية. أهي عشيرة الظلال؟ كلّا، إنّه النمر الشرس وحسب ومعه هرّان آخران. اشتمّ الهواء مجدّداً. كانا النمر الأسود والنمر الذيّال. ماذا يفعلون هنا يا ترى؟

انتابه الفضول، فخفض جسده في وضعية التسلّل، وبدأ يتقدّم بين النباتات خطوة تلو الأخرى، مبقياً جسده مع اتجاه الرياح لكي لا يتمّ اكتشاف رائحته. كان المحاربون واقفين في ظلّ أجمة من نبات الخنشار ورؤوسهم قريبة من بعضهم. سرعان ما أصبح بسّ النار قريباً بما فيه الكفاية ليسمع ما يقال.

زمجر النمر الشرس: "في الحقيقة، تلميذي لم يكن واعداً منذ البداية، لكنّني لم أتوقّع أن يتحوّل إلى خائن!".

حملق بسّ النار بدهشة وارتعش فراؤه. يبدو أنّ النمر الشرس ينوي أكثر من مجرّد التلميح إلى أنّ بسّ أدهم قد خان العشيرة!

سأله النمر الأسود: "كم قلت إنّ بسّ أدهم غاب خلال رحلتكم إلى فم الأرض؟".

أجاب النائب: "غاب لمدّة كافية للذهاب إلى مخيّم عشيرة الظلال والعودة".

انتصب فراء ذيل بسّ النار غضباً. هذا مستحيل! لقد كان معنا طوال الوقت!

أتى صوت النمر الذيّال عالياً ومليئاً بالحماسة: "لا بدّ أنّه أخبرهم أنّ زعيمة عشيرة الرعد وأقوى محارب فيها قد غادرا المخيّم. لماذا إذاً شنّوا هجومهم في تلك اللحظة؟".

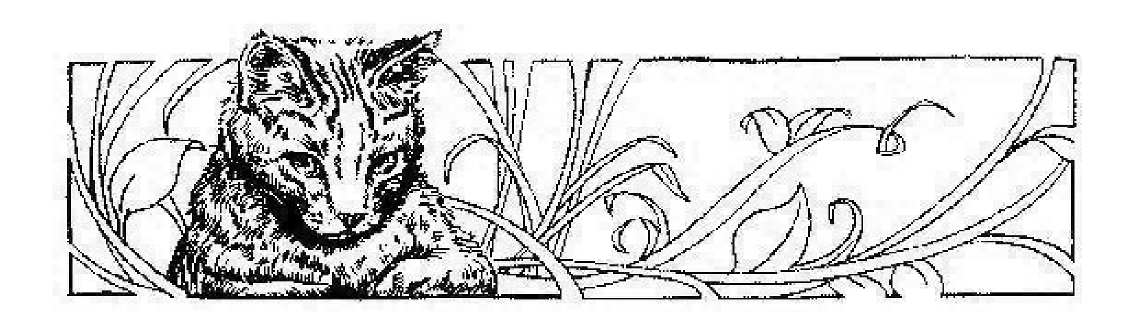
خرخر النمر الشرس: "نحن آخر عشيرة ما زالت واقفة في وجه عشيرة الظلال، وعلينا أن نبقى أقوياء". أصبحت نبرته ناعمة ومخملية الآن، وانتظر جواباً بصمت.

كان النمر الأسود هو الذي أجاب بلهفة، كأنّه ما زال تلميذ النمر الشرس، يعطيه جواباً صحيحاً على سؤال حول تقنيات الصيد، والكلام الذي قاله أرعب بسّ النار: "والعشيرة ستكون أفضل حالاً من دون خائن مثل بسّ أدهم".

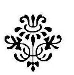
تمتم النمر الشرس بصوت منفعل: "لا أخفي عليك أنّني أوافقك الرأي أيّها النمر الأسود، مع أنّه تلميذي..." وترك جملته معلّقة كما لو أنّه منزعج جدّاً لقول المزيد.

كان بسّ النار قد سمع ما فيه الكفاية. نسي أمر الثوم البرّي وعاد أدراجه إلى المخيّم متسلّلاً بصمت وبأسرع ما يمكنه.

قرّر عدم إخبار بسّ أدهم بما سمع، لأنّه سيصاب بالذعر. تسارعت أفكاره متسائلاً ماذا سيفعل. فالنمر الشرس هو نائب العشيرة. كما أنّه محارب عظيم ويتمتّع بشعبية واسعة بين بقيّة القطط. بالتالي، لن يصغي أحد إلى الاتّهامات التي سيوجّهها إليه مبتدئ. غير أنّ بسّ أدهم في خطر. نفض بسّ النار جسده محاولاً تصفية ذهنه. ليس أمامه سوى خيار واحد، عليه إخبار نجمة الصباح بما سمع، وإقناعها بطريقة ما أنّه يقول الحقيقة!



الفصل 19



كان بسّ رمادي وبسّ أدهم ما زالا يرمّمان الفجوة عندما عاد بسّ النار إليهما، تاركَين له مساحة كافية ليدخل منها.

قال وهو يلهث: "لم أوفّق في العثور على الثوم، فالنمر الأسود يتجوّل في المكان".

ماء بسّ رمادي: "لا بأس، يمكننا إيجاد بعض منه غداً".

قال بسّ النار: "سأذهب لأحضر لك بعض الخشخاش من عند الورقة الرقطاء". كانت نظرة صديقه الكئيبة تثير قلقه، كما أنّ عضلاته بدت متقلّصة من شدّة الألم.

ماء بسّ رمادي: "كلّا لا تقلق، سأكون بخير".

أصرّ بسّ النار: "لا بأس في ذلك". وقبل أن يعترض بسّ رمادي، انطلق باتّجاه وكر الورقة الرقطاء.

كانت تتجوّل في فسحتها الصغيرة، والكآبة تعلو وجهها.

سألها بسّ النار: "هل أنت بخير؟".

أجابت وهي تحرّك ذيلها بانزعاج: "أرواح عشيرة النجوم مضطربة، أعتقد أنّها تحاول إخباري شيئاً. بماذا أساعدك؟".

"أظنّ أنّ بسّ رمادي يحتاج إلى بعض بذور الخشخاش من أجل ساقه. فعضّات الجرذان ما زالت تؤلمه".

"إنّ حزنه على فقدان قلب الأسد يزيد من ألم جروحه. لكنّه سيُشفى مع الوقت، لا تقلق.

غي أنّك محقّ، فبذور الخشخاش ستساعده في هذه الأثناء". ذهبت الورقة الرقطاء إلى وكرها وأحضرت سنبلة خشخاش جافة، ثمّ وضعتها بعناية على الأرض. "ما عليك سوى هزّها مرّة أو مرّتين، وإعطائه البذور التي تسقط منها".

"شكراً لك. هل أنت واثقة أنّك بخير؟".

أجابته الورقة الرقطاء متجنّبة نظراته: "اذهب واعتنِ بصديقك".

حمل بسّ النار سنبلة الخشخاش بين أسنانه وبدأ يسير مبتعداً.

همّست الورقة الرقطاء فجأة: "انتظر".

استدار بسّ النار والتقت نظراته بنظرات عينيها الصفراوين. كان نظرها الملتهب مركّزاً عليه.

همّست مجدّداً: "اسمع يا بسّ النار، حدّثتني عشيرة النجوم منذ أشهر خلت، قبل أن تنضمّ أنت إلى عشيرتنا. وأشعر أنّها تريد منّي إخبارك بذلك الآن. فقد قالت لي إنّ النار وحدها ستنقذ عشيرتنا".

حدّق بسّ النار إلى الورقة الرقطاء مذهولاً.

تبدّد الانفعال الغريب من عينيها، وماءت بصوت عادي: "اعتنِ بنفسك يا بسّ النار"، ثمّ استدارت عنه.

أجابها بسّ النار بتردّد: "إلى اللقاء". عاد عبر نفق الخشخاش وكلماتها الغريبة ما زالت تونّ في أذنيه، لكنّه لم يفهمها. لماذا أخبرته بذلك؟ فمن المؤكّد أنّ النار عدوّ لكلّ سكّان الغابة. هزّ رأسه محبطاً وذهب إلى وكر المبتدئين.

هسّ بسّ النار في أذن صديقه النائم: "بسّ رمادي!". كان قد سُمح لهم بأخذ استراحة طوال فترة الصباح بعدما عملوا في الترميم معظم الليل. أمرهم النمر الشرس أن يستعدّوا لبدء التدريب عند علوّ الشمس. ومن الضوء الأصفر القوي المتسلّل من بين الأغصان إلى الوكر، عرف بسّ النار أنّ موعد التدريب أصبح وشيكاً.

كان قد أمضى ليلة مضطربة. إذ راودته الأحلام كلّما استغرق في النوم، وكانت مربكة وغير واضحة، لكنّها مليئة بالظلام والتهديد.

هسّ مجدّداً: "بسّ رمادي!". لكنّ صديقه لم يتحرّك. كان قد تناول حبّتي خشخاش قبل أن ينام، وهو الآن مستغرق في نوم عميق.

ماء بسّ أدهم من فراشه: "هل استيقظتَ يا بسّ النار؟".

غضب بسّ النار، فقد أراد أن يتحدّث مع بسّ رمادي قبل استيقاظ بسّ أدهم.

أجاب: "أجل!".

جلس بسّ أدهم في فراش الطحالب والخلنج، وبدأ يغتسل بلعقات سريعة. سأل وهو يشير برأسه إلى بسّ رمادي: "هل ستوقظه؟".

تناهت إليهما زمجرة عميقة من خارج الوكر. "أظنّ ذلك! فالتدريب على وشك أن يبدأ".

قفز بسّ النار وبسّ أدهم مجفلَين.

وكز بسّ النار صديقه بكفّه قائلاً: "بسّ رمادي، انهض! النمر الشرس ينتظر!".

رفع بسّ رمادي رأسه لكنّ عينيه ظلّتا مثقلتين بالنعاس.

ناداهم النمر الشرس: "ألم تجهزوا بعد؟".

خرج بسّ النار وبسّ أدهم من الوكر إلى ضوء الشمس المبهر.

كان النائب جالساً إلى جانب جذع الشجرة. سألهما: "هل سيأتي الآخر؟".

أجاب بسّ النار مدافعاً عن صديقه: "أجل، لكنّه استيقظ للتوّ".

زمجر النمر الشرس: "سيفيده التدريب، فقد طال حزنه".

التقت نظرات بسّ النار بالنظرات العنبرية المليئة بالتهديد لبضع لحظات. وللحظة نظر المحارب والمتدرّب إلى بعضهما كعدوَّين.

خرج بسّ رمادي بتثاقل من الوكر.

قال النمر الشرس: "ستكون نجمة الصباح جاهزة لتدريبك خلال دقائق يا بسّ النار". بدّدت تلك الكلمات غضبه، فهذه هي جلسة التدريب الأولى له مع نجمة الصباح! ملأته الحماسة، لاسيّما بعدما توقّع أن تحتاج مدربّته المصابة إلى استراحة أطول.

تابع النمر الشرس: "بسّ رمادي، يمكنك التدرّب معي. هل تعتقد أنّك قادر على التدرّب اليوم يا بسّ أدهم؟ فقد أصبتَ بخدوش مؤلمة بأعشاب القرّاص بينما كنّا نقاتل تلك الجرذان".

نظر بسّ أدهم إلى الأرض ومواء قائلاً: "أنا بخير".

تبع بسّ رمادي وبسّ أدهم النائب إلى خارج المخيّم عبر المدخل، واختفى بسّ أدهم عبر نفق القندول منخفض الرأس.

جلس بسّ النار وانتظر نجمة الصباح، غير أنّها لم تتأخّر. خرجت الهرّة الرمادية من وكرها وأتت إلى الفسحة. كان فراؤها لا يزال ملوّثاً في مواضع الجروح، لكن لم يظهر من مشيتها الواثقة أنّها تتألّم. نادته قائلة: "تعال".

لاحظ بسّ النار باستغراب أنّها بمفردها، إذ لم يرَ أثراً للنمر الأسود والنمر الذيّال. خطرت له فكرة، واختلطت حماسته بشيء من القلق. فهذه فرصته لإخبار نجمة الصباح بما سمعه في الليلة الماضية.

تبعها إلى نفق القندول وسار وراءها. سألها بتردّد: "هل سينضمّ إلينا حارساك؟".

أجابت نجمة الصباح من دون أن تنظر إلى الخلف: "أمرت النمر الأسود والنمر الذيّال بالمساعدة في ترميم المخيّم. فتأمين قاعدة عشيرة الرعد يقع على رأس أولوياتنا".

تسارع نبض بسّ النار، وقرّر إخبارها عن بسّ أدهم حال خروجهما من المخيّم.

تبعا الدرب المؤدّي إلى غور التدريبات. كان الطريق مفروشاً بالأوراق الذهبية التي تساقطت حديثاً وراحت تخشخش تحت أكفّهما. تسارع تفكير بسّ النار وهو يبحث عن الكلمات المناسبة. ماذا سيقول لزعيمته؟ هل سيخبرها أنّ النمر الشرس يخطّط للتخلّص من تلميذه؟ وماذا لو سألته عن السبب؟ هل يمكنه أن يحمل نفسه على الإفصاح لها عن شكوكه أنّ النمر الشرس قتل ذيل الأرجوان؟ مع أنّه لا يملك دليلاً سوى رواية بسّ أدهم الحماسية خلال الاجتماع.

وصلا إلى الغور الرملي، ولم يكن بسّ النار قد تكلّم بعد. كان الغور خالياً.

قالت نجمة الصباح وهي تتقدّم إلى وسط الغور: "طلبتُ من النمر الشرس أن يدرّب زميليك في جزء آخر من الغابة اليوم. فأنا أريد التركيز على مهاراتك القتالية، وأريد منك أيضاً التركيز عليها. وهذا يعني ألّا يشتّت انتباهك شيء".

فكّر بسّ النار، يجب عليّ إخبارها الآن. عليها أن تعرف أنّ بسّ أدهم معرّض لخطر محدق. ارتجفت أكفّه من شدّة القلق. لن أحصل على فرصة ثانية كهذه...

فجأة ومضت حركة عند زاوية عينه ومرّ جسم رمادي سريع أمام أنفه، فسقط بسّ النار إلى الأمام بعدما تعرّضت كفّاه الأماميّتان لضربة خفيفة. ترنّح ثمّ استعاد توازنه، واستدار ليرى نجمة الصباح جالسة بهدوء إلى جانبه. سألته: "هل حصلت على انتباهك الآن؟".

أجابها بسرعة وهو ينظر إلى عينيها الزرقاوين: "أجل يا نجمة الصباح، أنا آسف!".

"هذا أفضل. اسمع يا بسّ النار، أنت معنا منذ عدّة أشهر الآن، وقد راقبت أسلوبك في القتال. كنت سريعاً مع الجرذان، وكنت شرساً مع محاربي عشيرة الظلال. تغلّبتَ على بسّ رمادي منذ أوّل يوم التقينا فيه، كما تغلّبتَ على جمرة بذكائك". صمتت ثمّ خفضت صوتها ليتحوّل إلى هسيس حادّ: "لكن يوماً ما ستواجه عدوّاً يتمتّع بكلّ هذه الصفات أيضاً؛ السرعة والشراسة والذكاء، ومن واجبي أن أعدّك لهذا اليوم".

هزّ بسّ النار رأسه موافقاً وقد أسره كلامها. تنبّهت كلّ حواسّه، ولم يعد رأسه مشغولاً ببسّ أدهم والنمر الشرس، بل اجتاحته الروائح الرطبة والأصوات الصغيرة التي تحفل بها الغابة.

أمرته نجمة الصباح: "لنر كيف تقاتل. هاجِمني".

نظر إليها بسّ النار وراح يقيّم حجمها ويتساءل عن أفضل طريقة يشنّ بها هجومه. كانت تقف على مسافة أقلّ من ثلاثة أرانب منه. وبما أنّها بضعف حجمه، فمن غير المجدي أن يبدأ بلكمات الكفّ المعتادة والمصارعة. لكن إن قفز على ظهرها مباشرة في وثبة قوية واحدة، قد يتمكّن من الإخلال بتوازنها. لم تكن قد أبعدت نظر عينيها الزرقاوين الثاقب عنه لحظة واحدة. فحدّق إليها ثمّ وثب.

كان يخطّط للهبوط مباشرة على كتفيها، لكنّها كانت مستعدّة له، إذ خفضت جسدها بسرعة. وعوضاً عن الهبوط على كتفيها، وجد نفسه يسقط على بطنها. فالتقطته بأكفّها الأربع، وألقته عنها بسهولة. شعر بسّ النار أنّه يرمى مثل هرّ صغير مزعج. ارتطم بالأرض بقوّة، وظلّ في مكانه للحظة قبل أن يستعيد أنفاسه وينهض واقفاً.

قالت نجمة الصباح وهي تقف وتنفض التراب عن فرائها الكثيف: "استراتيجيّتك مثيرة للاهتمام، لكنّ نظراتك خانتك وكشفت هدفك. والآن، حاوِل مجدّداً".

هذه المرّة، نظر بسّ النار إلى كتفيها لكنّه استهدف أكفّها. فعندما ستنخفض نجمة الصباح على الأرض، سيهاجمها وهي رابضة. شعر بالرضى وهو يقفز، لكنّ هذا الإحساس تحوّل إلى إرباك تامّ عندما قفزت فجأة في الهواء وتركته يحطّ على الأرض حيث كانت منذ لحظة واحدة. كان توقيتها ممتازاً، فعندما هبط، وثبت عليه وسحقته.

هسّت في أذنه وهي تنزل عن ظهره وتتراجع بنظرة تحدٍّ: "والآن، جرّب شيئاً لن أتوقّعه".

نهض بسّ النار وهو يلهث، ونفض فراءه بقوّة. حتّى جمرة لم تكن واسعة الحيلة إلى هذا الحدّ. هسّ وقفز مجدّداً. هذه المرّة مدّ كفّيه الأماميَين وهو يهبط باتّجاه نجمة الصباح. فتراجعت على قائمتيها الخلفيتين، واستخدمت كفّيها الأماميتَين لدفعه بعيداً. أحسّ بنفسه وهو يسقط وينزلق، وتعثّرت كفّاه الخلفيّتان في التراب، لكنّ الأوان قد فات ليستعيد توازنه، فسقط بقوّة على جنبه.

قالت نجمة الصباح بهدوء وهو يكافح مجدّداً للوقوف: "بسّ النار، أنت قوي وسريع لكن عليك أن تتعلّم كيف تتحكّم بسرعتك وبوزنك لكي لا يسهل عليّ الإخلال بتوازنك. حاوِل مرّة أخرى".

تراجع بسّ النار وهو يلهث، وكان قد بدأ يشعر بالحرّ كما كساه الغبار. أحسّ بغضب شديد، وصمّم على إثبات نفسه أمام مدرّبته هذه المرّة. انخفض ببطء، وبدأ يقترب من نجمة الصباح. قلّدت حركته وهسّت في وجهه وهو يقترب. فرفع كفّه وضربها على أذنها اليسرى. انخفضت لتتجنّب ضربته، وتراجعت وهي تقف لتصبح أعلى منه. فانقلب بسرعة على ظهره، ثمّ انزلق تحت جسدها، وبحركة سريعة واحدة ركلها على بطنها بقائمتيه الخلفيتين. طارت الهرّة إلى الخلف وسقطت على الأرض الرملية مصدرة مواء عالياً.

انقلب بسّ النار ووثب على أكفّه بفرح عارم. لكن عندما رأى نجمة الصباح ممدّدة على التراب، تذكّر إصاباتها فجأة. هل انفتح أحد جروحها مجدّداً؟ اندفع إلى جانبها وحدّق إليها، لكنّه

استرخى عندما رآها تنظر إليه بفخر.

قالت وهي تقف وتنفض فراءها: "هذا أفضل بكثير، والآن حان دوري".

أسرعت إليه وطرحته أرضاً ثمّ تراجعت وأتاحت له الوقت لينهض قبل أن تقفز مجدّداً. استعدّ لها، لكنّها غلبته بسهولة من جديد.

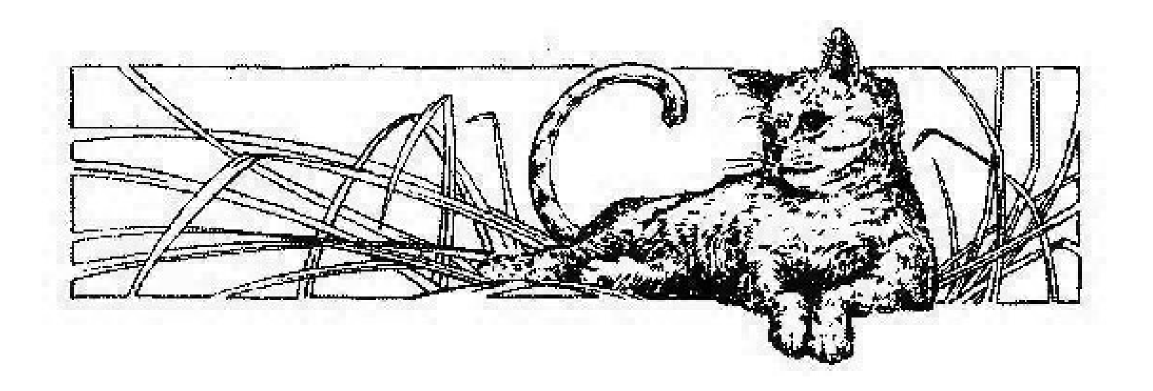
"انظر إلى حجمي يا بسّ النار! لا تحاول أن تتحدّى هجومي، بل استعمل ذكاءك. إن كنتَ سريعاً بما فيه الكفاية لتجنّب ضرباتي، فلا تتردّد!".

وقف مجدّداً، واستعدّ لهجومها. هذه المرّة لم يغرز أكفّه في التراب الناعم، بل وقف بخفّة وأبقى وزنه على رؤوس أصابعه. وعندما انقضّت عليه، قفز بمهارة مبتعداً من طريقها، ثمّ وقف على قائمتيه الخلفيتين ودفع جسدها بعيداً عنه بكفّيه الأماميتين.

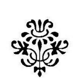
هبطت نجمة الصباح بسلاسة على أكفّها الأربع، واستدارت وهي تخرخر قائلة: "ممتاز! أنت تتعلّم بسرعة. لكنّ هذه الحركة كانت سهلة، لنرَ كيف ستتعامل مع هذه".

استمرّ التدريب حتّى مغيب الشمس. وتنهّد بسّ النار بارتياح عندما سمع مواء نجمة الصباح وهي تقول: "هذا كافٍ اليوم". بدت متعبة بعض الشيء ومتصلّبة، لكنّها صعدت بسهولة من الغور الرملي.

لحق بها بسّ النار. كانت عضلاته تؤلمه ورأسه يدور بكلّ التقنيات الجديدة التي لقّنته إيّاها. عادا أدراجهما بين الأشجار، وتاق لإخبار بسّ رمادي وبسّ أدهم عن جلسته التدريبية. ولم يدرك أنّه نسي إخبار زعيمة العشيرة عن بسّ أدهم إلّا عندما وصلا إلى حدود المخيّم.



الفصل 20



عندما عاد بسّ النار، بدا المخيّم أفضل حالاً بقليل. إذ عملت القطط على إصلاحه وترميمه طوال اليوم كما يبدو. ومع أنّ بياض الثلج وزهرة الذهب ما زالتا تدعّمان سياج الحضانة، إلّا أنّ السياج الخارجي بدا متيناً وآمناً من جديد.

عبر بسّ النار الفسحة بحثاً عن صيد طازج. فمرّ من أمام بسّة الرمال وبسّ أغبر، اللذين كانا يستعدّان للالتحاق بالدورية التالية.

ماءت بسّة الرمال عندما رأت بسّ النار يشتمّ مكان الطعام: "أنا آسفة، لقد أكلنا آخر فأرين".

هزّ بسّ النار كتفيه بلا اكتراث، وقرر اصطياد شيء لنفسه لاحقاً. توجّه إلى وكر المبتدئين ليجد بسّ رمادي جالساً يلعق كفّه الأمامية وقد أسند ظهره إلى جذع الشجرة.

سأله عندما جلس: "أين بسّ أدهم؟".

أجاب بسّ رمادي: "لم يعد من مهمّته بعد. انظر!". ورفع كفّه ليراها بسّ النار. كان باطن كفّه مجروحاً ينزف. "أرسلني النمر الشرس لأصطاد السمك، فدست على حجر حادّ في الجدول".

"يبدو الجرح عميقاً، عليك الذهاب إلى الورقة الرقطاء لتفحصه. بالمناسبة، إلى أين أرسل النمر الشرس بسّ أدهم؟".

تمتم بسّ رمادي: "لا أدري، فقد كنت غارقاً في الماء البارد حتّى بطني". ثمّ نهض وذهب إلى وكر الورقة الرقطاء وهو يعرج.

جلس بسّ النار يتأمّل مدخل المخيّم بانتظار عودة بسّ أدهم. فمنذ أن سمع حديث المحاربين في الليلة الماضية، وهو يشعر أنّ صديقه في خطر محدق. غاص قلبه عندما رأى النمر الشرس عائداً بمفرده إلى المخيّم.

انتظر مدّة أطول. كان القمر قد أصبح عالياً في السماء، ومن المفترض أن يكون بسّ أدهم قد عاد. تمنّى بسّ النار لو أنّه تحدّث مع نجمة الصباح عندما سنحت له الفرصة. كان النمر الأسود والنمر الذيّال يحرسان وكرها الآن، ولا يريدهما أن يسمعا حديثه.

كان النمر الشرس قد أحضر صيداً طازجاً وراح يتقاسمه مع الرعب الأبيض خارج وكر المحاربين. أدرك بسّ النار أنّه يشعر بجوع شديد، وفكّر أنّه إن خرج للصيد قد يصادف بسّ أدهم خارج المخيّم. وبينما هو يتساءل عمّا سيفعل، رأى صديقه الأسود يدخل عبر النفق. فغمره شعور بالارتياح، لا سيّما وأنّ بسّ أدهم كان يحمل بين أسنانه صيداً طازجاً.

أتى المبتدئ إلى بسّ النار مباشرة ووضع الطعام على الأرض قائلاً بفخر: "هذا كافٍ لنا نحن الثلاثة! ولا بدّ أنّه ألذّ من المعتاد لأنّه من أراضي عشيرة الظلال".

شهق بسّ النار. "وهل ذهبت لتصطاد في أراضي عشيرة الظلال؟".

قال بسّ أدهم: "تلك كانت مهمّتي".

لم يصدّق بسّ النار أذنيه. "أرسلك النمر الشرس إلى أراضي العدوّ لكي تصطاد فيها! علينا إخبار نجمة الصباح، فهذا خطر جدّاً!".

عندما ذُكر اسم نجمة الصباح، هزّ بسّ أدهم رأسه يميناً ويساراً وبدا الذعر في عينيه. هسّ قائلاً: "اسمع، الزم الصمت من فضلك. لقد نجوت، حتّى إنّني اصطدت فريسة. انتهت المسألة على خير".

قال بسّ النار بحدّة: "نجوت هذه المرّة!".

"هس! النمر الشرس ينظر إلينا. كُلْ حصّتك واصمت!". هزّ بسّ النار كتفيه وأخذ قطعة من الفريسة. أمّا بسّ أدهم فأكل بسرعة متجنّباً نظرات بسّ النار. سأل بعد قليل: "هل نُبقي شيئاً لبسّ رمادي؟".

تمتم بسّ النار بفم ممتلئ: "ذهب لرؤية الورقة الرقطاء، فقد جرح كفّه، ولا أدري متى يعود".

أجاب بسّ أدهم الذي بدا عليه الإنهاك فجأة: "حسناً، أبقِ له ما تريد. أنا متعب وأريد أن أنام". ثمّ نهض وذهب إلى الوكر.

بقي بسّ النار في الخارج يراقب بقيّة قطط المخيّم وهي تستعدّ للنوم. قرّر إخبار بسّ أدهم بما سمعه في الغابة ليلة أمس، إذ عليه أن يعرف حجم الخطر المحدق به.

كان النمر الشرس ممدّداً بجانب الرعب الأبيض يتجاذبان الألسنة، لكنّ عينه كانت على وكر المبتدئين. تثاءب بسّ النار ليُظهر للنمر الشرس كم هو منهك، ثمّ وقف وتبع بسّ أدهم إلى الداخل.

كان بسّ أدهم نائماً، لكنّ بسّ النار أدرك من انتفاض أكفّه وشاربه أنّه يحلم، وعرف من الأصوات الخافتة التي تصدر عنه أنّ الحلم ليس سعيداً. فجأة قفز الهرّ الأسود على أكفّه واتّسعت عيناه ذعراً. كان فراؤه منتصباً وظهره مقوّساً.

ماء بسّ النار قائلاً: "بسّ أدهم! اهدأ، أنت في الوكر، ولا أحد هنا سواي!".

نظر بسّ أدهم حوله مذعوراً.

كرّر بسّ النار: "هذا أنا وحسب".

رفّ بسّ أدهم عينيه وبدا أنّه عرف صديقه، فانهار على فراشه.

ماء بسّ النار بجدّية: "بسّ أدهم، أريد إخبارك بأمر ما. فقد سمعت شيئاً في الليلة الماضية عندما خرجتُ للبحث عن الثوم البرّي". التفت بسّ أدهم بعيداً، وكان لا يزال يرتجف من تأثير الحلم، لكنّ بسّ النار أصرّ على المتابعة: "سمعتُ النمر الشرس وهو يقول للنمر الأسود والنمر الذيّال أنّك خنت عشيرة الرعد. قال لهم إنّك تسلّلت بعيداً خلال رحلتنا إلى فم الأرض وأخبرتَ عشيرة الظلال أنّ المخيّم بلا حراسة".

التفت إليه بسّ أدهم وهتف مذعوراً: "لكنّني لم أفعل!".

وافقه قائلاً: "بالطبع، لكنّ النمر الأسود والنمر الذيّال صدّقاه، وأقنعهما أنّ عليهم التخلّص منك".

نظر إليه بسّ أدهم بذهول وتلاحقت انفاسه.

سأله بسّ النار بلطف: "لماذا يودّ النمر الشرس التخلّص منك يا بسّ أدهم؟ فهو أحد أقوى المحاربين في العشيرة، ما الخطر الذي تمثّله بالنسبة إليه؟". شعر بسّ النار أنّه يعرف الجواب أساساً، لكنّه أراد سماع الحقيقة من فم صديقه. فانتظر بينما أخذ الهرّ الأسود يبحث عن الكلمات المناسبة. أخيراً اقترب من بسّ النار وهمس في أذنه بصوت أجش: "لأنّ نائب عشيرة النهر لم يقتل ذيل الأرجوان، بل النمر الشرس هو من فعل".

هزّ بسّ النار رأسه بصمت وتابع بسّ أدهم يهمس بصوت متوتّر: "ذيل الأرجوان هو الذي قتل نائب عشيرة النهر...".

قاطعه بسّ النار رغماً عنه: "إذاً النمر الشرس لم يقتل قلب السنديان".

هزّ بسّ أدهم رأسه نافياً. "كلّا! بعدما قتل ذيل الأرجوان قلبَ السنديان، أمرني النمر الشرس بالعودة إلى المخيّم. أردت البقاء، لكنّه صاح في وجهي لكي أذهب، فهربت واختبأت بين

الأشجار. كان عليّ أن أهرب، لكنّني لم أستطع الذهاب بينما كان العراك لا يزال مستمرّاً. فاستدرت وتسلّلت عائداً لأرى ما إذا كان النمر الشرس يحتاج إلى المساعدة. وعندما اقتربت، كان كلّ محاربي عشيرة النهر قد فرّوا، ولم يبقَ سوى ذيل الأرجوان والنمر الشرس. وقف ذيل الأرجوان يراقب آخر محارب وهو يفرّ وفي هذه اللحظة" – صمت بسّ أدهم، ثمّ ازدرد ريقه – "قفز عليه النمر الشرس وغرز أسنانه في مؤخّر عنقه، فسقط ذيل الأرجوان ميتاً. عندئذٍ بدأت أجري. لا أدري ما إذا كان النمر الشرس قد رآني أم لا، لكنّني واصلت الجري إلى أن عدت إلى المخيّم".

ألحّ عليه بسّ النار بلطف: "ولماذا لم تخبر نجمة الصباح؟".

"وهل كانت ستصدّقني؟ هل تصدّقني أنت؟".

"بالطبع". وراح يلعق صديقه بين أذنيه ليهدّئ من روعه ويواسيه. عليه أن يجد فرصة أخرى لإخبار نجمة الصباح بخيانة النمر الشرس. فوعده قائلاً: "لا تقلق، سأحلّ المشكلة. في هذه الأثناء، احرص على البقاء بجانبي أو بجانب بسّ رمادي".

"هل يعرف بسّ رمادي أنّهم يريدون التخلّص منّي؟".

"ليس بعد، لكنّني سأخبره".

جلس بسّ أدهم بصمت على بطنه وحدّق أمامه. فخرخر بسّ النار وهو يلامس الجسد الأسود النحيل بأنفه: "لا بأس، سأساعدك على الخروج من هذا المأزق".

دخل بسّ رمادي إلى الوكر مع طلوع الفجر. كانت بسّة الرمال وبسّ أغبر قد رجعا من دوريتهما منذ مدّة وجيزة وخلدا إلى النوم كلّ في فراشه.

ماء بسّ رمادي وقد بدا أكثر سروراً من الأيّام الماضية: "مرحباً!".

استيقظ بسّ النار فوراً وخرخر قائلاً: "تبدو بحال أفضل".

لعق بسّ رمادي أذن صديقه وأجاب: "وضعت الورقة الرقطاء مادّة لزجة على جرحي وجعلتني أتمدّد ساكناً لساعات، ولا بدّ أنّني غفوت. على فكرة، أتمنّى أن يكون ذاك الصغنج لي، فأنا أتضوّر جوعاً!".

"إنّه لك، فقد اصطاده بسّ أدهم أمس. أرسله النمر الشرس إلى...".

تذمّرت بسّة الرمال: "اصمتا أنتما الاثنان، نحن نحاول النوم".

نظر بسّ رمادي إلى الأعلى بسأم ثمّ ماء قائلاً: "تعال، لقد أنجبت عين الزمرّد صغارها، فلنذهب لرؤيتهم".

خرخر بسّ النار بفرح. أخيراً حدث أمر يدعو للاحتفال في عشيرة الرعد. نظر إلى بسّ أدهم الذي لا يزال نائماً، ثمّ خرج من الوكر. عبر الفسحة مع بسّ رمادي باتّجاه الحضانة، وتوجّه

فراؤه بالدفء تحت أولى أشعّة الشمس، فتمطّى مستمتعاً بمرونة عموده الفقري وقوّة قوائمه.

قال له بسّ رمادي من فوق كتفه: "كفّ عن التباهي!". فتوقّف عن التمطّي وتبع صديقه.

كان الرعب الأبيض جالساً خارج الحضانة يحرس المدخل. فماء عندما اقترب بسّ النار وبسّ رمادي: "هل أتيتما لرؤية الصغار الجدد؟".

هزّ بسّ النار رأسه.

قال الرعب الأبيض: "ادخلا واحداً تلو الآخر. لكن انتظرا قليلاً، فنجمة الصباح معها الآن".

قال بسّ النار: "حسناً، ادخل أنت أوّلاً، وسأذهب لرؤية جمرة في هذه الأثناء". ثمّ خفض رأسه باحترام للرعب الأبيض وذهب إلى جمرة.

كانت الهرّة العجوز تنظّف خلف أذنيها، وعيناها شبه مغمضتين من شدة التركيز.

قال لها بسّ النار ممازحاً: "لا تقولي إنّك تتوقّعين هطول المطر!".

نظرت إليه جمرة وماءت قائلة: "يبدو أنّك كنت تصغي إلى قصص العجائز، فما النفع من قيام القطّة بتنظيف ما خلف أذنيها ما دامت ستمطر على أيّ حال؟".

هزّ بسّ النار شاربه بمرح وسألها: "هل ستذهبين لرؤية صغار عين الزمرّد؟".

تصلّبت جمرة وهزّت رأسها مجيبة: "لا أظنّ أنّه مرحّب بي".

"لكنّهم يعرفون أنّك أنقذت...".

أجابته جمرة بنبرة لا تشجّع على مزيد من الجدال: "تكون الهرّة عادة حمائية جدّاً تجاه صغارها، لا سيّما إن كانت تنجب للمرّة الأولى. لذا أعتقد أنّني سأبقى بعيدة".

"كما تشائين، أمّا أنا فسأذهب لرؤيتهم. لا بدّ أنّ ولادة قطط جديدة في المخيّم هي إشارة حسنة".

هزّت جمرة كتفيها وتمتمت بغموض: "أحياناً".

استدار بسّ النار وعاد أدراجه إلى الحضانة. كانت السحب قد حجبت الشمس وجعلت الهواء أكثر برودة. هبّ نسيم قوي عبث بفراءه وبعثر أوراق الشجر المتساقطة على أرض الفسحة.

كانت نجمة الصباح جالسة خارج الحضانة. خلفها، رأى ذيل بسّ رمادي يختفي للتوّ في المدخل الضيّق. حيّته قائلة: "بسّ النار، هل أتيت لرؤية محاربي عشيرة الرعد الجدد؟". بدت زعيمة عشيرة الرعد متعبة وحزينة.

فوجئ بسّ النار. أليس الصغار هم بشرى حسنة بالنسبة إلى عشيرة الرعد؟

أجابها: "أجل".

"حسناً، عندما تنتهي تعال لرؤيتي في الوكر".

ماء بسّ النار وهي تبتعد ببطء: "حسناً يا نجمة الصباح". ارتعش فراؤه. ها هي فرصة أخرى تتاح له للتحدّث إلى نجمة الصباح بمفرده. قد يحالفه الحظّ في النهاية.

خرج بسّ رمادي من مدخل الحضانة وماء قائلاً: "ما أجملهم! أنا أتضوّر جوعاً سأذهب لأعثر على بعض الطعام، وسأحتفظ بشيء لك إن وجدت!". ثمّ غمزه بمحبّة وانطلق مبتعداً.

خرخر بسّ النار مودّعاً، ثمّ نظر إلى الرعب الأبيض الذي هزّ رأسه معطياً إيّاه الإذن لدخول الحضانة. فأقحم بسّ النار نفسه في المدخل الضيّق.

وجد أربعة هرر صغيرة متجمّعة في عشّ عميق جهّزته لها عين الزمرّد. كان فراؤها رمادياً فاتحاً مع بقع أدكن، مثل أمّها تماماً، باستثناء هرّ رمادي داكن واحد. أخذت تموء وتتحرّك بجانب بطن عين الزمرّد، وأعينها مغمضة تماماً.

همس بسّ النار: "كيف تشعرين؟".

أجابته: "متعبة قليلاً". ثمّ نظرت بفخر إلى صغارها: "لكنّ الصغار كلّهم أقوياء وبصحّة جيّدة".

خرخر بسّ النار: "عشيرة الرعد محظوظة بهم. كنت أتحدّث للتوّ عنهم مع جمرة".

لم تجب عين الزمرّد، ولم تفت بسّ النار نظرة القلق التي عبرت عينيها وهي تعيد إليها أحد الصغار الذي حاول أن يبتعد.

أحس بسّ النار بشيء من القلق. فمع أنّ نجمة الصباح قبلت جمرة في عشيرة الرعد، إلّا أنّ بقيّة القطط لا تثق على ما يبدو بالهرّة العجوز. لامس عين الزمرّد بأنفه بمودّة ثمّ خرج إلى الفسحة.

كانت زعيمة العشيرة تنتظر بسّ النار عند مدخل وكرها، والنمر الذيّال جالس إلى جانبها. حدّق المحارب المخطّط بحدّة إلى بسّ النار وهو يقترب، لكنّ هذا الأخير تجاهل نظرته ونظر إلى الزعيمة.

ماءت قائلة: "تعال إلى الداخل"، ثمّ استدارت وتقدّمته، فلحق بها. وقف النمر الذيّال فوراً استعداداً للحاق بهما.

نظرت إليه نجمة الصباح من فوق كتفها وماءت قائلة: "أعتقد أنّني سأكون على خير ما يرام مع بسّ النار". فبدا التردّد على النمر الذيّال للحظة، قبل أن يعود ليجلس عند المدخل.

لم يكن قد سبق لبسّ النار أن دخل وكر نجمة الصباح. اجتاز خلفها ستارة الأشنة التي تحجب المدخل وقال: "صغار عين الزمرّد جميلون".

أجابته نجمة الصباح بجدّية: "قد يكونون كذلك، لكن أصبح علينا إطعام مزيد من الأفواه، وفصل الثلوج أوشك أن يحلّ". نظرت بعد ذلك إلى بسّ النار الذي لم يستطع إخفاء دهشته من نبرتها الكئيبة. فماءت وهي تهزّ رأسها بنفاد صبر: "أوه، لا تصغ إليّ، فأولى هبّات الرياح الباردة تقلقني دائماً. تعال، اجلس". وأشارت برأسها إلى الأرض الرملية الجافّة.

جلس بسّ النار على بطنه ومدّ كفّيه أمامه.

تكوّرت نجمة الصباح على فراش الطحالب الخاصّ بها. وعندما استقرّت ولفّت ذيلها حول أكفّها، أقرّت قائلة: "ما زلت أتألّم بعد جلسة التدريب يوم أمس. لقد قاتلتَ جيّداً أيّها الشابّ".

هذه المرّة، لم يأخذ بسّ النار الوقت للاستمتاع بمديحها، فقد كان قلبه ينبض بعنف. إنّها اللحظة المناسبة لإخبار زعيمته بمخاوفه حيال النمر الشرس. فرفع ذقنه استعداداً للكلام.

غير أنّ نجمة الصباح تكلّمت أوّلاً. حدّقت إلى جدار وكرها خلفه وتمتمت قائلة: "ما زلت أشتمّ رائحة عشيرة الظلال في المخيّم. تمنّيت ألّا يأتي اليوم الذي أرى فيه عدوّنا يقتحم قلب عشيرة الرعد". هزّ بسّ النار رأسه بصمت، وشعر أنّ نجمة الصباح ترغب في قول المزيد.

تنهّدت وقالت: "ومُنينا بكلّ هذه الوفيات. أوّلاً ذيل الأرجوان، ومن بعده قلب الأسد. أنا ممتنّة على الأقلّ لأنّ المحاربين الذين ما زالوا بيننا أقوياء ومخلصون مثلهما. على الأقلّ، بوجود النمر الشرس كنائب، لا تزال عشيرة الرعد قادرة على الدفاع عن نفسها". تسارع نبض بسّ النار وسرت رعشة باردة في جسده بينما راحت نجمة الصباح تتابع: "في وقت من الأوقات، كان النمر الشرس محارباً شابّاً أخافني بقوّته واندفاعه. فطاقة كهذه تحتاج إلى توجيه حذر. لكنّني فخورة الآن بالاحترام الذي تكنّه له العشيرة. أعلم أنّه طموح، لكنّ طموحه يجعله واحداً من أشجع القطط الذين كان لي شرف القتال إلى جانبهم".

أدرك بسّ النار فوراً أنّه لا يستطيع إخبار نجمة الصباح بشكوكه حيال النمر الشرس، لا سيّما وأنّها تعتبر نائبها مسؤولاً عن حماية العشيرة بأكملها. سيكون عليه إنقاذ بسّ أدهم بنفسه. أخذ نفساً عميقاً ورفّ عينيه ببطء. هكذا، عندما التفتت نجمة الصباح ونظرت إلى عينيه مباشرة، لم تجد فيها أيّ أثر للصدمة أو الخيبة.

أتت جملتها التالية هادئة ومليئة بالقلق: "أنت تعرف أنّ النجم نمرود سيرجع. فقد أوضح تماماً في الاجتماع أنّه يريد الحصول على حقوق صيد في كلّ الأراضي".

قال بسّ النار بإصرار: "لقد حاربناه مرّة وسنفعل مجدّداً".

وافقته نجمة الصباح بهزّة من رأسها. "هذا صحيح، وعشيرة النجوم ستكافئك على شجاعتك يا بسّ النار". صمتت ولعقت جرحاً شبه متعافٍ في جنبها. "أعتقد أنّه يجب أن تعرف أنّني خلال المعركة مع الجرذان لم أخسر روحي الخامسة بل السابعة".

أجفل بسّ النار من شدّة الصدمة واستقام في جلسته.

تابعت نجمة الصباح: "أخبرت العشيرة أنّها روحي الخامسة لأنّني خشيت أن يقلقوا على سلامتي. لكن بعد خسارة روحين أخريَين، سأغادركم وأنضمّ إلى عشيرة النجوم".

أخذ ذهن بسّ النار يتسارع. لمَ تخبره بذلك؟ خرخر قائلاً باحترام: "شكراً على إخباري بذلك يا نجمة الصباح".

هزّت رأسها وقالت بصوت مبحوح: "أنا متعبة الآن. اذهب، لكن أتوقّع منك أن تحافظ على سرّية الحديث الذي دار بيننا".

أجابها وهو يبعد بأنفه ستارة الأشنة: "بالطبع يا نجمة الصباح".

كان النمر الذيّال لا يزال عند المدخل. فمرّ بسّ النار من أمامه وتوجّه إلى وكره. لم يعرف أيّ جزءٍ من حديثه مع نجمة الصباح كان محيّراً أكثر.

أوقفه مواء ذعر آتٍ من الحضانة. خرجت بياض الثلج وهي تجري إلى الفسحة، ذيلها منفوش وعيناها مليئتين بالخوف. "صغاري! ثمّة من خطف صغاري!".

أتى إليها النمر الشرس، ثمّ نادى العشيرة: "أسرعوا، فتّشوا المخيّم! أيّها الرعب الأبيض، ابقَ حيث أنت. أيّها المحاربون، قوموا بجولة على حدود المخيّم. وأنتم أيّها المبتدئون، فتّشوا كلّ الأوكار!".

اندفع بسّ النار إلى أقرب وكر، وكان وكر المحاربين، ثمّ دخله. وجده خالياً. فتحقّق من الفراش بأكفّه لكنّه لم يعثر على أثر أو رائحة لصغار بياض الثلج.

خرج وذهب إلى وكره. كان بسّ أدهم وبسّ رمادي هناك أساساً يفتّشان ويشتمّان كلّ زاوية فيه. فتّش بسّ أغبر وبسّة الرمال وكر المسنّين. فتركهما بسّ النار يكملان تلك المهمّة وأخذ يتنقّل من أجمة إلى أخرى ويُدخل وجهه فيها متجاهلاً الأشواك التي تخدش أنفه. غير أنّه لم يعثر على أثر للصغار في أيّ مكان. فتّش حدود المخيّم بينما أخذ المحاربون يروحون ويجيئون وهم يشتمّون الهواء.

فجأة رأى بسّ النار جمرة في البعيد. كانت تشقّ طريقها عبر جزء غير محروس من سياج الخنشار. اعتقد أنّها اشتمّت رائحة الصغار، فانطلق نحوها في اللحظة التي اختفى فيها ذيلها بين النباتات. وعندما وصل إلى سياج الخنشار، كانت قد اختفت. اشتمّ الهواء، لكنّه لم يجد فيه أثراً للصغار، بل مجرّد رائحة خوف جمرة، فتساءل ما إذا كانت فرّت خائفة.

تردّدت صيحة النمر الشرس من الأدغال خلف الحضانة. فاندفعت إليه كلّ القطط، تتقدّمها بياض الثلج. تجمهروا على مقربة منه، وتدافعوا لرؤية ما يجري خلف الأغصان الكثيفة. شقّ بسّ النار طريقه إلى الأمام ليرى النمر الشرس واقفاً أمام كومة من الفراء المرقّط الملقاة بلا حراك.

إنّها الورقة الرقطاء!

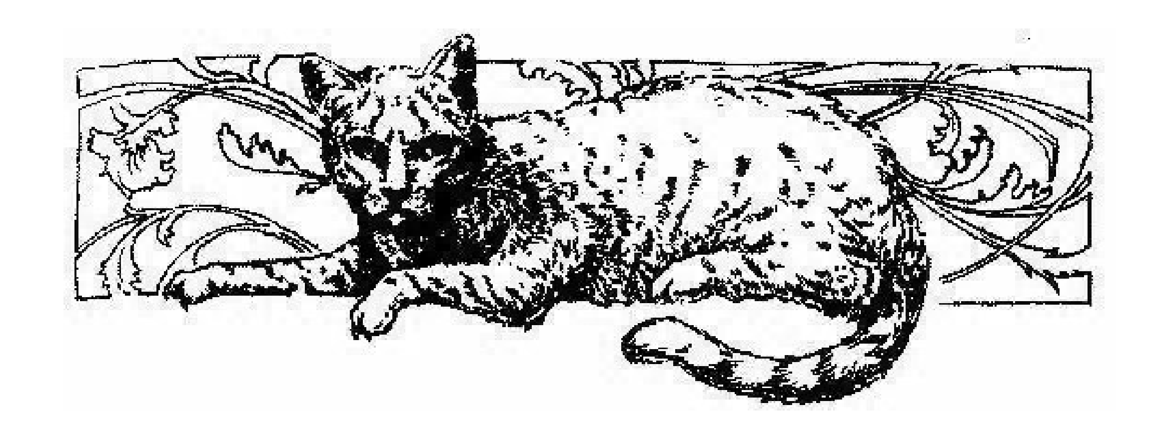
حدّق بسّ النار غير مصدّق إلى جسدها الذي فارقته الحياة. فثار غضبه مثل سحابة سوداء، وشعر بالدماء تزأر في أذنيه. من الذي أقدم على ذلك؟

مرّت نجمة الصباح بين الحشد وانحنت فوق الهرّة المداوية. أخيراً ماءت بصوت خافت: "لقد قُتلت بعضّة محارب".

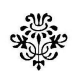
أمال بسّ النار عنقه ورأى جرحاً واحداً على مؤخّر عنق الورقة الرقطاء. فدار رأسه وعجز للحظة عن الرؤية بوضوح.

خلال تلك اللحظات العصيبة، سمع همهمات في آخر الحشد، ثمّ تحوّلت الهمهمات إلى مواء واحد يصمّ الآذان.

"جمرة اختفت!".



الفصل 21



ولولت بياض الثلج: "جمرة قتلت الورقة الرقطاء وخطفت صغاري!". اندفعت بقيّة الإناث إلى جانب بياض الثلج وحاولت أن تهدّئ من روعها باللعق والملامسة، لكنّ بياض الثلج دفعت الهرر بعيداً وأطلقت عويل حزن نحو السماء. وكما لو أنّ السماء تجاوبت مع صرختها، هدر الرعد وهبّت رياح باردة عبثت بفراء القطط البريّة.

هسّ النمر الشرس قائلاً: "جمرة! لطالما علمت أنّها خائنة. الآن عرفنا كيف تمكّنت من إبعاد نائب عشيرة الظلال، كانت مجرّد حيلة لتكسب بها ثقة عشيرتنا!".

لمع البرق وأضاء السماء بوميض أبيض متوهّج مضفياً على الموقف مزيداً من الرهبة، ثمّ هدر الرعد في أرجاء الغابة.

لم يصدّق بسّ النار أذنيه. شعر بحزن شديد وأخذت الأسئلة تعصف برأسه. هل يعقل أن تكون جمرة هي التي قتلت الورقة الرقطاء؟

علا صوت النمر الأسود وطغى على همهمات الصدمة. "نجمة الصباح! ما رأيك؟".

خيّم الصمت على القطط وهي تستدير لتنظر إلى زعيمتها.

جال نظر نجمة الصباح على حشد القطط قبل أن يستقرّ أخيراً على جثّة الورقة الرقطاء. بدأت أولى قطرات المطر تتساقط وتلمع مثل الندى على فراء الهرّة الداوية الذي ما زال يلمع.

رقّت نجمة الصباح عينيها ببطء، بينما خيّم الحزن على وجهها وخشي بسّ النار للحظة أن تنهار أمام هذه الخسارة الجديدة. لكن عندما فتحت عينيها، ومضتا بشراسة أظهرت تصميمها

على الانتقام من هذا الهجوم الوحشي. رفعت رأسها وقالت: "إن كانت جمرة هي التي قتلت الورقة الرقطاء وخطفت صغار بياض الثلج، سنطاردها من دون رحمة". ماء الحشد موافقاً، بينما تابعت تقول: "لكن علينا الانتظار، فثمّة عاصفة في الأجواء، وأنا غير مستعدّة لخسارة مزيد من الأرواح. إن كانت عشيرة الظلال هي التي خطفت صغارنا، فإنّها لن تلحق بهم الأذى فوراً. وأظنّ أنّ النجم نمرود يريد تجنيدهم لصالح عشيرته، أو استخدامهم كرهائن لإجبارنا على السماح له بالصيد في أراضينا. فور انحسار العاصفة، سنرسل دورية لتعقّب جمرة وإعادة الصغار".

اعترض النمر الشرس: "لا يمكننا إضاعة الوقت وإلاّ فقدنا الرائحة بسبب المطر!".

هزّت نجمة الصباح ذيلها بنفاد صبر. "إن أرسلنا فرقة بحث الآن، ستضيع جهودنا سدى، لأنّ الرائحة ستزول أساساً في هذا الطقس ريثما نجهز. لكن إن انتظرنا انحسار العاصفة، فإنّ فرص نجاحنا ستكون أكبر".

تمتمت القطط موافقة. فمع أنّ الشمس أوشكت على بلوغ وسط السماء، إلّا أنّ الجوّ كان يزداد اكفهراراً. وبما أنّ القطط تضطرب في أوقات البرق والرعد، يبدو أنّها فضّلت الأخذ بنصيحة زعيمتها.

نظرت نجمة الصباح إلى نائبها وقالت: "أودّ مناقشة خططنا معك أيّها النمر الشرس، من فضلك". هزّ النمر الشرس رأسه وذهب باتّجاه وكر نجمة الصباح، لكنّ زعيمة العشيرة تردّدت. ألقت نظرة على بسّ النار وأشارت بهزّة من ذيلها وشاربها أنّها تريد التحدّث معه بمفرده.

اجتمعت القطط الأخرى حول الورقة الرقطاء وبدأت تتجاذب الألسنة معها، مطلقة عويل حزن طغى على صوت الرعد. مرّت نجمة الصباح بينها وذهبت إلى نفق الخنشار المؤدّي إلى وكر الورقة الرقطاء.

مشى بسّ النار بصمت حول القطط الحزينة وتبع زعيمة العشيرة إلى الداخل. كان النفق مظلماً جدّاً، ذلك أنّ العاصفة حجبت شمس الصباح بحيث بدا كما لو أنّ الليل قد أسدل ستاره. تساقط المطر بغزارة أكبر على الأوراق محدثاً صخباً قوياً، لكنّ فسحة الورقة الرقطاء كانت محمية بأغصان الشجر على الأقلّ.

عندما وصل بسّ النار إلى جانب نجمة الصباح، سألته بإلحاح: "أين هي جمرة يا بسّ النار؟ هل تعرف؟".

بالكاد سمعها بسّ النار. فقد تذكّر رغماً عنه آخر مرّة أتى فيها إلى هذه الفسحة. تراءت له صورة الورقة الرقطاء وهي تخرج من وكرها بفرائها اللامع في ضوء الشمس، فأغمض عينيه للاحتفاظ بها.

قالت نجمة الصباح بحدّة: "بسّ النار، عليك أن تؤجّل حزنك إلى وقت آخر".

انتفض بسّ النار وأجاب: "لقد... رأيت جمرة وهي تخرج من المخيّم بعد فقدان الصغار. هل تظنّين حقّاً أنّها قتلت الورقة الرقطاء وخطفتهم؟".

حدّقت إليه نجمة الصباح ثمّ أقرّت قائلة: "لا أدري. أريد أن تعثر عليها وتعيدها حية. أودّ معرفة الحقيقة".

سألها: "ألن ترسلي النمر الشرس؟".

قالت: "النمر الشرس محارب عظيم، لكنّ ولاءه للعشيرة قد يعميه. فهو متعطّش لتلبية رغبة قطط العشيرة بالانتقام ولا يمكن لأحد أن يلومه على ذلك. فالعشيرة تعتقد أنّ جمرة خانتنا، وإن ظنّ النمر الشرس أنّ إحضار جمرة جثّة هامدة سيثلج قلب عشيرته، فإنّه لن يتردّد في فعل ذلك".

هزّ بسّ النار رأسه موافقاً. كانت على حقّ، فالنمر الشرس مستعدّ لقتل جمرة من دون تردّد.

بدا التجهّم على وجه نجمة الصباح للحظة. تنظر إلى عيني بسّ النار وقالت أخيراً: "إن اكتشفتُ أنّ جمرة خائنة، سأقتلها بنفسي. لكن إن لم تكن كذلك... فإنّني لن أسمح بموت هرّة بريئة".

ماء بسّ النار: "لكن ماذا إن لم ترغب جمرة في العودة؟".

"ستفعل إن طلبتَ منها أنت".

استغرب بسّ النار ثقة نجمة الصباح به. أحسّ بثقل المسؤولية التي تلقيها على عاتقه وتساءل ما إذا كان يملك الشجاعة الكافية لتنفيذ هذه المهمّة.

أمرته قائلة: "انطلق حالاً، لكن كن حذراً. ستكون بمفردك، وقد تصادف دوريات للأعداء. هذه العاصفة ستبقي محاربينا في المخيّم لبعض الوقت".

هدر الرعد في اللحظة التي انطلق فيها بسّ النار عبر الفسحة. انهمر المطر على فرائه مثل أحجار صغيرة. ثمّ أضاء البرق وجهَي النمر الأسود والنمر الذيّال وهما يراقبانه يعبر الفسحة.

مرّ بسّ النار من أمام الحضانة، لكنّه لم يستطع الرحيل من دون تجاذب الألسنة مع الورقة الرقطاء. كانت القطط الأخرى قد ابتعدت بحثاً عن ملاذ لها. تَركت جثّة الهرّة المداوية تحت المطر المنهمر، واجتمعت تحت نباتات الخنشار المبتلّة تموء بخوف وحزن.

دفن بسّ النار أنفه في فراء الورقة الرقطاء المبتلّ واشتمّ رائحتها للمرّة الأخيرة، ثمّ تمتم قائلاً: "الوداع يا جميلتي".

تناهى إليه صوت بياض الثلج والنمرة الشقراء وهما تتحدّثان في الجوار، فجمد في مكانه يصغي.

قالت النمرة الشقراء: "لا بدّ أنّ جمرة ساعدت على ذلك".

سألتها بياض الثلج بصوت قلق: "هل تقصدين أنّ الفاعل من عشيرة الرعد؟".

"ألم تسمعي ما قاله النمر الشرس عن بسّ أدهم؟ ربّما كانت له يد في ما حصل. فأنا نفسي لم أشعر بالارتياح له مطلقاً".

اقشعر بدن بسّ النار. إن كانت شائعات النمر الشرس المغرضة قد وصلت إلى الحضانة، فهذا يعني أنّ بسّ أدهم لن يكون بأمان في المخيّم.

أدرك أنّ عليه التصرّف بسرعة. سوف يعثر على جمرة أوّلاً، ثمّ يحلّ مشكلة بسّ أدهم. أسرع إلى المكان الذي رأى فيه جمرة للمرّة الأخيرة. كان يعرف رائحتها جيّداً ويستطيع اشتمامها حتّى عبر الأوراق المبلولة بالمطر. أخذ يمرّ بين الأجمات فاتحاً فمه لالتقاط رائحتها.

"بسّ النار!".

أجفل ثمّ استرخى عندما عرف صوت بسّ رمادي.

ماء صديقه مندفعاً نحوه: "كنت أبحث عنك!".

خرج بسّ النار بحذر من بين النباتات.

أغمض بسّ رمادي عينيه قليلاً بسبب المطر المنهمر على فرائه الطويل ووجهه، وسأله: "إلى أين؟".

"سأبحث عن جمرة".

"بمفردك؟". بدا القلق على وجه بسّ رمادي العريض.

فكّر بسّ النار للحظة وقرّر إخبار صديقه الحقيقة. "طلبت منّي نجمة الصباح إعادة جمرة".

بدت الصدمة على وجه بسّ رمادي: "حقّاً؟ ولماذا اختارتك أنت؟".

"ربّما ظنّت أنّني أعرف جمرة أكثر من غيري وقادر على إيجادها بسهولة".

"لكن ألا تملك فرقة من المحاربين فرصة أكبر لإيجادها؟ فالنمر الشرس أفضل متعقّب للأثر في العشيرة، وهو الأقدر على إعادتها".

تمتم بسّ النار: "لكنّه قد لا يعيدها".

"ماذا تعني؟".

"النمر الشرس يريد الانتقام، لذلك سيقتلها وحسب".

"لكن إن كانت قد قتلت الورقة الرقطاء وخطفت الصغار...".

"وهل تصدّق ذلك حقّاً؟".

نظر بسّ رمادي إلى صديقه وهزّ رأسه محتاراً. "هل تظنّها بريئة؟".

"لا أدري، وكذلك نجمة الصباح. فهي تريد أن تعرف الحقيقة، ولهذا السبب أرسلتني عوضاً عن النمر الشرس".

"لكن إن أمرت النمر الشرس بإعادتها حية...". في تلك اللحظة هدر الرعد بقوّة وأضاء البرق الأشجار فوقهما.

في الضوء المبهر، لمح بسّ النار بياض الثلج وهي تطرد بسّ أدهم من الحضانة. كان وجه الهرّة محتقناً من شدّة الغضب وهي تهسّ في وجه الهرّ الأسود وتنقضّ عليه بعضّة تحذيرية في ساقه الخلفية.

التفت بسّ رمادي إليه متسائلاً: "ماذا يجري؟".

حدّق بسّ النار إلى صديقه وخطرت في ذهنه فكرة جديدة. يبدو أنّ بسّ أدهم لم يعد يملك الوقت ولا بدّ له الآن من الاستعانة ببسّ رمادي. لكن هل سيصدّقه؟ أخذت الرياح تعصف بالأشجار، فاضطرّ بسّ النار إلى رفع صوته. "بسّ أدهم في خطر كبير".

"ماذا؟".

"عليّ إبعاده عن عشيرة الرعد حالاً قبل أن يصيبه مكروه".

بدا الإرباك على وجه بسّ رمادي: "لماذا؟ وماذا عن جمرة؟".

أجابه بسّ النار بإلحاح: "لا وقت لأشرح لك، ثق بي وحسب. علينا إيجاد طريقة لإبعاد بسّ أدهم. ستبقي نجمة الصباح المحاربين في المخيّم حتّى انحسار العاصفة، لكنّنا لا نملك وقتاً طويلاً". حاول أن يتخيّل زوايا الغابة خارج أراضي عشيرة الرعد، ثمّ أضاف: "علينا أخذه إلى مكان لن يجده فيه النمر الشرس، مكان يستطيع العيش فيه بمفرده".

حدّق إليه بسّ رمادي للحظة. "ما رأيك في بربر؟".

ردّد بسّ النار: "بربر! هل تعني أن نأخذ بسّ أدهم إلى منطقة ذوي الساقين؟". هزّ أذنيه حماسة ثمّ أضاف: "أجل، قد يكون هذا أفضل حلّ".

ماء بسّ رمادي: "هيّا بنا إذاً، ماذا ننتظر؟".

أحسّ بسّ النار بالارتياح. كان عليه أن يعرف أنّ صديقه القديم سيساعده. نفض مياه المطر عن رأسه، ثمّ لامس فراء بسّ رمادي بأنفه وخرخر قائلاً: "شكراً لك. والآن، لنحضر بسّ

أدهم".

وجدا صديقهما مكوّراً في وكرهم والبؤس يعلو وجهه. كانت بسّة الرمال وبسّ أغبر في فراشيهما هما أيضاً، ويبدو عليهما التوتّر والخوف بسبب اشتداد العاصفة.

هسّ بسّ النار عند المدخل: "بسّ أدهم".

رفع بسّ أدهم رأسه، فهزّ بسّ النار أذنيه ولحق به الهرّ الأسود إلى الخارج.

همس بسّ النار: "تعال، سنأخذك إلى بربر".

ماء بسّ أدهم بحيرة وهو يغمض عينيه قليلاً اتّقاء للمطر: "بربر؟ ولماذا؟".

نظر بسّ النار إلى عينيه مباشرة وأجاب: "لأنّك ستكون بأمان هناك".

سأله بسّ أدهم بصوت متهدّج: "هل رأيت ما فعلته بياض الثلج؟ لقد ذهبت للاطمئنان على الصغار وحسب...".

قاطعه بسّ النار: "هيّا بنا، علينا أن نسرع!".

نظر بسّ أدهم إلى صديقه وتمتم قائلاً: "شكراً لك يا بسّ النار". ثمّ استدار وانطلق عبر الفسحة التي تعصف بها الرياح.

اندفع المبتدئون الثلاثة نحو مدخل المخيّم، وكان فراؤهم ملتصقاً بأجسادهم بفعل الرياح العاتية. عندما وصلوا إلى نفق القندول، سمعوا صوتاً يناديهم.

"إلى أين أنتم الثلاثة؟".

كان النمر الشرس.

استدار بسّ النار وغاص قلبه خوفاً. وبينما هو يتساءل عمّا سيقوله، رأى نجمة الصباح آتية باتّجاههم. عبست للحظة ثمّ استرخت ملامحها.

ماءت قائلة: "أحسنت يا بسّ النار. أرى أنّك أقنعت صديقيك بالذهاب معك. لدى عشيرة الرعد مبتدئون شجعان أيّها النمر الشرس. إن كان هؤلاء الثلاثة مستعدّين للذهاب في مهمّة في طقس كهذا".

اعترض النمر الشرس قائلاً: "بالتأكيد هذا ليس الوقت المناسب للخروج".

أتى صوت نجمة الصباح هادئاً وبارداً: "أحد صغار عين الزمرّد يعاني من السعال، وقد عرض بسّ النار إحضار بعض من حشيشة السعال له".

سألها النمر الشرس: "وهل يحتاج حقّاً إلى أخذ صديقيه معه؟".

"في هذه العاصفة، أعتقد أنّه محظوظ برفقتهم!". نظرت مطوّلاً إلى عيني بسّ النار، فأدرك فجأة حجم الثقة التي توليه إيّاها. ماءت آمرة: "انطلقوا يا شباب".

نظر إليها بسّ النار بامتنان وخرخر شاكراً وهو يخفض رأسه. ألقى نظرة سريعة على صديقيه، ثمّ قادهما عبر الدروب المألوفة المؤدّية إلى الأشجار الأربع. سُمع عويل الريح وهي تعصف بالأغصان فوقهم، وتمايلت الأشجار وأخذت جذوعها تهتزّ وتطقطق كما لو أنّها ستسقط في أيّ لحظة. هطل المطر بغزارة عبر أوراق الشجر مبلّلاً القطط الثلاثة حتّى جلودها.

وصلوا إلى الجدول، لكنّ الصخور التي كانوا يدوسون عليها عادة لعبوره غُمرت تماماً بالمياه. مشى الثلاثة على الضفّة ونظروا بيأس إلى النهر العريض العكر المتدفّق بغزارة.

ماء بسّ النار: "تعاليا من هنا، ثمّة شجرة مقطوعة، يمكننا استعمالها للعبور". قاد بسّ رمادي وبسّ أدهم إلى جذع لا يعلو سوى خطوة هرّ صغير عن الماء المتدفّق بسرعة. حذّرهما وهو يقفز عليه بحذر: "انتبها، فهو زلق!". كان اللحاء قد انتُزع عن الجذع تاركاً إيّاه أملس ولا يمكن التوازن عليه سوى بصعوبة. مشت القطط الثلاثة عليه بحذر. قفز بسّ النار على الضفّة الأخرى وراقب صديقيه إلى أن وصلا هما أيضاً بسلام.

كانت الأشجار أكبر على الضفّة الأخرى بحيث وفّرت لهم ملجأ من الريح وهم يركضون جنباً إلى جنب.

سأل بسّ رمادي وهو يلهث: "هل ستخبرني بالضبط عن سبب إبعاد بسّ أدهم عن المخيّم؟".

أجابه بسّ النار: "لأنّه يعرف أنّ النمر الشرس قتل ذيل الأرجوان".

وقف بسّ رمادي في مكانه وحدّق أوّلاً إلى بسّ النار ومن ثمّ إلى بسّ أدهم، ثمّ سأل غير مصدّق: "وهل قتل النمر الشرس ذيل الأرجوان!".

أجاب بسّ أدهم: "أجل، خلال المعركة مع عشيرة النهر، رأيته بأمّ عيني".

اعترض بسّ رمادي وهو ينطلق مجدّداً: "لكن لمَ يفعل ذلك؟". كانوا قد وصلوا إلى المنحدر المؤدّي إلى الفسحة عند الأشجار الأربع.

أجاب بسّ النار وهو يرفع صوته فوق صوت الرياح: "لا أدري. ربّما ظنّ أنّ نجمة الصباح ستعيّنه نائباً مكانه".

لم يجبه بسّ رمادي، لكنّ التجهّم علا وجهه.

بدأت القطط بتسلّق المنحدر المؤدّي إلى أراضي عشيرة الرياح. وبينما كان بسّ النار يقفز من صخرة إلى أخرى، تابع حديثه مع بسّ رمادي الذي كان في أعقابه. فقد أراد أن يفهم صديقه مدى خطورة بقاء بسّ أدهم في المخيّم. صاح قائلاً: "لقد سمعت النمر الشرس وهو يتحدّث مع النمر الأسود والنمر الذيّال ليلة مقتل قلب الأسد. إنّه ينوي التخلّص من بسّ أدهم".

جلس بسّ رمادي بكلّ ثقله على إحدى الصخور وسأل: "التخلّص منه؟ هل تعني قتله؟".

توقّف بسّ النار هو الآخر ونظر إلى صديقيه. كان بسّ أدهم يستريح على مسافة أبعد، وجسده يعلو وينخفض وهو يحاول التقاط أنفاسه. بدا أصغر حجماً من أيّ وقت مضى بفرائه المبتلّ الملتصق بجسده الهزيل.

ماء بسّ النار لصديقه: "أرأيت كيف ثار غضب بياض الثلج على بسّ أدهم اليوم؟ كان النمر الشرس يلمح للجميع أنّ بسّ أدهم خائن. غير أنّه سيكون بأمان مع بربر. والآن هيّا بنا، علينا أن نسرع!".

كان من المستحيل متابعة الكلام في أراضي عشيرة الرياح المفتوحة. إذ كانت الريح تعصف بهم بينما أخذ البرق يشقّ السماء والرعد يهدر فوق رؤوسهم. خفضت القطط الثلاثة رؤوسها وشقّت طريقها إلى الأمام في قلب العاصفة.

وصل الثلاثة أخيراً إلى أطراف السهل الذي تنتهي عنده أراضي عشيرة الرياح.

ماء بسّ النار بصوت عالٍ: "لا يمكننا مرافقتك إلى أبعد من ذلك يا بسّ أدهم، إذ علينا العودة للعثور على جمرة قبل انحسار العاصفة".

نظر بسّ أدهم إليهما بشيء من الخوف، لكنّه هزّ رأسه موافقاً.

سأبه بسّ النار: "هل أنت قادر على إيجاد بربر بمفردك؟".

"أجل، فأنا أذكر الطريق".

حذّره بسّ رمادي: "احترس من الكلبين".

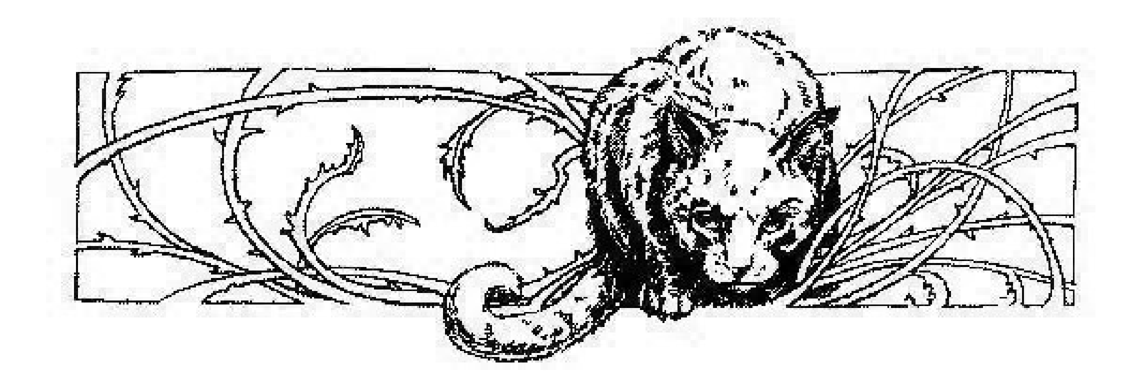
هزّ بسّ أدهم رأسه وقال: "سأفعل!". ثمّ عبس فجأة وسأل: "هل أنتما واثقان أنّ بربر سيرحّب بي؟".

أجابه بسّ رمادي وهو يمرّر رأسه بحنان على كتف صديقه المبتلّ: "ما عليك سوى إخباره أنّك اصطدت ثعباناً مرّة!".

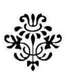
حثّه بسّ النار الذي كان يدرك أنّ الوقت ضيّق: "هيّا انطلق". لعق فراء بسّ أدهم وأضاف: "ولا تقلق، سأحرص على أن يعرف الجميع أنّك لم تخن عشيرة الرعد".

"وماذا إن أتى النمر الشرس يبحث عنّي؟". كان صوت بسّ أدهم خافتاً مع صخب العاصفة.

نظر إليه بسّ النار بثبات وقال: "لن يلحق بك، سأخبره أنّك متّ".



الفصل 22



عاد بسّ النار وبسّ رمادي أدراجهما إلى أراضي عشيرة الرعد. كان الاثنان منهكَين ومبتلَّين حتّى العظم، لكنّ بسّ النار لم يبطء من سيره. بدأت العاصفة تنحسر، وقريباً ستخرج دورية من عشيرة الرعد لتعقّب جمرة، ولا بدّ له من إيجادها قبلهم. كانت السماء لا تزال مكفهرّة، مع أنّ الغيوم السوداء بدأت تتراجع في الأفق. فاستنتج بسّ النار أنّ الشمس أوشكت على المغيب.

سأله بسّ رمادي بينما كانا يهبطان السفح المنحدِر المؤدّي إلى الأشجار الأربع: "لماذا لا نذهب مباشرة إلى أراضي عشيرة الظلال؟".

"علينا أن نلتقط أوّلاً رائحة جمرة. أتمنّى فقط ألّا يقودنا الأثر إلى مخيّم عشيرة الظلال".

نظر بسّ رمادي شزراً إلى صديقه لكنّه لم يجب.

عبرا الجدول مجدّداً ودخلا أراضي عشيرة الرعد. لم يجدا أثراً لجمرة إلى أن وصلا إلى غابات السنديان القريبة من المخيّم.

بعد توقّف المطر، بدأت الروائح المحيطة بهم تظهر مجدّداً. فأمِل بسّ النار ألّا يكون المطر قد غسل أثر جمرة تماماً. توقّف ومرّر أنفه على أحد أغصان الخنشار، فعرف الرائحة المألوفة. التقط على الفور رائحة خوف جمرة ومواء قائلاً: "لقد مرّت من هذا الطريق!".

شقّ طريقه عبر الأعشاب المبتلّة وتبعه بسّ رمادي. بدأ المطر يتوقّف وصوت الرعد يبتعد. فحثّ بسّ النار خطاه لأنّ الوقت بدأ ينفد.

لاحظ بفزع أنّ رائحة جمرة كانت تقودهما فعلاً إلى أراضي عشيرة الظلال مباشرة، فغاص

قلبه. هل يعني ذلك أنّ اتّهامات النمر الشرس صحيحة؟ أخذ يأمل أن تؤدّي بهما الرائحة إلى اتّجاه مختلف مع كلّ خطوة، لكنّ الطريق كان واضحاً.

وصلا إلى درب الرعد وتوقّفا. مرّ أمامهما عدد من الوحوش المسرعة التي أطلقت نوافير من الماء القذر. فابتعد الهرّان عن طرف الطريق الرمادي الواسع إلى أن سنحت لهما فرصة للعبور. اجتازا الطريق مسرعَين ودخلا أراضي عشيرة الظلال.

أحسّ بسّ النار بوخز في أكفّه وهو يشتمّ العلامات التي تبيّن حدود أراضي العشيرة.

توقّف بسّ رمادي ووقف حوله بتوتّر، ثمّ أقرّ قائلاً: "لطالما ظننت أنّني سأكون برفقة عدد أكبر من المحاربين عندما أدخل أخيراً أراضي عشيرة الظلال".

تمتم بسّ النار: "أنت لست خائفاً، أليس كذلك؟".

"أولست خائفاً أنت؟ حذّرتني أمّي مراراً من الاقتراب من رائحة بول عشيرة الظلال".

أجاب بسّ النار: "لكنّ أمّي لم تعلّمني قطّ أشياء كهذه". غير أنّه شعر للمرّة الأولى بالارتياح لأنّ فراءه المبتلّ ملتصق بجسده لكي لا يلاحظ بسّ رمادي كيف كان بدنه يقشعرّ من شدّة الخوف.

تقدّم الهرّان ببطء وظلّا متيقّظَين. كان بسّ رمادي يراقب المكان تحسّباً من دوريات عشيرة الظلال، في حين انصبّ اهتمام بسّ النار على فرقة عشيرة الرعد التي عرف أنّها ستصل قريباً.

قادتهما رائحة جمرة إلى قلب أراضي الصيد الخاصّة بعشيرة الظلال. كانت الغابة معتمة هنا وتكثر في الأرض نباتات العلّيق والقرّاص.

تذمّر بسّ رمادي قائلاً: "لا أستطيع اشتمامها، فالمكان مبتلّ جدّاً".

أكّد له بسّ النار: "إنّها هناك".

قال بسّ رمادي فجأة: "لكنّني أشتمّ هذا".

هسّ بسّ النار: "ماذا تعني؟" وتوقّف وقد انتابه القلق.

"رائحة هرّ صغير. ثمّة دماء هرّ صغير هنا!".

اشتمّ بسّ النار الهواء مجدّداً بحثاً عن رائحة لصغار عشيرة الرعد. "وأنا أشتمّها أيضاً، بالإضافة إلى رائحة أخرى!". هزّ ذيله بقوّة محذّراً بسّ رمادي ليبقى هادئاً. ثمّ أشار بصمت بشاربه نحو شجرة رماد سوداء أمامهم.

انتفضت أذنا بسّ رمادي متسائلاً، فهزّ بسّ النار رأسه قليلاً. كانت جمرة مختبئة خلف

جذع الشجرة العريض المشقوق.

تلقائياً انفصل الهرّان وتقدّما من الشجرة كلٌّ باتّجاه مختلف. تسلّلا إلى أرض الغابة الناعمة مستخدمَين كلّ حيل التدريب الأساسية، وتقدّما بخطوات خفيفة خافضَين جسديهما.

فجأة قفزا.

صاحت جمرة من أثر المفاجأة عندما هبط الهرّان بجانبها وسمّراها بالأرض. كافحت لتتحرّر وقاومت، ثمّ تراجعت إلى فجوة عند قاعدة الجذع. فتقدّم بسّ النار وبسّ رمادي وقطعا عليها الطريق.

لمعت عيناها بكلّ عدائيتها القديمة وهي تهسّ قائلة: "كنت أعرف أنّ عشيرة الرعد ستلقي اللوم عليّ!".

سألها بسّ النار: "أين الصغار؟".

وقال بسّ رمادي: "لقد اشتممنا رائحة دمائهم! هل آذيتهم؟".

زمجرت جمرة بغضب: "ليسوا معي. أتيت بحثاً عنهم لكي أعيدهم، ثمّ توقّفت لأنّني اشتممت رائحة الدماء أنا أيضاً. لكنّهم ليسوا هنا".

نظر بسّ النار وبسّ رمادي إلى بعضهما البعض.

كرّرت جمرة بإصرار: "ليسوا معي!".

سألها بسّ رمادي ما لم يستطع بسّ النار قوله بصوت عالٍ: "لماذا هربتِ إذاً؟ ولماذا قتلتِ الورقة الرقطاء؟".

"وهل ماتت الورقة الرقطاء؟". كانت الصدمة واضحة في صوتها.

عندئذٍ استراح بسّ النار وسألها بصوت أجش: "ألم تعرفي بذلك؟".

"وكيف لي أن أعرف؟ لقد غادرت المخيّم ما إن سمعت أنّ الصغار فُقدوا".

بدت الريبة على وجه بسّ رمادي، لكنّ بسّ النار عرف الصدق في صوتها.

تابعت قائلة: "أنا أعرف من الذي أخذ الصغار، فقد اشتممت رائحته بجانب الحضانة".

سألها بسّ النار: "ومن هو؟".

"إنّه نمس، أحد محاربي النجم نمرود. وما دام الصغار مع عشيرة الظلال، فهم في خطر كبير".

اعترض بسّ النار قائلاً: "لكن بالطبع حتّى عشيرة الظلال لن تقدم على إيذاء قطط صغيرة!".

أجابت جمرة بحدّة: "لا تكن واثقاً إلى هذا الحدّ، فالنجم نمرود ينوي استخدامهم كمحاربين".

شهق بسّ رمادي قائلاً: "لكنّهم لم يتجاوزا الشهر الثالث من عمرهم!".

"هذا لم يمنعه في السابق. فهو يدرّب صغاراً بهذا السنّ منذ أن أصبح زعيماً للعشيرة. وفي الشهر الخامس يرسلهم كمحاربين!".

اعترض بسّ النار: "لكنّهم سيكونون صغاراً جدّاً على المشاركة في قتال!". ثمّ تخيّل مبتدئي عشيرة الظلال بحجمهم الصغير عندما رآهم في الاجتماع. هذا يعني أنّهم لم يكونوا صغيري الحجم وحسب، بل صغيري السنّ أيضاً!

هسّت جمرة بحقد: "النجم نمرود لا يأبه بذلك، فهو يملك كثيراً من القطط الصغيرة، وإن أحتاج إلى المزيد، يسرق صغار العشائر الأخرى!". كان صوتها مليئاً بالغضب. "في النهاية، نحن نتحدّث عن هرّ قتل صغاراً من عشيرته!".

ذُهل بسّ النار وبسّ رمادي.

أخيراً سألها بسّ النار: "ما دام قد قتل صغار عشيرة الظلال، لماذا لم يُعاقَب؟".

قالت جمرة بصوت تملؤه المرارة: "لأنّه كذب عليهم. اتّهمني بقتلهم وصدّقته العشيرة!".

فجأة فهم بسّ النار. "ألهذا السبب طُردتِ من عشيرة الظلال؟ عليك العودة معنا وإخبار نجمة الصباح بذلك".

"ليس قبل أن أنقذ صغاركم!".

رفع بسّ النار رأسه واشتمّ الهواء. كان المطر قد توقّف وبدأت الرياح تهدأ. ولا بدّ أنّ دورية عشيرة الرعد في طريقها إليهم. لن يكونوا بأمان هنا.

كانت الصدمة لا تزال بادية على وجه بسّ رمادي بعد سماع اتّهامات جمرة. سألها: "كيف يمكن لزعيم أن يقتل صغاراً من عشيرته؟".

"أصرّ النجم نمرود على تدريبهم بقسوة وكانوا صغاراً. اصطحب اثنين منهم لتدريبهم بعيداً عن المخيّم". أخذت جمرة نفساً عميقاً مرفقاً بأزيز ثمّ تابعت: "لم يكونوا قد تجاوزوا شهرهم الرابع. وعندما أتى بهما إليّ، كانا قد فارقا الحياة أساساً. وجدت على جسديهما الصغيرين عضّات وخدوش محاربَين وليس مبتدئين. لا شكّ أنّه قاتلهما بنفسه، ولم أستطع فعل شيء. عندما أتت أمّهما لرؤيتهما، كان النجم نمرود معي. فقال إنّه وجدني عند جثّتيهما". تهدّج صوتها ونظرت بعيداً.

سألها بسّ النار غير مصدّق: "ولماذا لم تخبريها أنّ النجم نمرود هو الذي قتلهما؟".

هزّت جمرة رأسها وأجابت: "لم أستطع".

"ولِمَ لا؟".

تردّدت الهرّة العجوز وعندما تكلّمت، كان صوتها مثقلاً بالندم. "النجم نمرود هو زعيم عشيرة الظلال، وابن النجم الأشعث النبيل. هذا يعني أنّ كلمته هي القانون".

أشاح بسّ النار بنظره وجلست القطط الثلاثة بصمت للحظة. أخيراً ماء بسّ النار: "سننقذ الصغار معاً، وهذه الليلة، لكن لا يمكننا البقاء هنا. فأنا أشتمّ رائحة دورية عشيرة الرعد". صمت ثمّ أضاف: "إن كان النمر الشرس معهم، لن تكون أمامك أيّ فرصة. سيقتلك قبل أن نتمكّن من شرح شيء له".

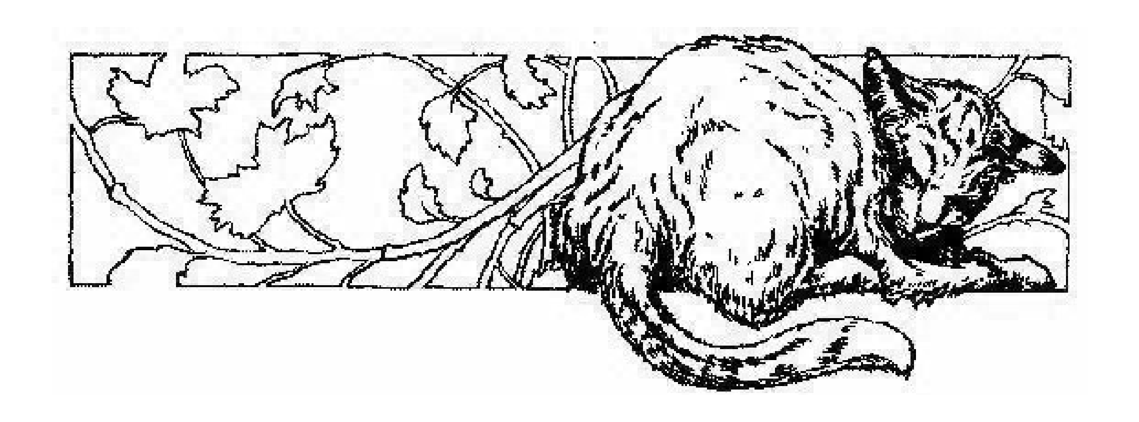
نظرت إليه جمرة وقد استعادت يقظتها وتصميمها. قالت له: "ثمّة خُثّ من هذا الطريق، ولا بدّ أنّه مبتلّ بماء المطر. لن يشتمّوا رائحتنا هناك".

قفزت بين مجموعة كثيفة من نبات الخنشار وتبعها بسّ النار وبسّ رمادي بسرعة. بدؤوا يسمعون حفيف الأعشاب من بعيد. لم تكن الرياح هي التي تحرّك الحشائش، بل الدورية التي تقترب وهي متعطّشة للانتقام بفعل تحريض النمر الشرس وأكاذيبه.

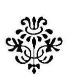
خيّم صمت مخيف على الغابة وبدأ ضباب رقيق يهبط ويتجمّع بين جذوع الأشجار. نفض بسّ النار الماء عن فرائه ونزع بنفاد صبر نبتة شائكة عن صدره.

قادتهما جمرة إلى الأمام. أخذت الأرض تزداد رطوبة وبدأت أكفّهم تغرق في التربة الطرية. اخترقت رائحة العفن أنف بسّ النار، لكنّها ستطغى على الأقلّ على رائحتهم. خلفهم، أصبح صخب القطط أعلى.

حثّتهما جمرة وهي تخفض رأسها تحت أجمة من النباتات ذات الأوراق العريضة: أسرعا، من هنا". جثمت القطط الثلاثة تحت الأعشاب وخبّأت أذيالها. حافظ بسّ النار على سكونه قدر الإمكان محاولاً تجاهل رطوبة الأرض التي بلّلت فراء بطنه، وأصغى إلى الجلبة التي كانت تحدثها دورية عشيرة الرعد وهي تقترب.



الفصل 23



استنتج بسّ النار من وقع الأقدام أنّ الدورية تضمّ عدّة هررة تجري بسرعة. لم يستطع التعرّف على رائحة كلّ هرّ بمفرده بسبب الروائح المنبعثة من الأرض، لكنّه عرف أنّ القطط تنتمي إلى عشيرة الرعد. أمسك أنفاسه عندما تسارعت الخطى على مقربة منهم وابتعدت.

همس بسّ النار: "هل سنحاول حقّاً إنقاذ الصغار بمفردنا؟".

أجابته جمرة: "قد أتمكّن من الحصول على بعض المساعدة من داخل عشيرة الظلال، فليست كلّ قطط العشيرة مؤيّدة للنجم نمرود".

حرّك بسّ النار أذنيه ولوّح بسّ رمادي بذيله باستغراب.

شرحت جمرة: "عندما أصبح النجم نمرود زعيماً، أجبر كبار السنّ على مغادرة المخيّم الآمن والعيش على الحدود والصيد بأنفسهم. وبما أنّ تلك القطط كبرت على احترام قانون المحاربين، فإنّ بعضها قد يساعدنا".

حدّق بسّ النار إلى عينيها المتعبتين وفكّر بسرعة ثمّ قال: "وأنا قد أتمكّن من إقناع فرقة عشيرة الرعد بمساعدتنا أيضاً. إن تحدّثت إليهم قبل أن يروا جمرة، فإنّني قد أتمكّن من إقناعهم بقصّتها. بسّ رمادي، انتظر عند شجرة الرماد اليابسة حيث اشتممنا دماء الهرّ الصغير إلى أن يعود أحدنا".

بدا القلق على بسّ رمادي وتمتم متسائلاً: "لكن هل تثق حقّاً أنّ جمرة ستحضر مساعدة؟".

زمجرت هذه الأخيرة: "عليك أن تثق بي، سأعود".

نظر بسّ رمادي إلى بسّ النار الذي هزّ برأسه إلى الأسفل.

لم تقل جمرة المزيد بل انطلقت واختفت في الأدغال.

سأل بسّ رمادي: "هل فعلنا الصواب يا ترى؟".

أقرّ بسّ النار: "لا أدري. إن كنّا قد فعلنا الصواب، فإنّنا سننقذ الصغار وسنصبح أبطالاً. أمّا إن كنّا مخطئين، فسيقضى علينا".

أسرع بسّ النار للحاق بالدورية، وتجاوز أجمات العلّيق والقندول، ثمّ مرّ بنباتات القرّاص. كان من السهل اتّباع أثرهم. فقطط عشيرة الرعد الغاضبة لم تحاول إخفاء وجودها على أراضي عشيرة الظلال.

في الأعلى، كانت السحب الكثيفة قد تبدّدت أخيراً. وفوق رؤوس الأشجار، بدأ الفراء الفضّي يومض في سماء الليل. طلع القمر تدريجياً، لكنّ ضوأه البارد لم يخترق الضباب الذي خيّم فوق الأعشاب المعتمة.

ركّز بسّ النار على الروائح التي يشتمّها أمامه. استطاع تمييز رائحة الرعب الأبيض. اشتمّ مجدّداً، وعرف أنّ النمر الشرس ليس معهم. أسرع للحاق بهم وتوقّف عندما أصبح خلفهم.

التفت المحاربون وحدّقوا إليه. كان فراؤهم منتصباً وآذانهم منخفضة بعدائية. رأى معهم النمر الأسود والفأرة السمراء الشابّة، فضلاً عن المحارب المخطّط، البرق الخاطف. لم تكن الفأرة السمراء الهرّة الوحيدة في الدورية، بل كانت معهم غصن الصفصاف أيضاً.

زمجر الرعب الأبيض: "بسّ النار! ماذا تفعل هنا؟".

أجاب وهو يلهث: "نجمة الصباح هي التي أرسلتني! طلبت منّي العثور على جمرة قبل...".

قاطعه الرعب الأبيض وماء قائلاً: "آه! أخبرتني نجمة الصباح أنّني قد أجد صديقاً هنا. الآن فهمت ما كانت تعنيه". نظر بتأمّل إلى بسّ النار.

سأله بسّ النار وهو يشعر بالفخر أمام نظراته: "هل النمر الشرس في الجوار؟".

نظر إليه الرعب الأبيض بفضول وأجاب: "أصرّت نجمة الصباح على أنّها تحتاج إليه في المخيّم لحماية من تبقّى من الصغار".

هزّ بسّ النار رأسه بسرعة وقد غمره الارتياح، ثمّ ماء بإلحاح: " أنا أحتاج إلى مساعدتك أيّها الرعب الأبيض. يمكنني أن أقودك إلى مكان الصغار، وبسّ رمادي ينتظرنا. نحن نخطّط لإنقاذهم الليلة، فهل سترافقوننا؟".

هزّ المحاربون أذيالهم بحماسة: "بالطبع سنرافقكم!".

حذّرهم بسّ النار: "لكنّ هذا قد يعني الإغارة على مخيّم عشيرة الظلال".

سأله البرق الخاطف بلهفة: "هل تستطيع أن تقودنا إلى هناك؟".

"كلّا، لكنّ جمرة تستطيع ذلك، كما وعدت بإحضار المساعدة من حلفائها القدماء في المخيّم".

حدّقت إليه الفأرة السمراء وهزّت ذيلها بغضب، ثمّ هسّت قائلة: "وهل عثرت على جمرة؟".

ماء الرعب الأبيض بحيرة: "أنا لا أفهم شيئاً. هل ستساعدنا تلك الخائنة على إنقاذ الصغار الذين خطفتهم؟".

أخذ بسّ النار نفساً عميقاً ليهدّئ نفسه، ثمّ نظر بثبات إلى عيني الرعب الأبيض وقال: "جمرة لم تخطف الصغار، كما أنّها لم تقتل الورقة الرقطاء، بل تريد مساعدتنا لإنقاذ صغارنا".

حدّق إليه الرعب الأبيض، ثمّ رفّ عينيه ببطء وأمره قائلاً: "تقدّم أمامنا يا بسّ النار".

كان بسّ رمادي ينتظر إلى جانب شجرة الرماد وهو يدور بتوتّر حول جذعها المتعفّن. توقّف حالما رأى أفراد الدورية وهم يظهرون من الضباب ويهزّون شواربهم تحيّة له.

سأله بسّ النار: "ألم تظهر جمرة بعد؟".

أجاب بسّ رمادي: "كلّا".

قال بسّ النار بسرعة عندما أحسّ أنّ الرعب الأبيض يتوتّر إلى جانبه: "نحن لا نعرف كم يبعد مخيّم عشيرة الظلال. ربّما كانت في طريق العودة الآن".

ماء بسّ رمادي: "وربّما كانت تتجاذب الألسنة بسعادة مع رفاقها القدامى، بينما نحن جالسين هنا كالحمقى ننتظر السقوط في الكمين!".

راقب الرعب الأبيض المبتدئَين وانتفضت أذناه بعدم ارتياح. "بسّ النار؟".

وعده هذا الأخير: "ستعود".

"أنت محقّ أيّها الشابّ". خرجت جمرة من خلف شجرة الرماد وجلست. "أنت لست الوحيد الذي يتسلّل ويفاجئ غيره. هل تذكر اليوم الذي التقينا فيه؟ يومذاك أيضاً نظرت في الاتّجاه الخاطئ".

خرجت ثلاثة قطط أخرى تنتمي إلى عشيرة الظلال من خلف الشجرة، وجلست بهدوء إلى جانبَي جمرة. فانتصب فراء قطط عشيرة الرعد بتيقّظ وريبة.

حدّق أفراد العشيرتين إلى بعضهم البعض، بينما تململ بسّ النار بعدم ارتياح، غير واثق

ممّا سيفعله الآن. أخيراً تحدّث أحد أفراد عشيرة الظلال، وكان هرّاً رمادياً. كان جسده الطويل هزيلاً وفراؤه كئيب المظهر: "نحن لم نأتِ إلى هنا لإيذائكم. أنتم أتيتم من أجل صغاركم، وسنساعدكم على استعادتهم".

سأله الرعب الأبيض بحذر: "وما مصلحتكم في ذلك؟".

"نريد منكم مساعدتنا على التخلّص من النجم نمرود. فقد خالف قانون المحاربين وسبّب الشقاء لعشيرة الظلال".

زمجر البرق الخاطف: "وهل الأمر بهذه البساطة؟ نقتحم مخيّمكم، ونستعيد الصغار، ثمّ نقتل زعيمكم ونعود أدراجنا؟".

تمتم الهرّ الرمادي: "لن تواجهوا مقاومة كبيرة بقدر ما تعتقدون".

وقفت جمرة وقالت: "دعوني أقدّم لكم أصدقائي القدامى". دارت حول قطط عشيرة الظلال، ومرّت من أمام الهرّ الرمادي: "هذا سحاب الرماد وهو أحد مسنّي العشيرة. وهذا فراء الليل، أحد كبار المحاربين قبل مقتل النجم الأشعث". ثمّ دارت حول هرّة سوداء في حالة مزرية، فهزّت رأسها لهم.

"وهذه هي إحدى كبار إناثنا، سحابة الفجر. خسرَت اثنين من أطفالها خلال عمليّة طرد عشيرة الرياح".

كانت سحابة الفجر هرّة مخطّطة صغيرة الحجم. ماءت بتحيّة وقالت: "أنا لا أرغب في خسارة المزيد من صغاري".

لعق الرعب الأبيض صدره بسرعة لتسريح فرائه وقال: "من الواضح أنّكم محاربون مهرة إن تمكّنتم من التسلّل ومفاجأتنا بهذا الشكل، لكن هل عددكم كافٍ؟ فنحن نحتاج إلى معرفة ما سنواجهه عندما نغزو مخيّم عشيرة الظلال".

ماء سحاب الرماد: "إنّ أعضاء عشيرة الظلال المسنّين والمرضى يتضوّرون جوعاً ببطء. والخسائر بين صغارنا هي أكثر ممّا نحتمل".

انفجر النمر الأسود قائلاً: "لكن ما دامت عشيرة الظلال غارقة في هذه الفوضى، كيف أظهرتهم كلّ تلك القوّة مؤخّراً؟ ولماذا لا يزال النجم نمرود زعيمكم؟".

أجاب سحاب الرماد: "النجم نمرود محاط بمجموعة صغيرة من نخبة المحاربين، وهم من ينبغي أن نخشاهم لأنّهم مستعدّون للتضحية بأرواحهم من أجله من دون تردّد. أمّا بقيّة المحاربين، فيُطيعون أوامره لأنّهم يخافونه. سيقاتلون إلى جانبه ما داموا يعتقدون أنّه سينتصر. لكن إن ظنّوا أنّه سيخسر...".

أنهى النمر الأسود جملة الهرّ المسّن باشمئزاز: "سيقاتلون ضدّه، وليس من أجله! أيّ ولاء هذا؟".

بدأ وبر عنق قطط عشيرة الظلال ينتصب.

قاطعتهم جمرة قائلة: "لم تكن عشيرتنا هكذا دائماً. فعندما كان النجم الأشعث زعيمنا، كنّا مرهوبي الجانب بفضل قوّتنا. لكن في تلك الأيّام، كنّا نستمدّ قوّتنا من قانون المحاربين ومن ولائنا للعشيرة، وليس من خوفنا وتعطّشنا للدماء". تنهّدت الهرّة المداوية العجوز وأضافت: "يا ليت النجم الأشعث كان أطول عمراً".

سألها الرعب الأبيض بفضول: "وكيف مات النجم الأشعث؟ فقد سمعت كثيراً من الشائعات خلال الاجتماعات، لكن لا يبدو أنّ أحداً لا يعرف بدقّة".

طغى الحزن على عيني جمرة وقالت: "لقد تعرّض لكمين من قبل دورية محاربين من عشيرة أخرى".

هزّ الرعب الأبيض رأسه وقال: "أجل، يبدو أنّ هذا ما تعتقده معظم القطط. لكن ثمّة حوادث سيّئة تقع أحياناً، يُقتل فيها الزعماء في الظلام، عوضاً عن السقوط علناً في معركة مشرّفة".

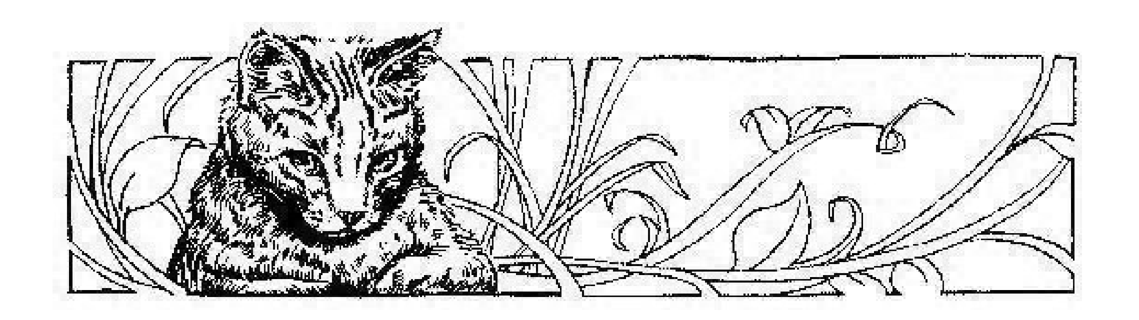
عبس بسّ النار وداهمته أفكار عن خطط حربية مختلفة فسأل: "هل ثمّة طريقة لاستعادة الصغار من دون لفت نظر العشيرة بأكملها؟".

أجابت سحابة الفجر: "إنّهم يخضعون لحراسة مشدّدة. فالنجم نمرود يتوقّع أن تحاول عشيرة الرعد استعادتهم، لذلك لن تتمكّنوا من خطفهم سرّاً، بل الهجوم المباشر هو أملكم الوحيد".

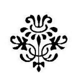
قال الرعب الأبيض: "إذاً علينا تركيز هجومنا على النجم نمرود وحرسه".

كان لدى جمرة اقتراح. "ماذا لو قادني محاربو عشيرة الظلال إلى داخل مخيّم العشيرة، وقالوا إنّهم قبضوا عليّ؟ إذ علينا إخراج النجم نمرود ومحاربيه من أوكارهم، وأنباء أسري ستجذبهم إلى فسحة المخيّم. ما إن يصبحوا في الخارج جميعاً، أعطيكم الإشارة للهجوم".

صمت الرعب الأبيض للحظة ثمّ هزّ رأسه موافقاً وبدت الجدّية على ملامحه وهو يلتزم مع محاربيه بتنفيذ الهجوم. قال: "حسناً يا جمرة، تقدّموا إلى مخيّم عشيرة الظلال من فضلكم".



الفصل 24



استدارت جمرة وشقّت طريقها بين الأجمات، فلحق بها الرعب الأبيض والباقون.

كان بسّ النار يلتهب حماسة، ولا يشعر ببرودة الجو الرطب، بل نسي تعبه تماماً.

قادتهم جمرة إلى غور صغير محاط بالأجمات الكثيفة وأشارت إلى مدخل مخيّم عشيرة الظلال. بدت كتلة العلّيق المتشابكة مختلفة جدّاً عن نفق القندول المرتّب الذي يؤدّي إلى مخيّم عشيرة الرعد. أحاطت الحفر والفجوات بالمخيّم، وبينما هم يتقدّمون هبّت عليهم روائح اللحم الفاسد.

تساءل بسّ رمادي وهو يلوي شفتيه اشمئزازاً: "هل تأكلون طعام الغربان؟".

أجاب سحاب الرماد: "اعتاد محاربونا على الهجوم لا على الصيد، لذلك نأكل ما نجده".

هسّت جمرة: "اختبئوا يا قطط عشيرة الرعد في تلك الأجمة هناك، فهي مليئة بقذارة الضفادع التي ستطغى على رائحتكم. انتظروا هناك حتّى تسمعوا ندائي".

تراجعت لتسمح لقطط عشيرة الظلال بتقدّمها، ووقفت وسطهم كما لو أنّها أسيرتهم. هكذا توجّهوا بصمت إلى داخل المخيّم.

جلست قطط عشيرة الرعد بين براز الضفادع بتوتّر وانتباه. أحسّ بسّ النار بفرائه وهو يقشعرّ، ونظر إلى بسّ رمادي الجالس بجانبه. كان الفراء الكثيف الذي يغطّي مؤخّر عنقه صديقه منتصباً، وسمعه بسّ النار وهو يلهث ويكبت حماسته.

فجأة تناهى إلى مسامعهم مواء عالٍ من مخيّم عشيرة الظلال. من دون تردّد، اندفعت قطط عشيرة الرعد من مخابئها وأسرعت تقتحم المخيّم.

كانت جمرة، وسحاب الرماد، وسحابة الفجر، وفراء الليل يقفون في فسحة ممهّدة وموحلة، ويتعاركون مع ستّة محاربين أقوياء. عرف بسّ النار بينهم النجم نمرود ونائبه الكفّ الأسود. بدا المحاربون جياعاً، تكسوهم ندوب المعارك، لكنّ بسّ النار استطاع رؤية عضلاتهم القوية وهي تتحرّك تحت فرائهم.

حول الفسحة، وقفت مجموعة من القطط الهزيلة تحدّق بتردّد إلى الفوضى. بدا على أجسادها الهزيلة النفور من العنف، بينما سيطر الاستغراب والإرباك على أعينها المرهقة. رأى بسّ النار من زاوية عينه شرشور وهو يتراجع ويختبئ تحت إحدى الأجمات.

ما إن أعطى الرعب الأبيض إشارة من رأسه، حتّى انقضّت قطط عشيرة الرعد واشتبكت مع أعدائها.

أمسك بسّ النار هرّاً فضياً مخطّطاً بمخالبه، لكنّه أفلت منه. تعثّر وسقط، فأمسكه محارب عشيرة الظلال بمخالبه الحادّة كالأشواك السوداء. أفلت منه بسّ النار وغرز أسنانه عميقاً في جسد الهرّ. ومن المواء العالي الذي أطلقه المحارب، أدرك أنّه أصاب منطقة حسّاسة، فضغط بأسنانه أكثر. صاح المحارب مجدّداً، قبل أن يتحرّر منه ويختفي بين الشجيرات.

وقف بسّ النار ورأى مبتدئاً صغيراً من عشيرة الظلال يهجم عليه من أطراف المخيّم، وقد اقشعرّ فراؤه الناعم من شدّة الخوف. فدفعه بسّ النار بمخالبه وأبعده بسهولة، ثمّ هسّ قائلاً: "هذه المعركة ليست لك".

كان الرعب الأبيض قد ثبّت الكفّ الأسود على الأرض ليعاجله بعضّة موجعة. ففرّ النائب الجريح هارباً عبر مدخل المخيّم إلى الغابة الآمنة.

"بسّ النار!". سمع بسّ النار اسمه على لسان سحابة الفجر التي أضافت: "انتبه! نمس...". لم يسمع الباقي، إذ انقضّ عليه هرّ بنّي قوي البنية. نمس! غرز بسّ النار مخالبه في الأرض ودار حول نفسه لمواجهة خصمه. إنّه المحارب الذي قتل الورقة الرقطاء! اجتاحته موجة من الغضب، وسرعان ما انقضّ على الهرّ البنّي.

دفع بسّ النار المحارب على الأرض وضغط رأسه في التراب. أعماه الغضب واستعدّ ليُنشب أنيابه في عنق نمس. لكن قبل أن يوجّه إليه الضربة القاضية، دفعه الرعب الأبيض جانباً وقبض على محارب عشيرة الظلال.

زمجر في أذن بسّ النار: "محاربو عشيرة الرعد لا يقتلون ما لم يضطرّوا لذلك. كلّ ما نريده منهم الرحيل من هنا إلى الأبد!". وعاجل نمس بعضّة شرسة جعلته يفرّ من المخيّم وهو يصرخ.

نظر بسّ النار حوله بوحشية، والغضب لا يزال يعتمل في صدره. غير أنّ محاربي النجم نمرود كانوا قد لاذوا بالفرار.

فجأة علت صيحة غضب من خلف بسّ رمادي، فابتعد هذا الأخير من الطريق، ورأى

بسّ النار جمرة وهي تمسك بالنجم نمرود بأكفّها الموحلة والملوّثة بالدماء. كان جسده ينزف من عدّة جروح. جثم تحت قبضة جمرة القوية بأذنيه المسطّحتين على رأسه وشاربه المتراجع إلى الخلف.

زمجر في وجهها قائلاً: "لم أعتقد أبداً أنّ قتلك سيكون أصعب من قتل أبي!".

انكمشت جمرة كما لو أنّها أصيبت بلسعة نحلة، وتشنّج وجهها فجأة من شدّة الصدمة والحزن. تراخت قبضتها، فألقاها جانباً على الفور بحركة من جسده القوي.

صاحت وقد اتّسعت عيناها ذهولاً: "أنت قتلت النجم الأشعث؟".

رمقها النجم نمرود ببرودة وأجاب: "أنت من عثر على جثّته، ألم تتعرّفي على فرائي بين مخالبه؟". حدّقت إليه جمرة برعب وهو يتابع: "كان زعيماً ليّناً ومتهوّراً، وقد استحقّ الموت".

همّت جمرة: "كلّا!" وخفضت رأسها. انتفضت بعد ذلك ونظرت إلى النجم نمرود، ثمّ قوّست جسدها وقالت: "وماذا عن صغيريَ الزهرة السوداء؟ هل كانا يستحقّان الموت هما أيضاً؟".

زمجر النجم نمرود وانقضّ على جمرة، فانبطحت على بطنها. لم تحاول حتّى مقاومة مخالبه الحادة كالأشواك، ولاحظ بسّ النار كيف خيّم الحزن على عينيها.

هسّ النجم نمرود وهو يخفض وجهه إلى أذن جمرة: "كانا ضعيفَين، سيشكّلان عبئاً على عشيرة الظلال. لو لم أقتلهما، لقتلهما محارب آخر".

علت صيحة أسى من هرّة سوداء وبيضاء. فتجاهلها النجم نمرود وتابع يقول: "كان يجب عليّ قتلك عندما سنحت لي الفرصة، لكن يبدو أنّني أملك شيئاً من ليونة أبي، وما كان يجدر بي إطلاقاً أن أسمح لك بمغادرة العشيرة على قيد الحياة!". ثمّ كشّر عن أنيابه استعداداً للانقضاض على عنقها.

بيد أنّ بسّ النار كان أسرع منه. إذ انقضّ على ظهر النجم نمرود قبل أن يُطبق هذا الأخير بفكّيه على عنق جمرة. فأنشب بسّ النار مخالبه في فراء الهرّ المخطّط وشدّه بعيداً عن الهرّة المنهكة، ليلقي به إلى طرف الفسحة.

استدار النجم نمرود في الهواء وهبط على قوائمه، ثمّ نظر إلى عيني بسّ النار وهو يبصق بشراسة. "لا تُضع وقتك أيّها المبتدئ! فقد تشاركتُ الأحلام مع عشيرة النجوم. سيتعيّن عليك قتلي تسع مرّات قبل أن أنضمّ إليها. هل تظنّ حقّاً أنّك قادر على ذلك؟". لمعت عيناه بثقة وتحدٍّ.

حدّق إليه بسّ النار وتشنّج بطنه. فالنجم نمرود زعيم عشيرة! كيف سيتمكّن من هزمه؟ في تلك اللحظة، بدأ قطط عشيرة الظلال، الذين كانوا يراقبون، بالتقدّم ببطء نحو زعيمهم المهزوم وهم يزمجرون ويهسّون بحقد. كانوا منهكين وجياعاً، لكنّهم كثر ضدّ هرّ واحد. ويبدو أنّ النجم نمرود بدأ يدرك ذلك وهو يهزّ ذيله بعصبية. خفض جسده وتراجع نحو الأدغال. لمعت عيناه

بتهديد من بين الظلال، بينما بحث بعينيه عن بسّ النار.

هسّ قائلاً: "معركتنا لم تنتهِ أيّها المبتدئ"، ثمّ استدار واختفى في الأدغال خلف محاربيه المهزومين.

نظر بسّ النار إلى الرعب الأبيض ومواء متسائلاً: "ألا يجدر بنا اللحاق بهم؟".

هزّ المحارب رأسه نافياً وأجاب: "أعتقد أنّهم فهموا الرسالة وعرفوا أنّه غير مرحّب بهم هنا بعد اليوم".

هزّ فراء الليل، محارب عشيرة الظلال، رأسه موافقاً. "دعهم يرحلون. وإن تجرّؤوا على العودة، فإنّ عشيرة الظلال ستكون قوية بما فيه الكفاية لمواجهتهم بمفردها".

احتشدت بقيّة قطط عشيرة الظلال عند أطلال المخيّم، وسيطر عليها الذهول وهي تدرك أنّ زعيمها قد رحل. تأمّلها بسّ النار وقال في سرّه، إنّ إعادة بناء هذه العشيرة ستستغرق وقتاً.

"الصغار!".

سمع بسّ النار مواء بسّ رمادي من إحدى زوايا الفسحة. فاندفع إلى صديقه، ولحقت به الفأرة السمراء والرعب الأبيض. مع اقترابهم، بدؤوا يسمعون مواء الصغار المثير للشفقة آتياً من تحت كومة من الأوراق والأغصان. فنبش بسّ رمادي والفأرة السمراء الأوراق بسرعة ليعثرا على صغار عشيرة الرعد المفقودين في قعر حفرة صغيرة.

تساءل الرعب الأبيض وهو يهزّ ذيله بقلق: "أهم بخير؟".

أجاب بسّ رمادي: "إنّهم على خير ما يرام. معظمهم مصابون بخدوش بسيطة وحسب. لكنّ ذاك الصغير المخطّط لديه جرح كبير في أذنه. هلّا ألقيت عليه نظرة يا جمرة؟".

كانت الهرّة العجوز تلعق جراحها، لكنّها أسرعت لتلبية نداء بسّ رمادي. ووقفت على حافة الحفرة حيث وضع بسّ رمادي بعناية الصغير المخطّط.

ساعد بسّ النار صديقه على إخراج بقيّة الصغار. كانت الأخيرة رمادية بلون الجمر المطفأ. راحت تموء وتتلوّى بينما كان بسّ النار يضعها على الأرض. فجمعت الفأرة السمراء الصغار إليها وبدأت تلعقهم وتلامسهم ليهدؤوا.

تفحّصت جمرة الأذن الجريحة وقالت: "علينا إيقاف هذا النزيف".

خرج شرشور من بين الظلال وقد لفّ على كفّه الأمامي طبقة من خيوط العنكبوت أعطاها بصمت إلى جمرة. فهزّت رأسها شاكرة وبدأت تعالج جرح الصغير.

اقترب فراء الليل من قطط عشيرة الرعد وقال: "لقد ساعدتم عشيرة الظلال على التخلّص من زعيم قاس وخطر ونحن ممتنّون لكم، لكن حان الوقت لتغادروا مخيّمنا وتعودوا إلى مخيّمكم.

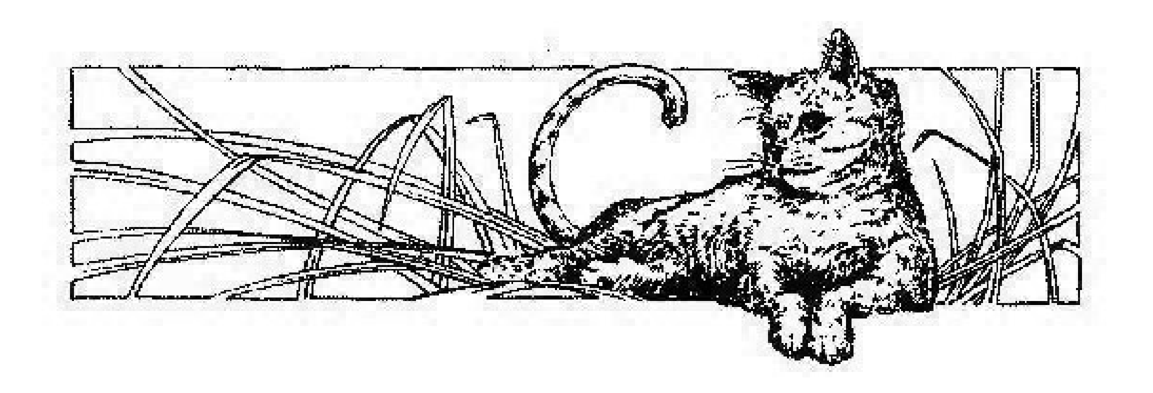
وأعدكم أنّ محاربي عشيرة الظلال لن يطؤوا أراضيكم ما دمنا نجد صيداً كافياً في أراضينا".

هزّ الرعب الأبيض رأسه موافقاً: "اصطادوا بسلام لشهر واحد يا فراء الليل. فعشيرة الرعد تعرف أنّكم تحتاجون إلى الوقت لتعيدوا بناء عشيرتكم". ثمّ استدار إلى جمرة وسألها: "وأنت يا جمرة؟ هل ترغبين في العودة معنا أم تودّين البقاء مع رفاقك القدامى".

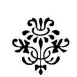
نظرت إليه جمرة وأجابت: "سأرافقكم في رحلة العودة". نظرت إلى جرح عميق في ساق الرعب الأبيض الخلفية وأضافت: "فأنتم والصغار تحتاجون إلى هرّة مداوية".

خرخر الرعب الأبيض شاكراً ثمّ أشار إلى قطط عشيرته بهزّة من ذيله وقادهم إلى خارج الفسحة. ساعدت الفأرة السمراء وغصن الصفصاف الصغار الذين أخذوا يتعثّرون في سيرهم من شدّة الإنهاك والضياع. أمّا جمرة فسارت إلى جانب الصغير المخطّط الجريح وراحت تحمله من عنقه كلّما تعثّر. تبعهم بسّ النار وبسّ رمادي عبر أجمات العلّيق، واجتازوا خطّ الرائحة المحيط بالمخيّم ثمّ دخلوا الغابة.

كان القمر ما زال يرتفع في السماء الهادئة عندما بدأت فرقة عشيرة الرعد رحلة عودتها إلى المخيّم، بينما تناثرت من حولها الأوراق البنّية على أرض الغابة.



الفصل 25



اندفع بسّ النار وبسّ رمادي وسبقا الدورية إلى داخل المخيّم، وقد غمرتهما البهجة. كانت بياض الثلج ممدّدة في وسط الفسحة، خافضة رأسها بحزن على كفّيها. عندما دخل المبتدئان، رفعت رأسها واشتمّت الهواء، ثمّ هتفت: "صغاري!". قفزت وهُرعت من أمام بسّ النار وبسّ رمادي لاستقبال بقيّة الفرقة وهي تدخل من النفق.

اندفع الصغار نحو أمّهم وأقحموا وجوههم في فرائها. فتكوّرت حولهم وبدأت تلعقهم واحداً تلو الآخر وهي تخرخر بصوت عالٍ.

وقفت جمرة عند مدخل المخيّم تتأمّل ما يجري بصمت.

اقتربت نجمة الصباح من المجموعة. نظرت بفرح إلى بياض الثلج وصغارها ومن ثمّ إلى الرعب الأبيض وسألته: "هل هم جميعاً بخير؟".

"إنّهم على خير ما يرام".

"أحسنت أيّها الرعب الأبيض. أنت تستحقّ كلّ تقدير عشيرة الرعد".

خفض الرعب الأبيض رأسه تواضعاً وأجابها: "لكنّ الفضل في إيجادهم يرجع إلى هذا المبتدئ".

رفع بسّ النار رأسه وذيله بفخر وكان على وشك الكلام، لكنّ النمر الشرس أطلق زمجرة غاضبة تردّدت أصداؤها في أرجاء الفسحة.

"لماذا أحضرتم الخائنة معكم؟". أتى المحارب الأسمر بخطى واسعة ووقف إلى جانب

زعيمة العشيرة.

أكّد بسّ النار قائلاً: "ليست بخائنة". نظر حوله ورأى بقيّة القطط تجتمع بسرعة لرؤية الصغار وتهنئة فرقة البحث. وكان بعضهم قد رأى جمرة وراح ينظر إليها بحقد واضح.

قال النمر الذيّال: "كيف وقد قتلت الورقة الرقطاء".

قال بسّ رمادي: "إن بحثتم بين مخالب الورقة الرقطاء ستجدون فراء نمس البنّي وليس فراء جمرة الرمادي!".

هزّت نجمة الصباح رأسها في إشارة إلى الفأرة السمراء. فانطلقت على الفور إلى البقعة التي تستلقي فيها جثّة الورقة الرقطاء بانتظار دفنها عند الفجر. انتظرت العشيرة بصمت وتوتّر إلى أن عادت.

رجعت الفأرة السمراء إلى الفسحة وهي تلهث. "بسّ رمادي على حقّ، فالهرّ الذي هاجم الورقة الرقطاء ليس رمادياً".

سُمعت همهمات الصدمة من الحشد.

هسّ النمر الشرس: "لكنّ هذا لا يعني أنّها لم تساعد على خطف الصغار!".

قال بسّ النار بحدّة بعد أن أفقده الإرهاق صبره: "لولا جمرة لما استطعنا إعادة الصغار! فهي تعرف أنّ محارب عشيرة الظلال هو الذي اختطفهم، وكانت تبحث عنه عندما عثرت عليها. خاطرت بحياتها وعادت إلى مخيّم عشيرة الظلال، وهي من وضعت خطّة المعركة التي سمحت لنا بدخول مخيّمهم ومنحتنا الفرصة لنهزم النجم نمرود!".

أصغت الهررة إلى كلام بسّ النار بذهول.

ماء الرعب الأبيض: "إنّه على حقّ، جمرة صديقة وليست عدوّة".

تمتمت نجمة الصباح وهي تنظر إلى بسّ النار: "أنا مسرورة لسماع ذلك".

سُمع مواء بياض الثلج القلق وهي تقول: "وهل مات النجم نمرود؟".

أجابها الرعب الأبيض: "كلّا، بل لاذ بالفرار. لكنّه لن يتزعّم عشيرة الظلال بعد اليوم".

تنهّدت بياض الثلج بارتياح وعادت تداعب صغارها.

نظر الرعب الأبيض إلى نجمة الصباح وقال: "وعدت عشيرة الظلال أنّنا سنتركهم بسلام حتّى الشهر القادم، فقيادة النجم نمرود جعلتهم يتخبّطون في الفوضى".

ماءت نجمة الصباح باستحسان: "هذا عرض حكيم وكريم". مرّت زعيمة العشيرة من أمام الرعب الأبيض وبقيّة الدورية واقتربت من جمرة. خفضت جمرة نظرها بينما لامست نجمة الصباح

فراء الهرّة الرمادية الخشن بأنفها، وقالت: "جمرة، أتمنّى أن تحلّي مكان الورقة الرقطاء كهرّة مداوية لعشيرتنا. أنا واثقة أنّك ستعثرين على كلّ اللوازم كما تركتها".

بدأت القطط الأخرى تتمتم وتهزّ أذيالها حماسة. فنظرت جمرة حولها بقلق ولم تقل شيئاً.

نظرت بياض الثلج إلى بقيّة الإناث قبل أن تحوّل نظرها إلى جمرة وتهزّ رأسها ببطء استحساناً. فخفضت جمرة رأسها باحترام قبل أن تلتفت إلى زعيمتها الجديدة. "شكراً لك يا نجمة الصباح، فعشيرة الظلال لم تعد كما عرفتها. عشيرة الرعد هي عشيرتي الآن".

أحسّ بسّ النار بالرضى لأنّ الهرّة العجوز التي أحبّها ستصبح مداوية عشيرته من الآن فصاعداً. غير أنّ ذيله انخفض مجدّداً عندما تذكّر أنّه لن يرى الورقة الرقطاء مرّة أخرى في فسحتها، بفرائها الناعم الذي يتألّق تحت ضوء الشمس وعينيها العنبريتين اللتين تلمعان ترحيباً به.

ماءت نجمة الصباح فجأة وأخرجت بسّ النار من ذكرياته المرّة والحلوة على السواء: "أين بسّ أدهم؟".

ردّد النمر الشرس: "صحيح، أين تلميذي؟ من الغريب أن يختفي مع النجم نمرود". ووجّه نظرات ذات معنى إلى العشيرة.

أجابه بسّ النار بجرأة: "إن كنت تظنّ أنّه كان يساعد النجم نمرود، فأنت مخطئ!".

تصلّب النمر الشرس، وبدا التهديد في عينيه الصفراوين.

تابع بسّ النار وخفض رأسه كما لو أنّه مثقل بالحزن: "بسّ أدهم مات، وجدنا جثّته في أراضي عشيرة الظلال. ومن الروائح المحيطة به، يبدو أنّه تعرّض للقتل على يد دورية من عشيرة الظلال". نظر إلى نجمة الصباح ثمّ قال: "سأخبرك كلّ شيء لاحقاً".

نظرت جمرة إلى بسّ النار متسائلة، فوجّه إليها نظرة توسّل صامتة لكي تمسك لسانها. عندئذٍ هزّت أذنيها بتفهّم وأشاحت بنظرها.

هسّ النمر الشرس: "أنا لم أقل يوماً إنّ بسّ أدهم خائن". صمت ثمّ رسم على وجهه ملامح الحزن، قبل أن يتوجّه إلى بقيّة العشيرة: "كان من الممكن أن يصبح بسّ أدهم محارباً بارعاً، لكنّ الموت خطفه باكراً، وخسارته ستحزننا طويلاً".

قال بسّ النار في سرّه بمرارة، كلام فارغ! ماذا سيقول النمر الشرس لو عرف أنّ بسّ أدهم بأمان خارج الغابة، يصطاد الجرذان مع بربر؟

خرقت نجمة الصباح الصمت قائلة: "سنفتقد إلى بسّ أدهم، لكنّنا سنحزن عليه غداً. علينا الآن أداء مراسم أخرى، وأنا أعرف أنّه لو كان بسّ أدهم بيننا لشاركنا إيّاها بسرور". التفتت إلى بسّ النار وبسّ رمادي ثمّ قالت: "أظهرتما شجاعة كبيرة هذه الليلة. هل قاتلا جيّداً أيّها الرعب الأبيض؟".

أجابها بمهابة: "كالمحاربين".

نظرت نجمة الصباح إلى عينيه الصفراوين ثمّ هزّت رأسها بخفّة، قبل أن ترفع ذقنها وتنظر إلى الفراء الفضّي المرصّع بالنجوم. تردّد صوتها بوضوح ورزانة في الغابة الصامتة. "أنا نجمة الصباح، زعيمة عشيرة الرعد، أدعو أجدادي المحاربين إلى النظر إلى هذين المبتدئَين. فقد تدرّبا بجهد لفهم قانوننا النبيل، وأرى أنّهما باتا يستحقّان لقب محاربَين بدورهما". نظرت إلى بسّ النار وبسّ رمادي وتابعت: "بسّ النار، بسّ رمادي، هل تعدان باحترام قانون المحاربين وحماية هذه العشيرة والدفاع عنها حتّى لو كلّفكما ذلك حياتكما؟".

أحسّ بسّ النار بشيء يتحرّك بداخله، مثل نار تحرق أحشاءه وتلهب أذنيه. أحسّ فجأة كما لو أنّ كلّ ما فعله من أجل العشيرة حتّى الآن، كلّ الطرائد التي اصطادها، وكلّ الأعداء الذين قاتلهم، كان من أجل هذه اللحظة. فأجاب بنبرة ثابتة: "أجل".

ردّد بسّ رمادي وقد اقشعرّ جسده حماسة: "أجل".

"إذاً، بالسلطة التي منحتني إيّاها عشيرة النجوم أعطيكما اسمَي محاربَين: بسّ رمادي، من هذه اللحظة فصاعداً سيصبح اسمك النمر الرمادي. عشيرة النجوم تقدّر شجاعتك وقوّتك، ونحن نرحّب بك كأحد محاربي عشيرة الرعد". تقدّمت نجمة الصباح ولامست وجهها برأس النمر الرمادي المحني. فحنى رأسه أكثر ولعق كتفها باحترام، قبل أن يستقيم في وقفته ويذهب للانضمام إلى بقيّة المحاربين.

وقفت نجمة الصباح وتأمّلت بسّ النار مطوّلاً قبل أن تقول: "بسّ النار، بدءاً من هذه اللحظة فصاعداً سيصبح اسمك قلب النار. عشيرة النجوم تقدّر شجاعتك وقوّتك، ونحن نرحّب بك كأحد محاربي عشيرة الرعد". لامست وجهها برأسه وتمتمت: "قلب النار، أنا فخورة بكونك محارباً في عشيرتي. اخدم العشيرة جيّداً أيّها الشابّ".

ارتجفت عضلات قلب النار بحيث استطاع بالكاد أن ينحني ليلعق كتف نجمة الصباح. خرخر شاكراً بصوت أجش ثمّ ابتعد ليقف إلى جانب النمر الرمادي.

ارتفع مواء الفرح، وهتفت قطط العشيرة في هواء الليل الساكن باسمَي المحاربين الجديدَين: "قلب النار! النمر الرمادي! قلب النار! النمر الرمادي!".

نظر قلب النار حوله ورأى وجوهاً أصبحت مألوفة جدّاً بالنسبة إليه خلال الأشهر القليلة الماضية. أصغى إليهم وهم يردّدون اسمه الجديد وغمره السرور لدى رؤية الحبّ والاحترام في أعينهم.

ماءت نجمة الصباح: "أوشك القمر على بلوغ وسط السماء. وتماشياً مع عادات أجدادنا، ينبغي على قلب النار والنمر الرمادي أن يسهرا بصمت حتّى الفجر ويحرسا المخيّم بمفردهما خلال نومنا".

هزّ قلب النار والنمر الرمادي رأسيهما بمهابة.

عندما تفرّقت بقيّة قطط العشيرة وتوجّه كلّ إلى وكره، مرّ النمر الشرس من أمام قلب النار. أبطأ نائب العشيرة من مشيته وهسّ بصمت في أذنه: "لا تظنّ نفسك أكثر ذكاء منّي أيّها البسبوس الأليف. انتبه ماذا تقول لنجمة الصباح".

سرت رعشة باردة في ظهر قلب النار. لا بدّ لنجمة الصباح أن تعرف بخيانة النمر الشرس!

عندما ابتعد النمر الشرس إلى وكر المحاربين، ترك قلب النار صديقه جالساً بمفرده في الفسحة، وهرول خلف نجمة الصباح. لحق بها خارج وكرها وقال: "نجمة الصباح، أنا أعرف أنّني أخالف عهد الصمت، لكن عليّ أن أتحدّث معك قبل أن أبدأ بالحراسة".

نظرت نجمة الصباح إلى قلب النار وهزّت رأسها قائلة: "هذه المراسم مهمّة يا قلب النار. يمكنك أن تكلّمني في الصباح".

خفض قلب النار رأسه مستسلماً. على أيّ حال، لم تكن مشكلة النمر الشرس قابلة للحلّ بين ليلة وضحاها. عاد إلى جانب النمر الرمادي في وسط الفسحة، وتبادل الصديقان النظرات بصمت.

نظر قلب النار إلى القمر. كان فراؤه البرتقالي يلمع بلون فضّي تحت ضوءئه البارد. من حوله، خيّم ضباب رقيق على الأدغال والأشجار وشعر برطوبته فوق فرائه. فأغمض عينيه، وتذكّر الأحلام التي كانت تراوده في صغره. أصبحت روائح الغابة الباردة التي داعبت أنفه حقيقية الآن، وحياة المحارب بانتظاره. أحسّ بفرح عارم ينبع من أكفّه ويجتاح جسده. فجأة، فتح عينيه مجفلاً ليرى عينين تنظران إليه من وكر المحاربين.

النمر الشرس!

حدّق إليه قلب النار من دون أن يرفّ له جفن. أصبح الآن محارباً، وجعل من نائب عشيرته عدوّاً له. وكذلك النمر الشرس جعل منه عدوّاً هو الآخر. غير أنّ قلب النار لم يعد ذلك الهرّ الصغير الساذج الذي انضمّ إلى العشيرة منذ أشهر خلت، بل بات أكبر حجماً، وأقوى بنية، وأكثر سرعة وحكمة. وإن قُدّر له أن يواجه النمر الشرس، فقد أصبح مستعدّاً لهذا التحدّي.